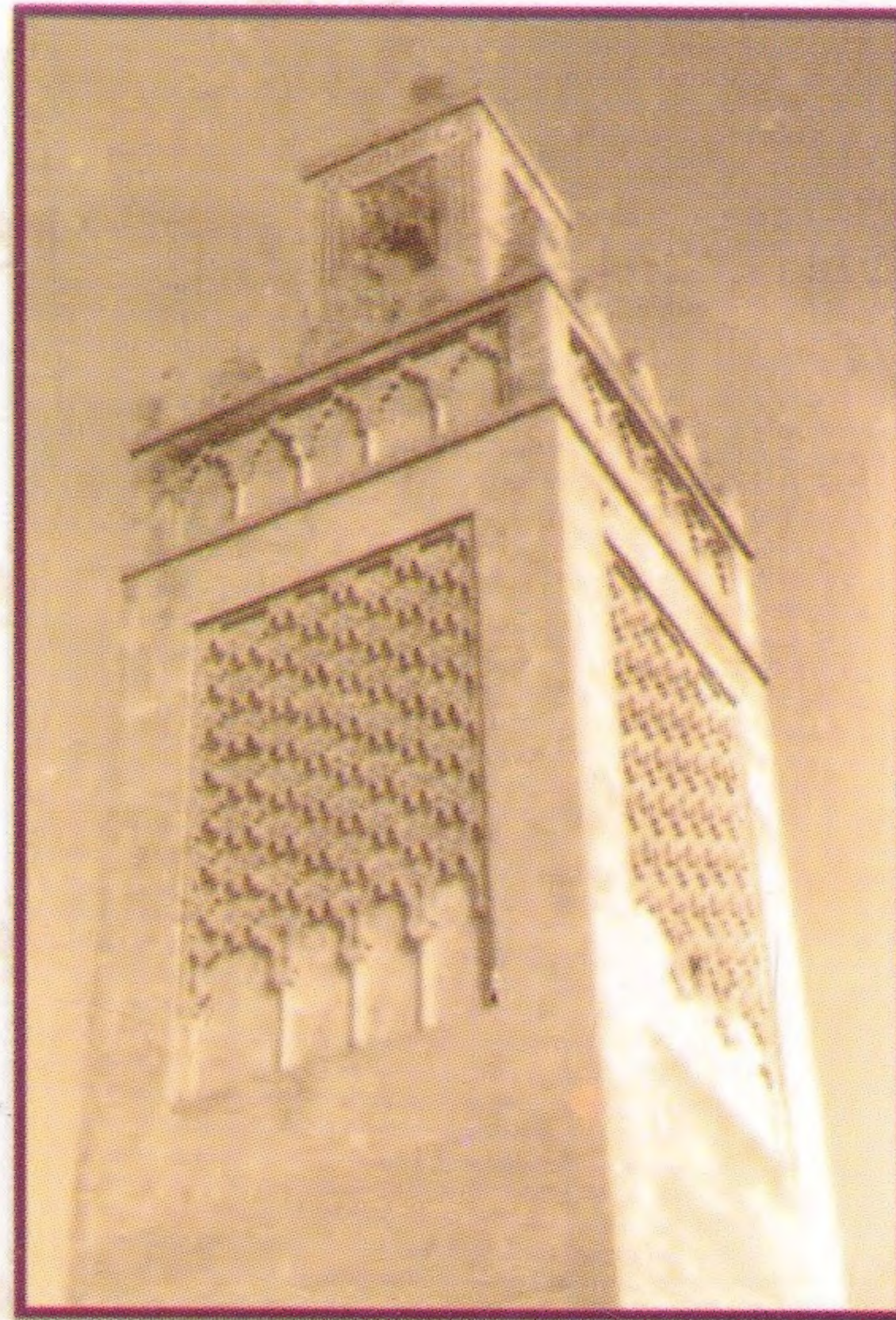


تطور المآذن في الجزائر



تأليف

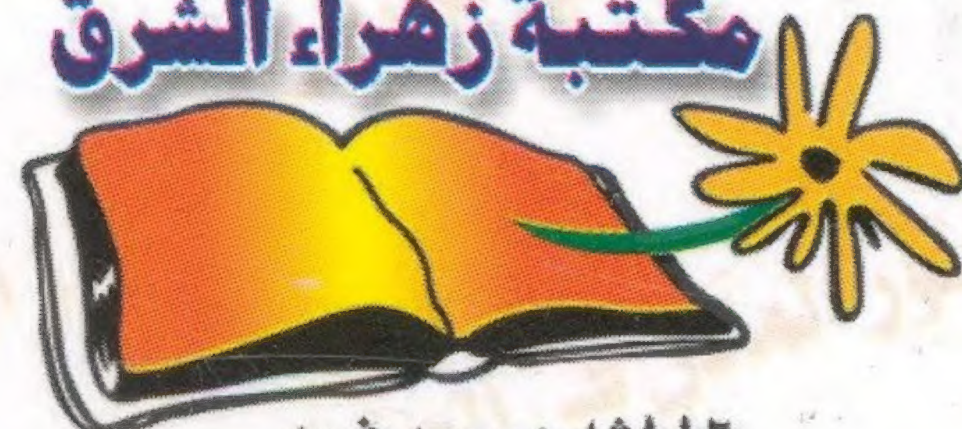
الأستاذ / **عبد الكريم عزوق**

أستاذ الآثار الإسلامية

جامعة الجزائر

الناشر

مكتبة زهراء الشرق



١٦ شارع محمد فريد

ت: ٣٩٢٩١٩٢ موبايل: ٠١٢٣١٧٧٥١٠

تطور المآذن في الجزائر

تأليف

الأستاذ/ عبد الكريم عزوق

أستاذ الآثار الإسلامية

جامعة الجزائر

زهراء القاهرة

١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة

ت: ٣٩٢٩١٩٢ - ف: ٣٩٣٣٩٠٩

حقوق الطبع محفوظة للناشر

اسم الكتاب	: تطور المأذن فى الجزائر
اسم المؤلف	: الاستاذ عبد الكريم عزوق
رقم الطبعة	: الأولى
السنة	: ٢٠٠٦
رقم الإيداع	: ٧٢٥١
الترقيم الدولى	: ISBN 977- 314 - 272 - 8
اسم الناشر	: مكتبة زهراء الشرق
العنوان	: ١١٦ شارع محمد فريد
البلد	: جمهورية مصر العربية
المحافظة	: القاهرة
التليفون	: ٠٠٢٠٢٣٩٢٩١٩٢
فاكس	: ٠٠٢٠٢٣٩٢٩١٩٢
المحمول	: ٠١٢٣١٧٧٥١٠



الإهداء

إلى روح الوالدين الكريمين..

رحمهما الله وأسكنهما فسيح الجنان..

إلى زوجتي سميرة..

وابنتي العزيزة ياسمين

أهدي هذا العمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يعتبر موضوع هذا الكتاب من الموضوعات الهامة الجديرة بعناية الباحثين في تاريخ العمارة الإسلامية في المغرب والأندلس، وتستلزم لجدتها وأصالتها جهودا مضنية، وقدرات متميزة، وبحوثا ميدانية متواصلة، ودراسات تحليلية ومقارنة لإبراز مراحل التطور في النظام التخطيطي لعمارة المآذن الجزائرية خلال الفترة موضوع البحث، و لاستنباط أهم الخصائص التي تميزت بها عناصرها المعمارية والزخرفية في كل مراحل تطورها. وموضوع البحث في حد ذاته لجدته وطرافته، وقلة ما كتب عنه، شائك يتطلب جهدا شاقا مضنيا، وفهما دقيقا وواعيا لكل نموذج من هذه المآذن، وتصنيفها تاريخيا بغية التعرف على أوجه الشبه والخلاف، وتقصي مراحل التطور، وأن كان ذلك لا يمكن تحقيقه بالنسبة لمآذن العصر الإسلامي لتنوع أشكالها، وتعدد نظامها التخطيطي.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف قسم الطالب بحثه إلى خمسة فصول، قدم لكل منها بدراسة تمهيدية تاريخية موجزة أما الفصل الأول فقد خصصه لدراسة نظام المئذنة في عصر دولة بني حماد، وأختار من مآذن هذا العصر نموذجين: الأول يتمثل في مئذنة قلعة بني حماد التي تعتبر من أقدم مآذن المغرب الأوسط، و واحدة من أبرز المآذن المغربية التي تتميز بأصالة البنيان في كل أنحاء المغرب الإسلامي والأندلس، فكثير من العناصر المعمارية لمآذن الموحدين إنما اشتقت من هذه المئذنة. والنموذج الثاني يتمثل في مئذنة جامع قسنطينة التي تنفرد بين غيرها من مآذن المغرب الأوسط بنظامها التخطيطي الفريد، إذ أن قاعدتها أسطوانية الشكل. وقد أجري الباحث على هاتين المئذنتين دراسة معمارية دقيقة من حيث التكوين الداخلي والشكل الخارجي لكل منهما، وكذلك من حيث مواد البناء المستخدمة. وأفرد الفصل الثاني لدراسة المآذن الزيرية، و تتمثل في أربعة نماذج في تلمسان هي: مئذنة المسجد الجامع بتلمسان، ومئذنة جامع ندرومة، ومئذنة جامع سيدي أبي الحسن، ومئذنة جامع المشور. وابتدأ الفصل بعرض تاريخي موجز لبني زيان اتبعه بوصف عام

للمئذنة الزياتية، كما تعرض بإيجاز شديد لمآذن زياتية أخرى لم تبلغ في قيمتها الفنية ما بلغته الأمثلة السابقة. وخصص الفصل الثالث لدراسة مآذن بني مرين في المغرب الأوسط، وانتهج في هذا الفصل نهجه السابق في معالجة الموضوع فقدم لدراسته الأثرية بعرض تاريخي مقتضب عن بني مرين تلاه عرض سريع للطابع العام للمئذنة المرينية. واختار للدراسة الأثرية مئذنتين: الأولى هي مئذنة جامع المنصورة بتلمسان، وهي مئذنة فريدة من نوعها بين مآذن المغرب الأوسط، إذ أن دعائمها المركزية مجوفة تتألف من غرف متراكبة، ثم إنها أيضا تعد أروع أمثلة المآذن الجزائرية من حيث النظام المعماري والزخرفي الذي يعبر عن قدرات المرينيين الفنية العالية. ويتمثل النموذج الثاني في مئذنة جامع سيدي أبي مدين بتلمسان، وهي مئذنة مربعة الشكل أقيمت على غرار المآذن الزياتية. وأضاف الباحث إلى هذين النموذجين لمآذن بني مرين، مئذنة جامع سيدي الحلوي التي تعرض لها بإيجاز شديد لارتباطها الوثيق معماريا وزخرفيا بمئذنة سيدي أبي مدين من نفس العصر.

وبحث في الفصل الرابع في مآذن العصر العثماني، وبدأ كعادته بعرض تاريخي مبسّر لفترة الحكم العثماني للجزائر، واتبعه بدراسة الطابع العام للمئذنة العثمانية، واختار بعد ذلك خمسة نماذج لمآذن عثمانية متنوعة الأشكال تمثل نظام المآذن العثمانية منها المثمنة التي تظهر لأول مرة في عمارة المآذن الجزائرية، ومنها المئذنة مربعة القاعدة ومثمنة البدن، ومنها المئذنة ذات البدن المربع وفق النظام المعماري الشائع في المغرب في العهود السابقة، هذه النماذج هي مآذن جامع سيدي لخضر بقسنطينة وجامع الجيش، والجامع الجديد وجامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي بمدينة الجزائر وجامع الباشا بوهران.

وأفرد الباحث الفصل الخامس والأخير لدراسة المكونات الزخرفية للمآذن الجزائرية وهي مقومات تختلف من مئذنة إلى أخرى، ومن عصر إلى آخر وقسم هذا الفصل إلى أربعة موضوعات رئيسية، تناول فيها العناصر الزخرفية النباتية ثم الهندسية فالنقوش الكتابية والمقرنصات. وحاول في دراسته لها تتبعها زمنيا خلال

الفترة موضوع الدراسة هذا، وإذا كان الباحث قدم بحثه بمقدمة قصيرة تضمنت أسباب اختياره لموضوع البحث والطابع العام لمآذن الجزائر وما تزدان به إجمالاً من زخارف لوزنجية وحليات، واختتمها بعرض موجز لأهم المصادر و المراجع التي اعتمد عليها ومدى إفادته منها، واتبع هذه المقدمة بدراسة تمهيدية اشتملت على دراسة عامة للمآذن الأولى والآراء المختلفة حول مصدر اشتقاقها، ثم اختتمها بعرض موجز عن المآذن الأولى في المغرب والأندلس، توطئة لربطها بمنذنة قلعة بني حماد، إذا كان الباحث قد عرض كل ذلك في مقدمته ودراسته التمهيدية، فإنه اختتم البحث بخاتمة سجل فيها مظاهر التطور المعماري والزخرفي التي طرأت على نظام المنذنة الجزائرية في الفترة موضوع الدراسة، وأكد فيها أن المنذنة الزيانية والمرينية تمثل المرحلة التي بلغت بها المنذنة الجزائرية ذروة تطورها.

ومما لا شك فيه بعد استعراض موضوع الكتاب أن السيد/ عبد الكريم محمد صالح عزوق عالج موضوعات الكتاب باستفاضة وموضوعية تشهد له بالجدة والقدرة على إعداد البحث العلمي السليم، فقد اتخذ لنفسه منهجاً في معالجة الموضوع يعتمد على الوصف العام لكل منذنة على حدود وفقاً لترتيبها الزمني، وعلى التحليل الدقيق لنظامها التخطيطي من الداخل والخارج، وما تزدان به أوجهها من حليات زخرفية: نباتية وهندسية وخطية، مستنداً في كل ذلك على جهوده الذاتية ودراساته الميدانية بالإضافة إلى البحوث التي سبقه إليها الباحثون الفرنسيون أمثال: جورج مارسيه و هنري تيراس ولوسيان جولفان والفرد بل، ومرسييه وكذلك على جهود الباحثين العرب و في مقدمتهم أحمد فكرى وكمال سامح وفريد شافعي وعبد العزيز سالم ورشيد بورويبة، مركزاً على منذنة جامع قلعة بني حماد التي أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنها مصدر جميع القيم المعمارية والزخرفية التي ظهرت في عصر دولة بني حماد على استحياء ثم تطورت في عمائر الموحدين، وقد وفق كل التوفيق في معالجة موضوعات البحث على نحو يشهد له بقدرات عالية في استقاء عناصر هذه الموضوعات وفي تسليط الضوء على أهمية جامع قلعة بني حماد وتأثيرها العميق على مآذن المغرب والأندلس.

ومن الواضح أن الدراسة التي قدمها الباحث عبد الكريم عزوق تعتبر إضافة علمية قيمة في مجال البحوث الأثرية في المغرب الإسلامي وتبشر له بمستقبل زاهر في مجال البحث العلمي الأصيل، وفقه الله، وسدد خطاه ووهبه القدرة على المواصلة والجد أملا في مزيد من الدراسات القيمة بإذن الله وتوفيقه.

أ.د/ السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة والآثار الإسلامية

ومدير معهد دراسات البحر الأبيض المتوسط بكلية

الآداب جامعة الإسكندرية

مُكَلِّمَةٌ

لم تحظ الآثار الإسلامية في الجزائر بالاهتمام العلمي ما حظيت به غيرها من الآثار الرومانية والبيزنطية، فالتراث الضخم الذي خلفه المسلمون في الجزائر يندثر يوما بعد يوم، وما من أثر نفقده إلا ونفقد معه لبنة من لبنات الحضارة الإسلامية في الجزائر، وكان لذلك أعظم الأثر في اختيارنا لهذا الموضوع، لأن المئذنة وهي جزء لا يتجزأ من العمارة الإسلامية لم تلق من الدراسة التاريخية والبحث الأثرى المدقق حتى الآن ما يكشف عن مصدر اشتقاقها والأصول التي استمدت صورتها منها.

ومعظم مآذن الجزائر يتألف من طابقين فقط، كما تتميز عن غيرها من مآذن العالم الإسلامي خاصة في المشرق بأبدانها المزينة بشبكة من المعينات التي تتناوب صفوفها فيما بينها وتعرف بين المشتغلين بالفن الإسلامي في المغرب باسم "الزخرفة اللوزنجية".

والحق أن موضوع المئذنة في العمارة الإسلامية اجتذب اهتمامي وبخاصة في عمارة المساجد، فلا يوجد مسجد يخلو من مئذنة، ولما كانت المئذنة أحد العناصر المعمارية المهمة في المسجد لأنها البناء الذي ينطلق من أعلاه الدعاء للصلاة، ولأنها في بعض الأحيان تتخذ برجاً للمراقبة على السواحل للإنذار باقتراب العدو في البحر ويتمثل ذلك في منارات الربط والحصون في المناطق الثغرية في العالم الإسلامي، وقد كان ذلك من العوامل التي دفعتني إلى اختيار المآذن في المغرب الأوسط موضوعاً لرسالتي، وكان الأمر يقتضي دراستها معمارياً وزخرفياً وتتبع ما طرأ على نظامها من تطور عبر الفترات التاريخية المدروسة ابتداء من عصر دولة بني حماد إلى نهاية العصر العثماني في المغرب الأوسط.

وترجع أهمية الموضوع إلي أن المئذنة تعتبر أكثر عناصر المسجد وضوحاً في العمارة. كما أنها ساهمت بقسط وافر في إثراء الفنون الإسلامية معمارياً وزخرفياً وكانت موضوعاً يتنافس فيه الأفراد والسلطين، فاهتموا بإنشائها وإسباغ روح

الجمال عليها حتى بلغت الغاية في رشاقتها وروعة مظهرها ودقة ما يكسوها من تنميقات وزخارف على مختلف أنواعها.

ومما لا شك فيه أن تعدد المآذن في المدينة الإسلامية قد يسبغ عليها روح إسلامية خالصة فهي بشموخها وارتفاع هামاتها ترمز لعلو كلمة الحق وشموخ رسالة الإسلام^(١).

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن دراسة المآذن في المغرب الأوسط يسلط الضوء على كثير من الخصائص المعمارية والفنية التي ميزت هذه الفترة ويساعد على التوصل إلى تمييز أوجه الخلاف لنظامها ونظام نظائرها في أقطار العالم الإسلامي الأخرى.

وقد استعنت في هذه الدراسة بمصادر ومراجع عربية وأجنبية متخصصة في موضوع البحث. فبالنسبة للمصادر التاريخية أفدت كثيرا في معرفة تاريخ الأثر، وفي بعض الأحيان وصف بعض المآذن وتاريخ بنائها وأسماء مؤسسيها، ولقد أعانني هذا الوصف الذي زودتنا به المصادر التاريخية على إعادة تصور ما كانت عليها بعض المآذن كالشأن بالنسبة لمنذنة جامع المنصورة التي وصفها ابن مرزوق، وقد اعتمدنا أيضا على كتاب "العبر" لعبد الرحمن ابن خلدون في تتبع تاريخ المغرب الأوسط في الفترة موضوع الدراسة، وعلى كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" ليحيى ابن خلدون وفي بعض التراجم، وكتاب "تاريخ بني زيان ملوك تلمسان" لمحمد بن عبد الله التنسي وهي من أهم المصادر التاريخية لدراسة عصر بني زيان. بينما اعتمدنا فيما يخص الفترة المرينية على كتاب "المسند الصحيح الحسن في مآثر المولي ابن الحسن" لابن مرزوق التلمساني.

(١) وربما يفسر ذلك كيف أن "الخير الدا" وهو ما تبقى من منذنة جامع إشبيلية مازالت ترمز لمدينة إشبيلية وما يثبت ذلك أن أهل إشبيلية لما حاولوا هدم منار جامعهم عندما اضطروا إلى مفاوضة القشتاليين للتسليم في سنة ٦٣٦هـ، ولكن الأمير الفونسو فرناندو الثالث هدهم بقوله: "لو أنكم نزعتم منها حجرا واحدا لذبحتكم جميعا بحد السيف" واعتبر الفونسو هذه المنذنة رمزا لغلبة القشتاليين على المسلمين.

أما المراجع العربية الحديثة التي اعتمدت عليها فعديدة وأبرزها بحوث في الآثار الإسلامية في المغرب الأوسط أصدرها الأستاذ رشيد بورويبة الذي يعتبر الجزائري الوحيد الذي كتب حول آثار الجزائر الإسلامية ومنها كتابه القيم:

“L'ART RELIGIEUX MUSULMAN EN ALGERIE”

وكتابه “الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها” وغيرها. ومن أبرز المصنفات العربية الحديثة التي اعتمدت عليها البحوث الرائدة التي قدمها أستاذي الكبير الدكتور عبد العزيز سالم ومن أمثلتها بحثه القيم الذي هو تحت الطبع ويتناول فيه التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب الإسلامي في مجال فنون العمارة والزخرفة. ومصنفه الذي خصصه للمآذن المصرية أصلها وتطورها حتى العصر العثماني. هذا بالإضافة إلى العديد من الدراسات والبحوث التي نشرها إما ضمن المصنفات الكثيرة التي أصدرها أو في المجلات العلمية الأسبوعية والعربية.

أما المراجع الأجنبية فمعظمها مكتوب باللغة الفرنسية لأن الفرنسيين وحدهم من الأوروبيين هم الذين اهتموا بدراسة آثار الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي لها، ولقد اعتمدت إلى درجة كبيرة على كتاب جورج مارسية “L'ARCHITECTURE MUSULMANE D'OCCIDENT TUNISIE, ALGERIE- MAROC, ESPAGNE ET SICILE” الذي يعتبر مرجعا أساسيا لكل باحث في الآثار الإسلامية بالمغرب والأندلس، وكذلك كتابه القيم: “Les Mouments ARABES DE TLEMCEN” الذي جمع فيه آثار تلمسان في العصر الإسلامي، بالإضافة إلى بعض المقالات التي نشرها في مختلف المجالات.

كما اعتمدت أيضا على كتاب: “LE MAGHRIB CENTRAL AL'EPOQUE DES ZIRIDES” لمؤلفه الأستاذ لوسيان جلفان وهو عبارة عن كتاب شامل لتاريخ وآثار الحماديين، كما نشر أيضا أبحاثه الأثرية في قلعة بني حماد في كتاب مستقل. هذا فضلا عن اعتمادي على بعض الكتب العامة في العمارة والفن الإسلامي.

أما الدراسة الميدانية التي قمت بها على الطبيعة فتتمثل في معاينة المآذن

المدرسة، ودراسة أهم عناصرها المعمارية والزخرفية دراسة تفصيلية دقيقة وتسجيل هذه العناصر بالصور الفوتوغرافية التوضيحية ورسم قطاعات ومساقط ورسوم تخطيطية لواجهات بعض المآذن لمعرفة النظام الداخلي لها.

وقد انتهجت في دراستي لموضوع الرسالة منهجا تحليليا كما حاولت أن أميز بين مراحل المئذنة في مختلف الفترات التاريخية التي خصصتها للدراسة، ولاحظت تطورا واضحا من عصر لآخر وإن كان بطيئا في بعض الأحيان. أما المآذن التي ترجع إلى العصر العثماني فقد تبين لي بعد دراستها أنها لا تتخذ نظاما موحدا كما هو الحال في المشرق الإسلامي، وإنما تتخذ صوراً متعددة ومتنوعة من حيث الطابع العام.

وقد قسمت البحث إلى خمسة فصول، وقد راعيت في هذا التقسيم التسلسل التاريخي للعصور المدراسة، وقدمت لكل فصل منها بدراسة تمهيدية تدور حول ظهور فكرة الآذان ثم التعريف بالمئذنة، وأهم عناصرها المعمارية مع ذكر أشكالها المتنوعة في العالم الإسلامي، وانتشار نظام المآذن في المغرب الإسلامي منذ أن ظهرت في المسجد الجامع بالقيروان في إمارة بشر بن صفوان حتى وصلت المغرب الأوسط ممثلة في مئذنة جامع قلعة بني حماد. وأنهيت الدراسة التمهيدية بحديث مختصر عن المآذن المبكرة في المغرب والأندلس لمحاولة الربط بينها وبين مئذنة جامع قلعة بني حماد مع التعرض لبعض مظاهر التأثير والتأثير.

أما الفصل الأول فيدور محتواه حول المئذنة في عهد بني حماد ممثلة في نموذجين فقط الأول يتمثل في مئذنة جامع قلعة بني حماد باعتبارها أول مئذنة أقيمت في الجزائر وكان لها تأثير واضح على نظام مآذن المغرب الأوسط كلها، ولم يقف هذا التأثير عند هذا الحد، إنما امتد حتى المغرب الأقصى والأندلس خاصة في عصر الموحدين حيث يبدو أنها اتخذت مصدراً للمآذن الموحدية ولذلك اهتمت اهتماما خاصا بدراسة هذه المئذنة معماريا وزخرفيا. أما النموذج الثاني فيتمثل في مئذنة جامع قسنطينة التي امتازت بطرز غريب لا نظير له في المغرب الأوسط من حيث النظام المعماري والتخطيط.

أما الفصل الثاني فقد أفردته لدراسة المآذن الزيانية وتتمثل في أربع مآذن، وبدأت هذا الفصل بعرض تاريخي مختصر عن بني زيان اتبعته بوصف الطابع العام للمئذنة في عهده، وجاء اختياري لهذه المآذن الأربعة لأهميتها الأثرية، وهي مئذنة جامع تلمسان، ومئذنة جامع ندرومة، ومئذنة جامع سيدي أبي الحسن، ومئذنة جامع المشور. أما المآذن الزيانية الأخرى ومنها مئذنة جامع أولاد الإمام، وجامع سيدي إبراهيم، وجامع أغادير بتلمسان وجامع الجزائر العاصمة فقد قمت بدراستها بإيجاز لتشابهها مع المآذن السابقة، ولأنها لا تبلغ من حيث قيمتها الفنية ما بلغته المآذن الأربعة سالفة الذكر.

وخصصت الفصل الثالث لدراسة المآذن المرينية، وقدمت هذا الفصل بنبذة تاريخية عن المرينيين، اتبعتها بعرض للطابع العام للمئذنة في عهدهم، ثم تناولت بالتفصيل نماذج مختلفة لمآذن بني مرين في المغرب الأوسط منها مئذنة جامع المنصورة الفريدة من نوعها بين مآذن المغرب الأوسط وتتميز بدعامتها المركزية المجوفة، منها أيضا مئذنة جامع سيدي ابن مدين مربعة الشكل، والتي أقيمت على غرار مآذن بني زيان مع اختلاف بسيط في الاتفاق الفني من حيث الزخارف. أما مئذنة جامع سيدي الحلوي فتعرضت لها بإيجاز شديد لتطابقها الكامل مع مئذنة جامع سيدي أبي مدين.

وتناولت في الفصل الرابع مآذن العصر العثماني وبدأته كالعادة بعرض تاريخي سريع لفترة الحكم العثماني للجزائر، ثم انتقلت إلى دراسة الطابع العام للمئذنة في عهدهم واتخذت خمسة نماذج لمآذن عثمانية مختلفة في الأشكال الهندسية تمثل نظام المآذن العثمانية منها المثمنة التي تظهر لأول مرة في هذا العصر ومنها مآذن ذات قاعدة مربعة بدن مثنى وتمثلها مئذنة جامع الجيش بقصر الداوي بالجزائر العاصمة، ومنها المربعة على غرار النمط المألوف في المغرب الأوسط في الفترة التي سبقت الحكم العثماني ويمثل هذا النمط الأخير جامع الحواتين وجامع سيدي عبدالرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة.

وأخيرا، خصصت الفصل الخامس لدراسة المقومات الزخرفية لمآذن المغرب

الأوسط وهي مقومات تختلف من مئذنة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر، ولذلك قمت بتقسيم الفصل إلى أربع نقاط رئيسية الأولى الزخرفة النباتية، وقد حاولت تتبعها من مئذنة قلعة بني حماد إلى مآذن العثمانيين. ومن الجدير بالذكر أن الزخرفة النباتية التي كانت تكسو هذه المآذن لا تصل في التنوع والدقة إلى ما وصلت إليه الزخرفة الهندسية التي انتشرت على نطاق واسع، والثالثة النقوش الكتابية التي تكاد تكون نادرة، أما النقطة الرابعة فقد خصصتها لدراسة المقرنصات التي انفردت بها مئذنة جامع المنصورة.

وأوضحت في خاتمة البحث مظاهر التطور التي طرأت على نظام المئذنة خلال تلك الفترات التاريخية وأهم النتائج التي توصلت إليها.

ولقد اعترضتني بعض الصعوبات في إنجاز هذا البحث منها قلة المراجع عن مآذن الفترة العثمانية بالجزائر مما جعلني أعتمد اعتماداً خاصاً على الدراسة الميدانية، ومنها كذلك تهدم الجزء العلوي لمئذنة جامع قلعة بني حماد الذي جعل تصورنا له قائماً على الافتراضات والمقارنات.

وفي ختام هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير والعرفان إلى أستاذ الكبير الدكتور السيد عبد العزيز سالم الذي مد لي يد العون والمساعدة ولم يبخل على بنصائحه القيمة ومتابعته للبحث بروح علمية نزيهة ومنهجية دقيقة، كما أفادني بفيض علمه وغزارة جهده منذ أن كان الموضوع فكرة إلي أن أصبح على هذه الصورة المشرفة.

الدراسة التمهيدية

١- التعريف بالمنذنة :

المنذنة بناء رأسي مرتفع يعلو في قمته صوت المؤذن للإعلان والإعلام بحلول وقت الصلاة عن طريق النداء ودعوة المسلمين إليها في أوقاتها الخمس ويوم الجمعة، والآذان أصل المنذنة وهي مكانه وهو مرتبط أساسا بحاسة السمع. ولقد تعددت الآراء حول ظهور فكرة الآذان، ولكن جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر كان يقول "كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة، وليس ينادي لها، فتكلموا يوما في ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم بل بوقا مثل قرن اليهود، فقال عمر: ألا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فنادي بالصلاة. (١).

ولذلك جاءت المنذنة كتجسيد لفكرة الآذان حيث أصبحت منذ ظهورها في جامع عمرو بن العاص (٢) عنصرا هاما من عناصر العمارة الإسلامية، ولكنه ليس أساسيا كأبراج الكنائس، واقتربت المنذنة اقترانا واضحا بعمارة المساجد بحيث لا نجد مسجداً يخلو من عنصر المنذنة. فالمنذنة بمفهومها العام هي البرج المربع الذي ينطلق منه صوت المؤذن خمس مرات في اليوم داعيا المسلمين إلى الصلاة (٣) وليس من شأننا أن نبحث في أصل المنذنة ومصدر اشتقاقها فهو موضوع كان مطروحا للمناقشة منذ سنوات عديدة، ولكن ما يعنينا في هذه الدراسة أنها عنصر معماري وإسلامي بحث له وظيفة يؤديها ولا شأن له بأبراج الكنائس وبنواقيسها.

فالمنذنة التي أعطت للمساجد طابعها الخاص المميز تختلف صورتها من عصر إلى عصر ومن منطقة لأخرى، فهناك المنذنة المربعة والمنذنة المثلثة الأضلاع

(١) صحيح البخاري بشرح ابن حجر، ج ٢، ص ٧٧، طبعة بيروت ١٩٧٦، كتاب الآذان. باب بدء الآذان.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: المآذن المصرية نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني بالقاهرة ١٩٥٩، ص ١٠.

(٣) VICTOR (WAILLE) ; AUTOUR DES MOSQUÉES D'ALGER IN. REVUE AFRICAINE 1899,P.10.

والمئذنة أسطوانية الشكل، والمئذنة المخروطية الشكل، والمئذنة اللولبية، وهناك المئذنة التي تتألف من طابق واحد، والتي تتألف من طابقين أو التي تتألف من ثلاثة طوابق في حين أن أبراج الكنائس تلتزم عادة بشكل مميز هو الشكل المربع.

وموقع المئذنة في الجامع يختلف من مسجد إلى آخر، فقد تكون في مؤخرة الجامع أو في مقدمته، وقد تكون على جانب منه أو ركن من أركانه، وقد تنتصب مستقلة عن صحن المسجد وبيت الصلاة وقد تكون ملتصقة بالجدار الخارجي^(١).

وكانت المساجد الجامعة الأولى تقتصر على مئذنة واحدة، ثم بدأت تظهر أكثر من مئذنة للمسجد الواحد، كما في جامع عمرو بن العاص الذي كان مزودا بأربعة مآذن^(٢).

وتعتبر المئذنة العنصر المعماري الوحيد الذي يستطيع أن يقاوم عوادي الزمن، لأن طريقة بنائها طريقة جد متقنة، فحتى لو تهدم المسجد فإن المئذنة تبقى قائمة كما هو الحال من قلعة بني حماد ومئذنة جامع أغادير بتلمسان ومئذنة جامع المنصورة من العصر المريني^(٣).

ولقد استعمل للمئذنة مسميات مختلفة في ذلك (المنارة) وهي لفظة مشتقة أساسا من فعل (أنار) أي المقصود بها أشعل وأضاء، وهذا يجعلنا نسلم بأن المئذنة استعملت كمحارس وأبراج ترسل الإشارات بواسطة إشعال النار، وكذا هداية الناس إلى الطريق الصحيح كما هو الحال في منار كل من رباط سوسة والمنستير^(٤). ومنها أيضا لفظة (صومعة) التي استعملت في المغرب والأندلس للدلالة على المئذنة واستخدمها ابن جبير في وصفه للجامع الأموي بدمشق في قوله: "والجامع ثلاث

(١) LAMBERT (ELIE); L'ART MUSULMAN D'OCCIDENT, DES ORIGINES A LA FIN DU XV****SIECLE, PARIS 1966.P.33.

(٢) فكري (أحمد): مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، دار المعارف بمصر ١٩٦١، ص ٣١٥.

(٣) MARCAIS(G), L'ART EN ALGERIE. IMPRIMERIE ALGERIENNE. ALGER, 1906,P.99.

(٤) السيد عبد العزيز (سالم): المآذن المصرية، نظرة عامة عن أصلها وتطورها، ص ٤.

صوامع واحدة في الجانب الغربي وهي كالبرج المشيد^(١).

كما أطلق عليها أيضا اسم (عساس)^(٢). وهذا اللفظ يعني عند أهل المغرب الحراسة. ولهذا يمكن إضافة المراقبة والحراسة وظيفه ثانية إلى جانب وظيفتها الأساسية وهي الإعلان بالصلاة في أوقاتها.

ويدور داخل المئذنة عادة درج يرقى عليه الراقون إلى المئذنة^(٣) ويتوسط هذا الدرج الفراغ الواقع ما بين الجدار الخارجي للمئذنة والدعامة المركزية المربعة أو الأسطوانية وهي دعامة صماء كما هو الحال في مآذن المغرب الأوسط، وتشغلها غرف كمآذن الموحدين في المغرب والأندلس، وقد يكون السلم خارج المئذنة مثل ما هو موجود في ملوية سامراء في القرن ٣هـ/٩م، وقد يكون للمئذنة درج مزدوج وهو ما انفردت به مئذنة جامع قرطبة، وقد يحل مكان الدرج طريق صاعد يدور حول المئذنة حتى قمته كما هو الحال في مئذنة جامع المنصورة بتلمسان ومآذن جامع الكتبية وجامع الرباط، وجامع اشبيلية، ويسقف الدرج أو الطريق الصاعد قبوات في أغلب الأحيان نصف أسطوانية، أو متقاطعة وقد تجمع بين النوعين، وينتهي الطابق الأول في المئذنة بشرفة ينطلق منها صوت المؤذن. ويتوسط الشرفة جوسق تعلوه قبة، وبين جدران الجوسق والشرفة فراغ يدور حول الجوسق يتحرك فيه المؤذن لأداء الأذان.

وتقع الشرفة عادة بأعلى الطابق الأول للمئذنة حول الجوسق وقد تدور حول بدن المئذنة، وقد يكون للمئذنة الواحدة أكثر من شرفة موزعة على بدنها كما هو الحال في مئذنة جامع الباشا بوهراة في العصر العثماني، وكذلك في المآذن العثمانية مئذنة الشكل، ويتوج جوسق المئذنة قبة تعلوها سفود بارز يحمل كرات معدنية على

(١) ابن جببير: الرحلة، الطبعة الثانية، طبع مدينة ليدن المحروسة، مطبعة بريل ١٩٠٧، ص ٥٤.

(٢) زكي (محمد حسن): تطور المآذن، مجلة الكاتب. عدد سبتمبر ١٩٤٦، دار المعارف للطباعة والنشر بمصر، المجلد الأول ص ٧١٧.

(٣) زكي (محمد حسن): تطور المآذن، مجلة الكاتب. عدد سبتمبر ١٩٤٦، دار المعارف للطباعة والنشر بمصر، المجلد الأول، ص ٧١٧.

شكل تفافيح، يعلو السفود أحيانا هلال وأحيانا أخرى نجمة وهلال^(١)، يعلو الشرفات التي تتوج المئذنة مظلات من الخشب على شكل رف بارز مائل وذلك في المناطق التي تكثر فيها الأمطار على غرار بعض مآذن الشام، وقد تكون الشرفة مكشوفة في المناطق الجافة^(٢).

٢- أشكال المآذن؛

أقام المسلمون مآذن في العالم الإسلامي وفقا لأحكام الدين وضرورة الدعوة إلى الصلاة، ويختلف شكل المئذنة باختلاف المناطق التي تقام فيها، ففي بلاد فارس كانت المئذنة عادة مخروطية الشكل وشاعت المآذن مربعة الشكل في الشام والمغرب والأندلس، في حين انتشرت المآذن أسطوانية الشكل المزودة برؤوس مخروطية مدببة (قلمية الشكل) عند الأتراك، وفي مصر اتخذت المآذن أساليب متعددة توحدت في العصر المملوكي، واتخذت طابعا مصرياً، بينما شاع في مصر العثمانية طابع المئذنة القلمية الشكل، ويتمثل ذلك في مئذنة جامع سنان باشا بالقاهرة^(٣).

ومن حيث مواد البناء فقد تنوعت وتباينت وفقا للمناطق التي أقيمت فيها المآذن، فقد استعمل الحجر في الأندلس ومصر والشام وآسيا الصغرى، وبعض المناطق في العراق، أما الآجر والقرميد فكان المادة الشائعة الاستعمال في مآذن المغرب والعراق وفارس وأفغانستان، أما في الهند فقد استخدم كل من الحجر والآجر^(٤).

(١) RICARD (P); POUR COMPRENDRE ...P.197.

(٢) فريد (شافعي) : العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠، ص ٨٦٤.

(٣) السيد عبد العزيز (سالم): المآذن المصرية، ص ٣٣.

(٤) KAMAL EDDINE (SAMAH); "THE BIRTH AND EVOLUTION OF MINARETS IN ISLAM", IN THE BULLETIN OF THE FACULTY OF ENGINEERING, CAIRO UNIVERSITY PRESS 1955, P.162.

٣- المآذن الأولى في الإسلام ومصادرها :

كيف ظهرت المنذنة؟ ومتى كان ذلك؟ وما هي خصائص المآذن الأولى في العالم الإسلامي؟ هذه الأسئلة ما تزال تحتاج إلى من يجيب عنها ويسلط عليها الضوء، ذلك أن الباحث في الآثار الإسلامية لا يجد في المصادر العربية وصفا دقيقا للمآذن الأولى، وكل ما زودتنا به هذه المصادر لا يعدو ذكر للمساجد أو إشارات مختصرة إلى مآذنها، كما أن جامع عمر بن العاص وصومعة جامع القيروان. ولهذا يتعذر عليه تحديد مصدر اشتقاق شكل المآذن من الناحية المعمارية على نحو علمي دقيق، وعلى هذا ذهب معظم الباحثين والدارسين للعمارة الإسلامية إلى القول بأن المنذنة مشتقة من الصوامع المربعة بالكنايس التي كانت منتشرة في الشام لا سيما في كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق التي كانت في الأصل معبد الإله جوبيتر^(١). وإذا أخذنا برأي الأستاذ كريسويل فإن المنذنة الإسلامية الأولى بنيت على نمط الأبراج المربعة في الكنايس السورية، ويتفق رأي الدكتور عبد العزيز سالم معه في أن هذا الطراز السوري للمآذن انتقل من سوريا إلى مصر وبلاد المغرب والأندلس وأتيح له البقاء في غربي العالم الإسلامي^(٢)، ومع ذلك فقد تأثرت بعض مآذن المغرب بمنار الإسكندرية وهو رأي تضمنه بحث صدر أخيرا لسيادته ويتمثل ذلك في منذنة المسجد الجامع بالقيروان وصفاقص ومآذن جامع الكتبية بمراكش وحسان بالرباط والخيرالدا بأشبيلية^(٣).

والجدير بالملاحظة أن أول المآذن في المساجد الجامعة هي المآذن الأربعة بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط التي أقامها مسلمة بن مخلد الانصاري سنة ٥٣هـ

(١) GOLVIN(L) ;LA MOSQUEE SES ORIGINESA MORPHOLOGIE, SES DIVERSES FONCTIONS, INSTITUT D'ETUDES SUPERIEURES ISLAMIQUES, LAGER 1960, P.32.

(٢) السيد عبد العزيز (سالم): المآذن المصرية ص ٥.

(٣) السيد عبد العزيز (سالم): تأثير منار الإسكندرية في عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد ٢٣، ومريد، ١٩٨٥-١٩٨٦، ص ١٨٧.

في حين يعتبر كل من الدكتور زكي محمد حسن^(١) والأستاذ جلفان^(٢) الأبراج المربعة في المعبد الوثني القديم بدمشق أول نواة لبداية فكرة المآذن.

وأخذت المآذن اللاحقة لهذه الأبراج سواء في المشرق أو في المغرب نفس النظام، ولكن المآذن الأولى التي أقيمت في القرن الأول الهجري دثرت بينما أصبحت مئذنة جامع القيروان التي أقامها بشر بن صفوان عامل بني أمية على المغرب سنة ١٠٥ هـ أقدم المآذن التي وصلت إلينا في العالم الإسلامي.^(٣)

وإذا تبعنا المآذن الأولى في الاسم ورتبنا ظهورها ترتيباً زمنياً يتبين لنا أن أول مئذنة في الإسلام هي مئذنة جامع البصرة باعتبار أن جامع البصرة أول مسجد شيد بعد الفتح الإسلامي للعراق وإن كنا لا نملك أي نص يثبت وجودها، وثاني المآذن جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وهي الصوامع الأربعة التي بناها مسلمة بن مخلد ٥٣ هـ / ٦٧٢ م والتي لم يصل إلينا منها أي أثر، وثالث المآذن مئذنة المسجد الجامع بدمشق التي أقامها الوليد بن عبد الملك بجامعه ٨٦ هـ / ٧٠٥ م، ورابعها مآذن مسجد الرسول (صلي الله عليه وسلم) بالمدينة التي بناها عمر بن عبدالعزيز ٨٨ هـ / ٨٠٦ م، وخامسها مئذنة جامع القصبه بالرملة التي بناها هشام بن عبد الملك ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م. ثم تأتي سادس مئذنة وهي مئذنة جامع القيروان في عهد هشام بن عبد الملك أيضاً.^(٤)

وسنقول في هذا التسلسل التاريخي أن المئذنة ظهرت بادئ ذي بدء في المشرق الإسلامي وانتقلت منه إلى المغرب، وتعد مئذنة جامع القيروان المئذنة الوحيدة المحفوظة بخصائصها المعمارية وهي بدورها مقتبسة من الأبراج السورية المربعة وإن كانت تشبه في طوايقها الثلاثة وتراجع جدرانها إلى الداخل كلما ارتفعت منار

(١) زكي (محمد حسن): تطور المآذن ص ٧١٧.

(٢) GOLVIN (L); LA MOSQUEE SES ORIGINES SA MORPHOLOGIE, ET SES DIVERSES FONCTIONS, INSTITUT D'ETUDES SUPERIEURES ET ISLAMIQUES, ALGER 1960, P.32.

(٣) فكرى (أحمد): المسجد الجامع بالقيروان، مطبعة المعارف، مصر، ١٩٣٦، ص ١٠٩.

(٤) إبراهيم كاظم (الجنابي): المآذن نشأتها وتطورها في آثار العرق إلى نهاية العصر السلجوقي، ص ٣٢.

الإسكندرية وتعد هذه المئذنة أول المآذن في المغرب الإسلامي ثم أصبحت نموذجا احتذته المآذن اللاحقة في المغرب والأندلس فعلى نمطها أقيمت الصومعة الأولى لجامع قرطبة التي أسسها الأمير هشام وكانت مربعة القاعدة وفقا لأساسها الذي ما يزال واضحا في الوقت الحاضر بصحن الجامع، ثم تلا ذلك مئذنة جامع صفاقس التي أخذت صورتها أصلا من مئذنة جامع القيروان، وامتد تأثير هذه المئذنة إلى كافة أنحاء المغرب والأندلس بما في ذلك مآذن المغرب الأوسط عبر الفترات التاريخية.

أما فيما يتعلق بمآذن المغرب الأوسط فإن الأستاذ جورج مارسيه يرى أنها كلها مربعة الشكل وأنها تأثرت بأشكال الأبراج السورية وعلى الأخص مئذنة العروس بالجامع الأموي بدمشق^(١).

أما الدكتور عبد العزيز سالم فيرى أن منار الإسكندرية أثر كثيرا في نظام بعض المآذن في المغرب والأندلس سواء من حيث الطابع العام أو من حيث النظام الداخلي، ويعتمد في ذلك على الدعامة المركزية المربعة التي يلتف حولها الطريق الصاعد بغير درج والغرف الموزعة، ثم يضرب مثلا بمئذنة جامع القيروان التي تتكون من ثلاثة طوابق كمنار الإسكندرية، بالإضافة إلى بعض الأدلة المعمارية كالميل الخفيف للجدران إلى الداخل كلما ارتفعت وكذا القبة العلوية التي تتوج الجوسق العلوي، ويتمثل تأثيره في مآذن الموحدين في الممر الصاعد بدون درجات وفي الغرف المترابطة بالدعامة الوسطى، ويعتقد أن هذا التأثير تم عن طريق الإسكندرية باب المغرب والتي كان يمر بها طلاب العلم والحجاج والتجار القادمين من المغرب والأندلس، وكان منار الإسكندرية أهم المعالم الرئيسية حتى القرن ٨هـ، ولهذا لا نعجب إذ نرى صورة هذا المنار قد تسلفت إلى بعض مآذن المغرب الإسلامي^(٢).

(١) MARCAIS (G) ;L'ARCHITECTURE MUSULAMANE D'OCCIDENT (TUNISIE- ALGERIE -MAROC- ESPAGNE ET SICILE) ARTS ET METIERS GRAPHIQUES, PARIS 1954, P.209.

(٢) السيد عبد العزيز (سالم): التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب الإسلامي في مجال العمارة والزخرفة. بحث ألقى في ندوة العلاقات المصرية المغربية، القاهرة، ١٩٨٩، تحت الطبع.

أما إيد موند دوتي فيرى أن أول ذكر لمئذنة في المصادر العربية حدث في عهد الوليد بن عبد الملك^(١).

ولكن فريد شافعي يعتمد في رأيه على دراسته لمئذنة جامع القيروان حيث يرى بأنها تتميز بخصائص عربية إسلامية ناضجة من حيث التكوين المعماري ودقته، والتناسب الهندسي، ويرى أنه لا توجد أية صلة بينها وبين الأبراج السورية القديمة في المعبد الروماني بدمشق، وما دامت مئذنة جامع القيروان أقدم المآذن في العمارة الإسلامية فقد اتخذتها المآذن اللاحقة كلها نموذجا لها اتخذته. ولا تعتبر المآذن عنصرا معماريا أساسيا في المسجد، فقد يستغني عنه ببيان المسجد بينما يعتبر برج الكنيسة عنصرا ضروريا يدخل ضمن الكتلة المعمارية، ثم أن النداء للصلاة يتطلب في المئذنة أن تنتهي بنهاية خاصة تختلف عن نهاية وضع النواقيس في الأبراج، ولذلك فالمئذنة عنصر معماري إسلامي أصيل ليس لغير المسلمين فضل فيه^(٢).

أما عفيف بهنسي في آخر تأليف له حول الجامع الأموي بدمشق فيرى أن الصوامع الأربعة الأولى للجامع كانت مربعة الشكل ذات شرفات وجامور^(٣)، وقد هدمت المئذنتان الواقعتان في الجهة الشمالية وأعيد استخدام أحجارها في ترميم الجدار القبلي في سنة ٧٢٨هـ في (عهد تنكز)، أما المئذنتان الجنوبيتان فقد تهدم جزء منهما عام ٦٤٦هـ، ثم أضيف إليهما منارات مختلفة فوق ما تبقى من الصومعتين المربعتين القديمتين، ويتساءل الأستاذ بهنسي لماذا أنشئت مئذنة العروس إذن؟ ويرجع بأن هدم المئذنتين أو عدم إكمالها حدث لسبب ما في وقت مبكر وأن مئذنة العروس أقيمت بعد هدم المئذنتين القديمتين وأنها أنشئت في عهد الوليد وقبل بناء الأبراج الأربعة، وهذا ما استخلصه من خلال دراسته الأثرية للجدران الأربعة الداخلية ومقارنتها بالأبنية الأخرى، وأن الأبراج الأربعة إنما أقيمت

^(١) EDMOD (DOUTTE); LESMINARETS ET L'APPEL A LA PRIERE". IN 'REV- AFR 1899,P. 339.

^(٢) فريد (شافعي): العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة، ص ٦٤١.

^(٣) جامور: قضيب حديدي، سفود.

بأمر الوليد، وكذا منذنة العروس كبديل للبرجين الشماليين وقبلهما، وقد استعمل الوليد في أبنيته الحجر المنحوت الذي كان قائما في سور المعبد الخارجي ويؤكد ذلك العلامات الإغريقية على بعض الأحجار المتراكمة في البرجين إلى يومنا هذا، والكتابة الإغريقية ليست حجة في حد ذاتها لأنها استمرت منتشرة حتى عهد الوليد^(١).

هذه بعض النظريات والآراء التي وردت في شأن اشتقاق المنذنة من الناحية المعمارية ثم انتشارها في العالم الإسلامي وفي حالة صدق نظرية عفيف بهنسي فهي تؤكد كثيراً نظرية فريد شافعي بأن المنذنة ابتكار إسلامي أصيل وليس لغير المسلمين أي فضل في ابتكارها. وإذا افترضنا جدلا إلى أن الفضل في إنشائها يرجع إلى الأبراج المسيحية فليس في ذلك ما يعيب في العمارة الإسلامية سواء في الشام، أو في المغرب والأندلس ثم أن المعمار المسلم لم يقف عند حد الاقتباس بل أخذ في تطوير ما اقتبسه والإضافة إليه وفقا لمتطلبات وظيفتها وهي الآذان، وذلك بإضافة شكل خاص لنهايات المآذن يختلف عن نهايات الأبراج مما أدى بطبيعة الحال إلى تطور شكل المنذنة وتعدد أشكالها وتنوع زخارفها حتى أصبحت سمة من سمات العمارة الإسلامية وأثرت تأثيرا واضحا يصعب تمييزها من المآذن الإسلامية.

٤ - المآذن المبكرة في المغرب والأندلس:

أ- منذنة جامع القيروان:

تعد أقدم منذنة في الغرب الإسلامي أقيمت في ٩-١٠٥ هـ / ٧-٧٢٤ م ويذكر البكري أنها بنيت في خلافة هشام بن عبد الملك ويبلغ طولها ستون ذراعا وعرضها خمسة وعشرون، ولها بابان شرقي وغربي وعضايد بابيها رخام منقش وكذلك عتبتهما^(٢).

(١) عفيف بهنسي: الجامع الأموي بدمشق، دار طلاس دمشق ١٩٨٨، ص ٥٣.

(٢) البكري (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مطبعة الحكومة، الجزائر ١٨٥٧،

والمئذنة من الناحية المعمارية مربعة القاعدة وتمتاز بتناسب هندسي لا نظير له، لقد أقيمت قاعدتها من الحجارة متساوية القطع ثم ركبت بعضها فوق بعض حتى بلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار ونصف فوق مستوى سطح الأرض^(١).

وتتميز المئذنة من الخارج بتراجع جدران الطابقين تراجعاً طفيفاً كلما مددنا النظر من القاعدة إلى القمة، وتقع المئذنة في منتصف الجدار الشمالي من المسجد قبالة المحراب وتتكون من ثلاثة طوابق مربعة ويتوج الطابق قبة، ويتميز الطابق الأول بضخامته، ينفتح مدخل المئذنة في الجدار المطل على صحن الجامع ويؤدي الباب مباشرة إلى دعامة مركزية يلتف حولها سلم دائري سقفه على شكل قبة نصف أسطوانية مبنية في الحجر، ويضئ هذا السلم ثلاث نوافذ تري في واجهة المئذنة، وخمس فتحات أخرى انسيابية الشكل، ثلاثة منها في الواجهة الشمالية واثنان في الواجهة الغربية وتبدو هذه الفتحات ضيقة من الخارج ولكنها تتسع في الداخل.

ويقدر جورج مارسيه طول قاعدة المئذنة كما أورده البكري ١٠,٥٠ م وارتفاعها ٢٥,٢٠ م^(٢). أما جولفان فيقدر طول ضلع قاعدتها بـ ١٠,٦٧ متراً، وارتفاعها بـ ٣١,٥٠ متراً ويعتقد بأن الطابق العلوي في المئذنة أعيد بناؤه في العصر الحفصي^(٣).

هذا باختصار بعض الخصائص المعمارية لمئذنة القيروان التي هي استمرار للنمط السوري المربع^(٤).

(١) فكري (أحمد): المسجد الجامع بالقيروان، ص ١٠٩.

(٢) MARCAIS (G); ARCHIT. MUSUL.D'OCCI, P.17.

(٣) GOLVIN (L); ESSAI SUR L'ARCHITECTURE RELIGIEUSE MUSULMANE T.1 (GENERALITES) EDITIONS KINCKSIECK PARIS 1970, 49.

(٤) KAMAL ELDIN (SAMEH); "MINARETS IN NORTH AFRICA AND SPAIN" IN. BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS, VOL XV, PART II CAIRO, 1954, P.181.

ولقد استمر تأثير هذه المئذنة على جميع المآذن في المغرب حتى بداية العصر العثماني حيث بدأ ظهور أنماط جديدة.

ب- مئذنة جامع صفاقس:

بنيت المئذنة في القرن ٣هـ/٩م مباشرة بعد بناء مئذنة جامع القيروان وهي صورة مقاربة لها ولا يتمثل الاختلاف بينهما إلا في النسب المعمارية (المقاسات) وموقع هذه المئذنة بالنسبة للجامع يماثل موقع مئذنة جامع القيروان، فهي تنتصب في منتصف الجدار الشمالي المواجه للمحراب، والمدخل إليها يفتح كذلك في جدارها المقابل لصحن الجامع، ويؤدي المدخل إلى دعامة مركزية مربعة مصمتة يلتف حولها سلم دائري.

أما في الخارج فتتكون المئذنة من ثلاثة طوابق الأولى منها يميل جدرانها إلى الداخل ميلا طفيفا كلما ارتفعت المئذنة، ويبلغ طول القاعدة المربعة لها ٥,٤٠م، وارتفاع الطابق الأول ٤,٥٥م، أما الطابق الثاني فيبلغ طول قاعدته المربعة ٣,٢٥م، وارتفاعه ٤م، ويعلو ذلك جوسق طول ضلع قاعدته ١,٣٠م وارتفاعه حوالي ٥م ويتوج الجوسق قبة مفصصة كما هو الحال في جامع القيروان.

واستخدم في بناء المئذنة كتل حجرية صغيرة إلا أن الأركان دعمت بكتل ضخمة، وتزدان أوجه المئذنة بزخارف نباتية^(١).

ج - مئذنة جامع قرطبة:

بعد أن تصدعت مئذنة هشام وآلت إلى السقوط، أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر ٣٤٠هـ/٩٥٠م ببناء صومعة جديدة للمسجد بعد أن وسع صحنه مسافة تبلغ ٢٣,٩٠مترا، ولقد جمع العرفاء والمهندسين لإقامة هذه الصومعة واستغرق

(١) GOLVIN (L) ET MARCAIS (G); LA GRANDE MOSQUEE DE SFAX. PUBLICATION NATIONALE DE L'INSTITUT D'ARCHOLOGIE ET D'ART DE TUNISIE. 1960,P.39.

بناؤها ثلاثة عشر شهرا^(١).

والجدير بالذكر أن منذنة هشام الأولى كانت ذات مطلع واحد (مرقي أو سلم) في حين نجد منذنة عبد الرحمن الناصر مزودة بدرجين يفصل بينهما فاصل بنائي فلا يلتقي فيه الراقون إلا بأعلاها ولقد وصفها الإدريسي بقوله "... ويصعد إلى أعلي هذه المنارة بدرجين أحدهما في الجانب الغربي والثاني في الجانب الشرقي إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلا إذا وصلا الأعلى منها"^(٢) فهي لهذا السبب ازدواج لمنذنة هشام. ويعد هذا ابتكار جديد في العمارة الإسلامية حيث تنقسم المنذنة إلى قسمين يفصل بينهما جدار مشترك ويوحدهما سطح علوي، ويدور كل درج حول دعامة مركزية، ولكل مدخل باب يفتح في الجدار المطل على الصحن والآخر ينفّح على الطريق الخارجي، ويعلو درجات السلم قبوات صغيرة مربعة متعارضة متصلة فيما بينها ومتدرجة في الارتفاع وهي مجصصة ومدهونة بزخارف هندسية باللونين الأبيض والأحمر^(٣) وكانت تتوج المنذنة ثلاثة تفافيح مركبة في سفود بارز السفلي والعليا من الذهب والوسطي من الفضة وفوق كل تفاحة سوسانة مسدسة من الذهب يصفها الإدريسي "وفي أعلي الصومعة على القبة ثلاث تفاحات ذهب واثنان من فضة وأوراق سوسنية تتسع الكبيرة من هذه التفاحات ستين رطلا من الزيت"^(٤).

وتنتصب المنذنة في منتصف الجدار الشمالي للمسجد واستخدم في بنائها كتل ضخمة من الحجارة المصقولة.

(١) السيد عبد العزيز (سالم): المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية ١٩٨٦، ص ٢٠. وانظر: قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية في الأندلس، ج ١، ص ٢٧٣.

(٢) الإدريسي (الشريف): وصف المسجد الجامع بقرطبة، ترجمة ديسولا مار، مؤسسة كاربونال، الجزائر ١٩٤٩، ص ١٢.

(٣) السيد عبد العزيز (سالم): المساجد والقصور، ص ٢١.

وانظر: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ١، ص ٣٧٦.

(٤) الإدريسي (الشريف): وصف المسجد الجامع بقرطبة ص ١٢.

الفصل الأول

المئذنة في عهد بني حماد

تمهيد

- (١) الطابع العام لمآذن بني حماد.
- (٢) مئذنة جامع قلعة بني حماد.
- (٣) مئذنة المسجد الجامع بقسنطينة.

تمهيد:

الدولة الحمادية هي إحدى الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الأوسط، وظل بنو حماد يحكمون المغرب الأوسط ما يقرب من قرن وربع قرن من الزمن، وتركوا بصماتهم واضحة في تاريخه وحضارته. اتخذ بنو حماد "القلعة" والمعروفة في المصادر التاريخية بقلعة أبي الطويل حاضرة لهم. يصفها البكري بقوله: "وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة تمصرت عند خراب القيروان، انتقل إليها أكثر أهل إفريقية وهي اليوم مقصد التجار وهي مستقر مملكة صنهاجة"^(١).

أنشئت قلعة بني حماد في ٣٩٨هـ/٨-١٠٠٧م على يد حماد ابن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وتتميز القلعة بحكم موقعها بغلبة طابعها العسكري مما يؤكد دورها الدفاعي، وقد أدت هذه القلعة خدمات جليلة للحماديين فحمت المغرب الأوسط من الأخطار التي تعرض لها من قبل الزيريين شرقاً والزناتيين غرباً^(٢) إلى أن ظهر العرب الهلالية في المغرب الأدنى وأوغلوا في عمق المغرب الأوسط وعاثوا فيه فساداً.

نشأت القلعة في وقت قويت فيه شوكة حماد لا سيما بعد أن أعلن انفصاله عن الدولة الزيرية التي كان موالياً لحكامها يادئ ذي بدء، ولقد أحدث انفصاله انشقاقاً كبيراً في قبيلة صنهاجة، فأصبح يحكم المغرب الأدنى بنو زيري، والمغرب الأوسط بنو حماد، ولم يكتف حماد بذلك بل أعلن خروجه عن طاعة الفاطميين وتحكم بالمذهب السني وخطب للعباسيين^(٣)، وهذا يدل على تحول عميق حدث في هذه الدولة.

ولقد بلغت القلعة أوج عظمتها بعد غزو قبائل بني هلال لإفريقية وفرار الكثير

(١) البكري (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ١٢٩.

(٢) عبد الحليم (عويس): دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، دار الشروق ١٩٨٠، ص ٩١.

(٣) إسماعيل (العربي): دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨٠، ص ١٣٧.

من أصحاب الثراء في المغرب الأدنى من التجار والعلماء والحرفيين إلى القلعة ليضيفوا إليها قوة اقتصادية وازدهارا ثقافيا لم يشهده المغرب الأوسط في تاريخه، ولكن سرعان ما تعرضت هي الأخرى إلى مثل ما تعرضت له القيروان من عبث الهلاليين وتخريبهم لعمرائها، وفي ذلك يقول ابن خلدون ".... ثم لحق بالقلعة فنازلوها وخرّبوا جنباتها وأحبطوا عروشها فخرّبوها وأزعجوا ساكنيها وأعطفوا على المنازل والقرى والضياح والمدن فتركوها قاعا صفصفا"^(١) واضطر بنو حماد إلى نقل حضارتهم من القلعة إلى بجاية فيما يقرب من سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، ولم يلبث نفوذ بني حماد مع مرور السنين أن أخذ في التقلص تدريجيا بعد أن أفل نجمها وهاجر سكانها إلى بجاية.

لقد ترك الحماديون في مجال العمارة والفنون أثارا متنوعة من مساجد وقصور وحصون منها ما اكتشف ومنها ما لا يزال دفين الأطلال ومنها ما دثرت آثاره، والذي لا شك فيه أن الفنون الحمادية كان لها حظ كبير في التأثير على فنون الأندلس، كما أنها تلقت من الأندلس تأثيرات أندلسية وكذلك تبادلت مع المشرق الإسلامي التقاليد الفنية المختلفة، وإن ظلت تحتفظ إلى حد كبير بشخصيتها الواضحة.

وأول ما يلفت النظر داخل قلعة بني حماد، مئذنة المسجد الجامع وهي مئذنة رائعة الجمال فريدة من نوعها، وما تزال قائمة في وقتنا الحاضر تقاوم عوادي الزمن، وتعد أول مئذنة أنشئت في المغرب الأوسط.

١ - الطابع العام لمآذن بني حماد:

وصلت إلينا من هذا العهد ثلاث مآذن هي: مئذنة جامع قلعة بني حماد بالمسيلة، ومئذنة جامع قسنطينة، ومئذنة جامع أبي مروان بعنابة، ولقد تعرضت هذه المآذن لأضرار عبر حقب التاريخ الإسلامي ووصلت إلينا في حالة سيئة، وفيما يلي عرض موجز للطابع العام لهذه المآذن.

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن): العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ١٩٥٩، ص ٤٣.

تتميز منڈنة جامع قلعة بني حماد بتناسق هندسي واضح المعالم، وعلى الرغم من تھدم جوسقھا العلوي، وسقوط بعض الزخارف التي كانت تزدهان بها أوجهها فإن ما تبقي من أجزائها الأصلية لا يزال يحتفظ بأصوله المعمارية الأولى، والمنڈنة مربعة القاعدة تتوسط الواجهة الشمالية من الجامع (شكل ١) وتتكون من طابق واحد من القاعدة إلى القمة ولا تميل جدرانها كلما ارتفعنا كما هو الحال في منڈنتي جامع القيروان وجامع صفاقس المتأثرتين فيما يبدو بمنار الإسكندرية^(١). وإنما تحتفظ الجدران باستقامتها واعتدالها كلما ارتفعنا.

ويصعد إلى أعلى هذه المنڈنة من باب يفتح في الصحن، وتتميز المنڈنة بوثاقة البنيان ممثلة في سمك الجدران، كما تنفرد المنڈنة بأن الزخارف تقتصر على واجهة واحدة فقط وقوامها عناصر نباتية وهندسية لا نظير لها فيما سبقها من زخارف، ويعلو الدرج أقبية برميلية ومتقاطعة وهو نفس نوع القبوات التي تعلو درجات منڈنة جامع أبي مروان، ويحتمل أن تكون منڈنة جامع قلعة بني حماد من طابقين فقط. كما هو الحال في المآذن الموحدية، وتعتبر منڈنة جامع القلعة النموذج الذي اشتق منه الموحدون مآذنه وتختلف عن منڈنة جامع القيروان وجامع صفاقس اللتان تتألفان من ثلاثة طوابق بحيث تبدو لمن يشاهدها أكثر شبها لمنڈنة جامع الكتبية بمراكش من منڈنة جامع القيروان وجامع صفاقس، وهذا يدعونا إلى التساؤل عن مصدر اشتقاق شكل هذه المنڈنة.

فالأستاذ بوربية يعتقد أنه مقتبس من منڈنة جامع قرطبة، ومن المحتمل أن تكون قد تأثرت بمنڈنة جامع القرويين بفاس وهي أموية الإنشاء، وذلك بسبب الاحتكاك الحربي مع الزناتيين بالمغرب الأقصى حسبما ذهب إليه بوربية^(٢).

أما منڈنة جامع قسنطينة فيشكل تاريخ إنشائها مشكلة ولا ندري إذا ما كانت بصورتها الحالية ما تزال تحتفظ بخصائصها الحمادية أم لا؟ فهناك اختلاف كبير بين

(١) السيد عبد العزيز (سالم): تأثير منار الإسكندرية في عمارة بعض المآذن في المغرب والأندلس.

(٢) BOUROUBA @; L'ART RELIGIEUX MUSULMAN EN ALGERIE 2^e EDITION, SNED, ALGER 1983, P.45.

نظامها المعماري ونظام مئذنة جامع القلعة فهي مئذنة مستديرة المسقط وتتكون من طابقين، الطابق العلوي منها يتراجع تراجعاً خفيفاً عن الأدنى، وينتهي هذا الطابق بشرقة مزودة بسياج مفرغ بالزخارف الهندسية، أما قمته فأسطوانية الشكل تنتهي في أعلى بقبة مخروطية الشكل.

ويدور الدرج الداخلي حول عمود من الخشب، ويتغير تخطيط المئذنة كلما صعدنا إلى أعلى، ومن المتعذر تحديد الأصل الذي أخذت منه هذه المئذنة صورتها، إذ أنها تنفرد عن غيرها من مآذن المغرب الأوسط بهذا الشكل، وسنعود لمناقشة هذه المشكلة فيما بعد.

أما مئذنة جامع أبي مروان فقد ضاع أغلب معالمها الأصلية بحيث لم يتبق منها إلا القاعدة، أما باقي الأجزاء العليا فقد جددت حديثاً دون الاهتمام بمراعاة إعادتها إلى ما كانت عليه. وسنقصر حديثاً في هذا الفصل على مئذنة جامع قلعة بني حماد التي تمتاز بأصالة لا نظير لها ومئذنة جامع قسنطينة التي تتميز بطرازها الغريب.

٢ - مئذنة جامع قلعة بني حماد:

قبل الشروع في دراستنا للمئذنة يجدر بنا تقديم عرض مختصر أو وصف لعمارة هذا الجامع، يتخذ الجامع شكل مستطيل طوله من الداخل ٦٤ م وعرضه ٥٦ م ويبلغ سمك جدران الجامع نحو ١,٥ م يتوسطه صحن مستطيل الشكل، ويتألف بيت الصلاة من ١٣ بلاطة عمودية على جدار القبلة وثمانية أساكيب موازية لجدار القبلة، وللأسف ضاعت معظم العمدة التي كانت تتكئ عليها عقود الجامع ولم يتبق منها سوى قواعدها، وكان يفصل بيت الصلاة عن باقي أجزاء الجامع جدار، ويدعم جدران الجامع من الخارج ركائز سائدة وينفتح فيها سبعة أبواب ويحيط بقبلة الجامع بناء يضم خمسة أساطين ربما كان مسجداً صغيراً بني بداخل بيت الصلاة بعد أن قل عدد سكان القلعة أثر هجرتهم إلى بجاية^(١). وقد يكون هذا البناء جزءاً لمقصورة الجامع.

(١) MARCAIS (G); ARCHIT. MUSUL. D'OCCI, P.75.

أما المنذنة فتتوسط الجدار الشمالي للجامع على نفس المحور الرئيسي له وهو تقليد اتبع في المسجد الجامع بالقيروان (بداية القرن الثاني للهجرة) ومنذنة جامع صفاقس، ومنذنة جامع قرطبة، ونميل إلى الاعتقاد بأن بناء المنذنة تأثروا بوضع منذنة جامع القيروان، كما تأثروا بالشكل المربع للقاعدة^(١).

ولدخول المنذنة يصعد الراقى على درج من ثلاث درجات تليها بسطة ثم ثلاث درجات أخرى تنتهي بمدخل المنذنة (صورة ١) وتتكون المنذنة من قاعدة مربعة يعلوها بدن المنذنة الذي يتألف من طابق واحد مربع الشكل بدوره، ومن الجدير بالملاحظة أن زخارف هذه المنذنة تقتصر على الواجهة الجنوبية المقابلة للصحن، أما الواجهات الأخرى فعاطلة من الزخارف باستثناء بعض الفتحات والمزاغل التي استعملت للإضاءة والتهوية، وربما للمراقبة أيضا (صورة ٢) ومدخل المنذنة في الخارج معقود بعقد نصف دائري تغويه لوحة حجرية تزدهن بزخارف نباتية، وهناك من يعتقد بأنه عقد منكسر، ولكن (ليزين) يؤكد عدم وجود أي عقد منكسر في واجهة المنذنة بأكملها^(٢).

وتنقسم الواجهة إلى ثلاث قطاعات طبق في توزيعها الإيقاع والتماثل، وتشكل القطاع الأوسط منها أربعة حنايا يبدو أنها كانت في الأصل مصمتة ثم تهاوت بفعل الزمن وبتأثير العوامل الطبيعية وبقيت منها الحنية الرابعة التي ما تزال تحتفظ إلى حد كبير بشكلها الأصلي وهي مصمتة تزدهن بتشكيل هندسي قوامه حرف (Y) اللاتيني يتوسط رأس العقد. أما الحنيتان الجانبيتان فلا تعدو كل منهما جوفة مستطيلة الشكل مطولة مصمتة تنعقد في أعلى بعقد نصف دائري ويتوج هذا الطابق في المنذنة جوفة خامسة أقل ارتفاعا من الجوفة الرابعة وتنتهي بدورها بعقد نصف

(١) BEYLIE (GL.DE); LA KALAA DES BENI-HAMMAD. UNE CAPITALE BERBERE DE L'AFRIQUE DU NORD AU XI^e, SIECLE, PARIS ERNEST LEROUX, 1909, P.80

(٢) LEZINE (A); "LE MINARET DE LA KALAA DES BENI-HAMMAD" IN. BUUERIN, D'ARCHEOLOGIE ALGERIENNE. TOME II 1966- 1967, BUUETIN PARIS 1967, P.264.

دائري كان يكسو وجهه تربيعات من الخزف تبقت منه بأعلى العقد لونها أخضر. وتتميز الجوفة الثانية بعقدها الذي تختلط فيه الخطوط المستقيمة بالمنحنيات MIXTILGNES ويذكرنا هذا العقد بالعقود التي تحف بمقرنصات الأركان بجامع تلمسان وكذلك بعقود مصلي قصر الجعفرية بسرقسطة. أما عقد الجوفة الأولى التي تعلو مدخل المئذنة فيبدو أنه كان مماثلاً للعقد السابق، فما تزال تظهر الخطوط المختلطة بالمنحنيات، ومن المعتقد أن هذا الوجه في المئذنة كان مكسوا بكسوة من الخزف الأخضر الزليجي الذي شاع استخدامه في كثير من مآذن المغرب في العصور التالية، كما أن تقسيم الزخارف إلى قطاعات ثلاثة تمتد رأسياً بامتداد المئذنة فتقليد مبتكر سيطبق في عصر دولة الموحدين في مئذنة جامع القصبة بأشبيلية المعروفة بالخير الداء^(١).

وتكشف التقسيمات الزخرفية بواجهة هذه المئذنة عن بعض التأثيرات المغربية وتتمثل في الحنايا المسطحة التي نشهد نظائرها في مدخل المسجد الجامع بالمهدية، وكذلك في الفتحات المعقودة بعقود منكسرة التي تزدان بها مئذنة جامع صفاقس^(٢).

ولم يتبق من الطابق العلوي للمئذنة أي أثر يدل عليه، كما أن المصادر التاريخية والمراجع الحديثة لم تشر إلى وجود أثر له، وأغلب الظن أنه تهدم في وقت قريب من تاريخ إنشاء القلعة، إلا أن الأستاذ (كمال الدين سامح) يعتقد أنه تهدم في سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م على أيدي الموحدين^(٣)، بل أن قمة الطابق الرئيسي المتبقي في المئذنة في طريقها إلى الانهيار الأمر الذي استلزم قيام إدارة الآثار بالقلعة بترميمها في سنة ١٩٦٩ - ١٩٧٠ تحت إشراف وزارة الإعلام والثقافة آنذاك

^(١) BOUROUIBA ® ; CITES DISPARUES. TAHERT, SEDRATA ACHIR ET KALAA DES BENI HAMMAD IN. COLLECTION ART ET CULTURE, ALGER 1982, P.113.

^(٢) GOLVIN (L), RECHERCHES ARCHEOLOGIQUES A LA KALAA DES BENI- HAMMAD, G.P, MAISONNEUVE ET LA ROSE, PARIS 1965, P.53.

^(٣) KAMAL EL DIN (SAMEH); MINARETS IN NORTH AFRICA AND SPAIN, P.183.

وتم الفراغ من أعمال الترميم سنة ١٩٧٦م، وقد توصلت إلى الحصول على بعض التقارير المقدمة من البعثة الإيطالية التي تولت ترميم المئذنة في أغسطس ١٩٧٢م، ويستدل منها على أن كتل الحجارة التي تساقطت من المئذنة أعيدت إلى مكانها بطريقة عشوائية مما يدل على أن ترميم المئذنة تم على نحو غير علمي لم تطبق فيه المنهج العلمي السليم^(١). ويمكننا ملاحظة بعض آثار الترميم على ارتفاع عدة أمتار من قاعدة المئذنة وذلك تجنباً لتعرضها للسقوط.

أما عن مقاسات المئذنة فيقدر طول كل جانب من قاعدتها بـ ٦,٥٠م ويبلغ ارتفاعها بدون الجوسق العلوي المفقود ٢٥ متراً وهي المقاسات الحالية للمئذنة، وعندما ندقق النظر من الخارج نلاحظ أنها تنقسم إلى ثلاثة طوابق وهو تقسيم هندسي روعي فيه التناسب الهندسي للمئذنة. والواقع أن المئذنة كتلة بنائية واحدة متماسكة تتناسب من قاعدتها إلى قمته.

ومدخل المئذنة ينفتح في قاعدتها ويؤدي هذا المدخل إلى السلم الداخلي وتتعدد درجاته مائة وثلاث وثلاثون درجة تفضي إلى أعلى المئذنة، وهذه الدرجات منها ما استحدث بأعلى المئذنة بنفس نظام الدرجات السفلي، وباب المدخل مصراع من الخشب على جانبيه عمودان مدمجان بالجدار يعلوهما تاجان اندثرا حديثاً ولم يبق إلا آثارهما، ويقال أن باب المئذنة استحدث في الفترة الاستعمارية الفرنسية لأن الباب الأصلي اختفي في فترة غير معروفة، وربما انتزع من المئذنة ونقل إلى بجاية بعد انتقال العاصمة إليها.

ويشغل وسط المئذنة دعامة مركزية مصمتة مربعة الشكل طول كل ضلع منها ١,٥٠م يلتف حولها الدرج الصاعد المؤدي إلى أعلى المئذنة (شكل ٢) ويعلو الجهة الغربية للدعامة عقد نصف أسطواني، وأما السلم الداخلي فتختلف عدد درجاته حسب كل دورة، وسقفه قبوات تتناوب فيما بينها قبوة متقاطعة تليها قبوة نصف أسطوانية،

(١) FERRANTE (MARIO); "RAPPORT SUR LA RESTAURATION DU MINARET DE LA KALAA DES BENI -HAMMAD, IN. ARCHIVES DE MISSION ARCHEOLOGIQUE, AOUT 1972..

ويستمر نظام التقبيب على هذا النحو إلى أعلى المئذنة، ونلاحظ أن القبوات المتقاطعة تأخذ موضعها في الزوايا، وهذه ميزة سبق أن طبقت في مئذنة جامع القيروان^(١).

وجميع درجات السلم مستطيلة الشكل باستثناء الدرجات الواقعة عند نهاية كل دورة حيث يتخذ الدرجان شكل مثلثين، طول كل درجة مترا واحدا، أما العرض التقريبي لها فيبلغ ٣٥ سم. ولقد أخطأ (جولفان) في رسم المقطع الطولي للمئذنة في كتابه (أبحاث أثرية في قلعة بني حماد) حيث خلط بين سمك الجدار وطول الدرجة الواحدة، فبينما قدر سمك الجدار بـ ١,٥٠ م وطول الدرجة مترا واحدا مثل العكس في مقطعه، كما أنه لم يمثل أيضا في مقطعه الطولي الفتحات الموزعة على الواجهات الأربعة للمئذنة وهي الملاحظات التي استخلصناها أثناء دراستنا الميدانية للمئذنة مما دعانا إلى إعادة رسم قطاع طولي للمئذنة (شكل ٣). ويتخلل جدران المئذنة من الداخل فتحات للإضاءة والتهوية والمراقبة في الوقت ذاته منها فتحة ضيقة أشبه بالمزغل في الأسوار والقلع، وتقع هذه الفتحة بالجانب الأيسر من المدخل ما بين عقد المدخل والعقد الذي يعطوه، ومن المعروف أن هذا المدخل يقع على مقربة من سور المدينة، وربما استخدم لهذا السبب للمراقبة. ومن الجدير بالذكر بهذه المناسبة أنه يفتح في الواجهة القبليّة المزينة بالزخارف في أوجه المئذنة فتحة ضيقة قبالة المحراب هي في الواقع مزغل (صورة ٣)، ومن المرجح أيضا أنه استخدم للمراقبة وإطلاق السهام في وجه العدو، وينفتح على مقربة منها بالواجهة الشرقية من المئذنة فتحة مماثلة مقابلة لبرج المنار حيث تقابلها فتحة مازالت آثارها موجودة، هذه المزاول كانت مخصصة للمراقبة وإطلاق السهام أو لإشعال النيران إنذارا باقتراب العدو، وبالإضافة إلى ذلك تنفتح في جدار الواجهة من الداخل فتحة أخرى مستديرة وعميقة تطل على الجهة الجنوبية نحو أعلى قمة من هضاب شط الحضنة التي تبعد عن سور المدينة بنحو ٣ كلم، ومن المحتمل وجود

^(١) GOLVIN (L); RECHERCHES ARCHEOLOGIQUES A LA KALAA.. P.53.

برج للمراقبة في هذه القمة لمراقبة العدو القادم من مدينة طبنة ربما كان حلقة وصل بين طبنة والقلعة. هذا وينفتح في الجدار الشمالي من المئذنة موضوع الدراسة فتحة على شكل مزغل تطل على أعلى قمم جبل تقربوست الواقع في الجهة الشمالية للمدينة، ومن المعتقد أنه كان يقوم بأعلى قمة هذا الجبل برج للمراقبة كانت توقد فيه النيران للإبذار بقدوم العدو من الجهة الشمالية.

ويعلو الدرج الداخلي عند نهاية الجوفة الأولى من الوجه الخارجي للمئذنة قبوة متقاطعة (صورة ٤) وأستبعد أن تكون هذه الجوفة مصمتة كالشان في الطائفتين الجانبيتين، وأعتقد أنها كانت مفتوحة من الأصل استنادا إلى الفتحتين اللتين تنتظمان أعلاها مما يرجح كثيرا أن هذه الفتحة كانت بابا يغلق بمصراعين مهمته الإضاءة والتهوية أو لرمي القذائف.

وابتداءً من نهاية الدورة الأولى صعودا نحو الثانية تتغير طريقة التسقيف حيث تسقف الأدراج بأقبية نصف أسطوانية، وبوصولنا إلى الدورة الثانية من الدرج نجد طاقة على غرار الطاقة الموجودة في الدورة الأولى من الدرج، وأن كانت تقل عنها في الطول، ومن الواضح أنها كانت مفتوحة في الأصل لأنه لم يتبق أي دليل على أنها كانت مصمتة، بل مازالت جدرانها تحتفظ بآثار الملاط مما ينفي ذلك ويبقى أن نعرف إذا ما كانت مفتوحة دائما أو كانت مغلقة بباب أو بمزلاج حديدي أو كانت في الأصل نافذة وهو أمر لم نستطع أن نستدل عليه من الآثار الباقية. ويستمر أسلوب التقيب في الدورة الثالثة من الدرج متخذا نفس أسلوب الدروة الثانية وقوامه القبوات نصف الأسطوانية، وفي هذه الدورة الثالثة تنفتح طاقة شبيهة بطاقة الدورة الثانية، ويستمر التسقيف تبعا نفس النظام السابق فيما بين الدورة الثالثة إلى شرفة المئذنة، وفي هذه الدورة تنفتح طاقة ضيقة على شكل مزغل في الجهة الغربية من المئذنة قبالة باب الجنان، وأخري في الوجهة الشمالية قبالة جبل تقربوست بنفس النظام.

وسطح البرج الرئيسي للمئذنة مربع الشكل أعيد ترميمه كما سبق أن أشرنا، ونتساءل هل كان لهذا البرج الرئيسي جوسق علوي أعني طابق ثان؟

وقبل الإجابة على هذا التساؤل لا بد أن نحدد طبيعة هذه المنذنة، فإذا ربطناها بجميع الأبراج المحيطة بالسور فإننا نلاحظ أنها ترتبط بها ارتباطا وثيقا، ومن المعروف أن القلعة مدينة عسكرية من الدرجة الأولى لأن أسمها يدل على ذلك.

وقد خرجنا من دراستنا لهذه المنذنة بعدة ملاحظات منها الارتفاع الشاهق للمنذنة ويبلغ ٢٥م في حين يبلغ طول القاعدة المربعة ٦,٥٠م ثم السمك الهائل للجدار ويبلغ ١,٥٠م بالإضافة إلى وجود المزاغل في جدران المنذنة على الواجهات الأربعة لها قبالة قمم الجبال المحيطة بالقلعة، ومنها توسط موقع المسجد والمنذنة للمدينة، وهذا الموقع المركزي يتيح مراقبة سائر الجهات، زد على ذلك أن المظهر الخارجي العام للمسجد يؤكد الدور العسكري الذي يقوم به، فجدران المسجد الخارجية تدعمها ركائز ضخمة تشبه ركائز الجدران في جامع القيروان وجامع قرطبة وجامع اشبيلية. كل هذه الخصائص المعمارية تجعلنا نسلم بأن القلعة كانت بالفعل مدينة عسكرية وأن مسجدها الجامع اتخذ طابعا عسكريا بحثا كما تدل بقاياه، ومن خصائص المنذنة المعمارية جمعها بين وظيفتين الأولى دينية خالصة والثانية عسكرية حيث كانت تتخذ برجاً للمراقبة والإشعار بخطر اقتراب العدو، كما يمكن القول أيضا من خلال ما أبديناه من ملاحظات أن الجمع بين هاتين الوظيفتين كان مقصودا من البداية.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نستنتج أن المنذنة كان يعلوها جوسق أو برج أقل في الارتفاع والضخامة من الطابق الرئيسي، ولقد أعاد تصويره (جورج مارسيه) (شكل ٤) إذ تصور أنه كان قائما على قاعدة مسطحة تحف بجدرانها الأربعة شرافات مدببة الرؤوس وينتهي هذا الطابق بقبة، ولكن لسنا ندري على أي أساس جعل مارسيه هذه الشرافات مدببة على الرغم من أنه لا أثر للشرافات المدببة في واجهة المنذنة.

وإذا سلمنا أيضا بأن المنذنة كانت برجاً للمراقبة، فالمرجح أن تكون الشرافات مدورة الرؤوس تجنباً لوجود فراغات كبيرة بين كل شرفة وأخرى، وبذلك يمكن للحارس مراقبة المسجد والمدينة من أعلي الشرفة، ومثل هذه الشرافات استعمل في

رباط سوسة وكذلك في منذنة جامع القيروان، لأن الشرفات المدببة تترك فراغا كبيرا بينها، وفي تصوري أن القبة كان يعلوها في مركزها سفود بارز كانت مركبة فيه تفافيح ثلاثة يتوجها هلال كما في (الشكل ٥) على غرار سفافيد المآذن الزياتية التي سنقوم بدراستها فيما بعد. ولا نستبعد أن تكون جدران الجوسق أو البرج العلوي مفتحة بفتحات معقودة أسوة بما ابتع في البرج الرئيسي وعلي نحو ما نشهده في المآذن الأندلسية المغربية.

أما عن مواد البناء التي استخدمت فيها يذكر (سلادان) بأنها بنيت بالدبش المسطح غير متساوي القطع ثم طلي بالجير^(١)، في حين لاحظت أنه استخدم في البناء الحجر البني اللون الذي كان يجلب من جبل تقربوست وكانت الأحجار تقطع بانتظام وتركب الواحدة فوق الأخرى بواسطة الحجر المدكوك أو الطابية، وهذه الطريقة هي التي استعملت في العمارة الإسلامية بالجزائر، بل في المغرب الإسلامي إجمالا، وكثيرا ما عمد البناء إلى دمج بعض الألواح الخشبية في البناء وهي طريقة مازالت تستخدم إلى يومنا هذا وذلك لتقوية البناء. أما جدار المنذنة من الداخل فمطلي بالجير.

ومن خلال دراستنا لهذه المنذنة يبدو أنها لا تمت بصلة إلى منذنة جامع القيروان، والتشابه الوحيد الذي يمكن ملاحظته بينهما يتمثل في الجوفات المسطحة على واجهة كل من المنذنتين المطلتين على الصحن^(٢)، وعلى هذا النحو يمكن أن تكون هذه المنذنة جمعت بين تأثير قيرواني ودار من المسجد الجامع بالقيروان، وتأثير أندلسي مغربي تشهده في منذنتي جامع القرويين وجامع الأندلسيين^(٣) بفاس

(١) SALADIN (H); NOTES SUR LES MONUMENTS DE LA KALAA DE BENI -HAMMAD' IN. BULLETIN ARCHEOLOGIQUE DU COMITE DES TRAVAUX HISTORIQUES ET SCIENTIFIQUES, PARIS, 1904, P.244.

(٢) LEZINE (A); "LE MINARET DE LA KALAA DES BANU -HAMMAD' IN, B.A.A. T2, P. 267.

(٣) RICARD (P); POUR COMPRENDRE P.200.

ولقد تفاعلت جميع هذه التأثيرات في منذنة جامع قلعة بني حماد لتظهر بمظهر أصيل يعبر عن قدرة المعمار الحمادي العالية في الإبداع المعماري.

ومما لا شك فيه أن تأثير هذه المنذنة على مآذن الموحدين وعلى الأخص منذنة جامع أشبيلية كان عميقا من حيث نظام توزيع الزخارف على واجهتها، ويبدو أن هذه التأثيرات الحمادية بدأت تفيض على مآذن الموحدين منذ أن سقطت قلعة بني حماد في أيديهم ٥٤٧هـ / ١١٥٢م^(١) ويتجلى التأثير المذكور معماریا في الطابع العام للمنذنة الموحدية، وزخرفيا في القطاعات المخصصة للزخارف في منذنة أشبيلية، وكذلك في زخارف منذنة الكتبية^(٢) ومنذنة جامع حسان بالرباط^(٣)، ثم مارست منذنة أشبيلية تأثيرها بدورها على المآذن الزيانية والمرينية كما سنرى فيما بعد.

٣- منذنة المسجد الجامع بقسنطينة:

يتكون بيت الصلاة في هذا الجامع من ست بلاطات موزعة على ثمانية أساكيب تتساوى في الاتساع، وللمسجد محراب رائع حنيته تعلوها قبيبة مفصصة على غرار محراب جامع القيروان وتزدان طرة المحراب أو تربيعته بشريط من الكتابة الكوفية سجل فيها تاريخ الإنشاء وهو عام ٥٣٠هـ / ١١٣٦م وهو تاريخ مقارب لتاريخ بناء جامع تلمسان في أواخر عصر دولة بني حماد ويعلو هذا النقش الكتابي بطرة عقد المحراب نقش بالخط الكوفي يتضمن تاريخ سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م يعلوه نقش آخر نقشه بخط لين يتضمن تاريخا يتألف من أربعة أرقام أحدها رقم المئات وهو مشوه، أما بقية الأرقام فهي (١) للألوف و(٨) للعشرات و (٠) للآحاد، وقد تكون

^(١) GOLVIN (L); ESSAI SUR L'ARCHIT- RELIGMUSUL, T1, P.58.

^(٢) BASSET (H) ET TERRASSE (H); SANCTUAIRES ET FORTERESSES , AL- MOHADES, COLLECTION HESPERIS N^o. V LA ROSE EDETEUR PARIS, 1932, P.110.

^(٣) GOLVIN (L); LE MAGHRIB CENTRAL A L'EPOQUE DES ZIRIDES. ARTS ET METIERS GRAPHIQUES, PARIS 1957, P.185..

هذه التواريخ ١٠٨٠هـ/١٦٦٩م، أو ١١٨٠هـ/١٧٦٦م أو ١٢٨٠هـ/١٨٥٣م^(١). ونستدل من النقشين الأولين بأن المسجد تم في عصر بني حماد وأنه أضيف إليه إضافات إحداها في عصر المرابطين والآخر في العصر الحديث، ويشير (ميرسيه) إلى هذه الزيادات معتمدا على نقش كتابي فوق أحد الأضرحة عثر عليها (شاربونو) بالمسجد الجامع بقسنطينة مؤرخة بـ ٦١٨هـ/٢ - ١٢٢١م، وأن المكان الذي عثر فيه على هذا النقش قد هدم وبني في موضعه عمائر فرنسية، ويعتقد (ميرسيه) أن المسجد كان في الأصل أكثر اتساعا منه الآن، فإن واجهته أعيد بناؤها وفقا للطراز المعماري الفرنسي، أما بقية البناء فيرجع إلى تاريخ الإنشاء الأول^(٢)، وأما الأستاذ بورويبة فيري بأن النواة الأولى لبناء المسجد كانت في العهد الحمادي ١١٣٦م^(٣).

تنتصب المئذنة بالجدار الشمالي للجامع شأنها في ذلك شأن مئذنة جامع القلعة، وتتكون من قاعدة مستديرة يعلوها بدن المئذنة وهو مربع الشكل يتكون من طابقين، الطابق الأول مربع الشكل وأكثر طولاً تفتح في واجهاته نوافذ ضيقة الفتحات مستطيلة الشكل تتوزع نافذة في كل واجهة وذلك لإدخال الضوء والتهوية، ويتوج كل هذه النوافذ عقد على شكل حدوة الفرس، ويحد هذا الطابق من أولاه شريط داكن اللون. وتراجع جدران الطابق الثاني إلى الداخل قليلا عن الطابق الأول وهو أقل طولاً منه، وينفتح في كل وجه من أوجهه صفان من النوافذ بكل صف نافذتان، وتتألف كل نافذة من مستطيل ضيق يعلوه ما يشبه عقد متجاوز على شكل حدوة الفرس، ويعلو هذا الطابق شريط بارز يليه شريط آخر من الرخام يزيد عرضه عن الشريط الأول يشكل إفريزا أملس يتوسطه هلال في كل وجه من أوجه المئذنة.

^(١) بورويبة (رشيد): الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٧٧، ص ٢٢٢.

^(٢) MERCIER (GUSTAVE) : CORPUS DES INSCRIPTIONS ARABES ET TURQUES DE L'ALGERIE, PARIS, ERNEST LEROUX 1902. P.5.

^(٣) BOUROUBA ®; L'ART -RELIG -MUSULP.23

(صورة ٥) ويتوج ذلك كله شريط يتكون من ثلاثة صفوف من المثلثات والمعينات على شكل مقرنصات من ثلاث حطات ترتكز عليها شرفة المؤذن ويدور بها سياج من البناء المخروم بأشكال نجمية، يعلو ذلك طابق أسطوانتي الشكل قصير يتوجه جفت بارز ترتكز عليه القبة مخروطية الشكل التي يخرج منها سفود ركبت به تفافيح ثلاث على شكل كرات تبقي منها اثنتان (صورة ٦)، وكان يعلو هذه التفافيح كما هو الشائع في مآذن المغرب الأوسط هلال كان يزن نحو من ٢٠ كلغ ولكنه سقط في سنة ١٩٧٤م أو ١٩٧٥م، ويزدان بدن الجوسق كله بقطع من الزليج الأزرق والأصفر والأخضر على غرار زليج الفترة العثمانية في قسبة الجزائر العاصمة، والظاهر أن هذه التربيعات الزليجية اجتلبت من أحد مرافق المسجد وأعيد تركيبها في بدن الجوسق وهذا يدعونا إلى التأكد من أن المئذنة والجامع قد تعرضا لبعض الزيادات في العصر العثماني لكنها لم تمس جوهر البناء، فمن الممكن حصرها في مجال الزخارف فقط، وأما القبة المخروطية الشكل فهي مصفحة بقطع من القصدير.

أما القسم الداخلي من المئذنة فيمكن الدخول إليه عبر باب من الخشب من مجنبته الشمالية يبلغ ارتفاعه ٩٥سم، واتساعه ٧٥سم يؤدي إلى درج يدور حول دعامة أسطوانية من الخشب محيطها ٦٥سم، ويصل الراقي (شكل ٦أ) بعد خمس وثلاثين درجة إلى سطح يؤدي إلى مئذنة أخرى مربعة الشكل تقع شرقي الأولي وتقوم على دعامة أسطوانية مماثلة للدعامة الأولى، ولكن تبعد عنها بنحو ٢,١٠م (شكل ٦ب) وبصعودنا أيضا ست عشرة درجة يقابلنا باب يؤدي إلى قضاء مسطح مستطيل الشكل يقع في الجهة الشمالية للمئذنة (شكل ٦ج) وللوصول إلى هذا القضاء العلوي للمئذنة لابد من صعود ثمانين درجة وقبل الوصول إليه بـ ٣٠سم^(١) يتغير الشكل المربع إلى الشكل الدائري المسقط (شكل ٦د) وسقف الدرج مائل بميل الدرج نفسه (شكل ٧) ودرجاته كلها من الخشب ويبلغ طول الدرجة الواحدة ٧٣سم، وتتخلل جدران المئذنة نوافذ سبق وأن تحدثنا عنها عند وصفنا للمظهر الخارجي

(١) BOUROUBA (R); CONSTANTINE, COLLECTION 'ART ET CULTURE' ALGER 1978, P.61.

للجامع بالإضافة إلى جوفات صماء لوضع بعض مستلزمات المسجد والمؤذن.

بنيت المئذنة من كتل حجرية صغيرة الحجم أشبه ما تكون بقوالب الآجر كسيت من الخارج بالجير، أما من الداخل فقد تداخلت معها بعض الروابط الخشبية لتدعيم المبنى وجعله أكثر صلابة، وهذه تقنية استعملت من قبل في مئذنة جامع قلعة بني حماد.

ويتبين لنا من دراسة العناصر المعمارية لهذه المئذنة أنها تختلف تماما عن مئذنة جامع القلعة، وكذلك عن المآذن الأولى في المغرب والأندلس مثل مآذن جوامع القيروان وصفاقس وقرطبة وإن كانت تقترب من المآذن ذات الطابقين الموحدية والزيرية وما تلاها، ولو ثبت أن مئذنة جامع القلعة كانت تتكون من طابقين وهو الأرجح فأنها تكون قد أثرت على مئذنة جامع قسنطينة تأثيرا واضحا.

أما من حيث جوهر البناء فيختلف في قسنطينة اختلافا واضحا عنه في القلعة، ولهذا السبب لا يمكننا أن ندرج مئذنة قسنطينة في عداد المآذن الحمادية، وكنموذج فعلي للفترة الحمادية لأسباب كثيرة منها أن القسم الواقع فوق السطح الأول المستطيل لا يرجع إلى القرن ٦هـ / ١٢م، وأما فيما يتعلق بالطابق السفلي فلا بد أن نشير إلى أن المآذن دائرية المسقط والتي تحتوي على دعامة مركزية دائرية نادرة في القرن ٦هـ / ١٢م ولا يوجد لها مثيل في المغرب. أما في المشرق فلا نعثر على مثل هذا الشكل إلا في جامع الحاكم بأمر الله في العصر الفاطمي^(١).

وكل من درس هذا المسجد الجامع يقف حائرا أمام مئذنته ثم ينتهي بطرح هذا السؤال: هل استوحي المعمارون الحماديون شكل هذه المئذنة من العمارة الفاطمية بالقاهرة؟ ولا نستبعد بالفعل أن تكون قد تأثرت بعمارة مئذنتي الحاكم بأمر الله في القاهرة اللتين تنفردان بهذا التخطيط، فتأثير المساجد الفاطمية على العمارة المغربية واضح، لكن لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا الرأي ولهذا فهو من قبيل الافتراض والتصور، ولكن السؤال المحير في هذا الشأن لماذا لم يقتبس المعمارون الحماديون

^(١) BOUROUIBA ®; L'ART RELIG. MUSUL P.43.

من مئذنة قلعة بني حماد القريبة منهم زمانا ومكانا؟

يبدو في نظرنا أن هذه المئذنة فقدت كثيرا من قيمتها بتعرضها لتغيرات في العهد العثماني والفرنسي والعصور اللاحقة مما يتعذر معه تصور حالتها الأولى. والحق أنه ليس في وسعنا أن نقول أكثر مما ذكرناه في موضوع هذا المئذنة الغربية الطراز بين مآذن المغرب الأوسط.

الفصل الثاني

المئذنة في عهد بني زيان

تمهيد:

- (١) الطابع العام للمئذنة في عهد بني زيان.
- (٢) مئذنة المسجد الجامع بتلمسان .
- (٣) مئذنة جامع ندرومة.
- (٤) مئذنة جامع سيدي أبي الحسن.
- (٥) مئذنة جامع المشور.
- (٦) مآذن زياتية أخرى.

تمهيد:

يرجع أصل بني زيان إلى القبائل الرحل التي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط ثم ترحل عنها بحلول فصل الصيف لتستقر في سهول وهران، ويضع أفرادها أنفسهم في خدمة عامل الموحدين بتلمسان كلما احتاج إليهم ومن أجل الخدمات التي قدموها للموحدين تدخلهم العسكري للدفاع عن تلمسان والمهددة بالسقوط في أيدي بني غانية المواليين لدولة المرابطين البائدة، وقد كافأهم الموحدون على هذه الخدمات فنصبوا "يغمراسن بن زيان" ٦٢٤هـ/١٢٢٧م عاملا على تلمسان وبلاد زناته^(١).

وبعد سقوط دولة الموحدين استقل "يغمراسن بن زيان" بمنطقة تلمسان وأسس دولته هناك، وتقع بين دولة بني حفص بالمغرب الأدنى وحاضرتها تونس وبين دولة بني مرين بالمغرب الأقصى وحاضرتها فاس اللتين استقلتا في نفس الوقت، واتخذ من تلمسان مقرا وحاضرة لدولته^(٢).

وكان السلطان "يغمراسن" على قول يحيى ابن خلدون كريما فاضلا انسم بالشجاعة والحلم والتواضع الجم وكان يهتم كثيرا بأمور الدين^(٣) وكان يحرص على أداء الصلاة في المسجد الجامع بتلمسان وجامع أغادير إقتداء بأمراء المرابطين وحفاظا على المظهر الديني الذي كان يحرص على إبرازه، وهو الذي بني صومعتي الجامعين المذكورين، وعندما تقرر تسجيل اسمه عليهما أبي اباة شديدا وقال بكل

(١) السيد عبد العزيز (سالم): تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الطبعة الثانية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية ١٩٨٢، ص ٧٨٨.

(٢) بورويبة (رشيد) وآخرون: الجزائر في التاريخ. العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٤، ص ٣٥٩.

(٣) ابن خلدون (يحيى): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج ١، تقديم وتحقيق وتعليق د. عبد الحميد حاجيات، الجزائر ١٩٨٠، ص ٢٠٤.

تواضع بالزناتية (يسنت ربي) أي (علم ذلك عند ربي) ^(١).

وكان "يغمراسن" راعيا لفنون العمارة والإنشاء، فاهتم بتعمير تلمسان بمختلف أنواع العمار من مساجد وقصور وأسوار، ولكن أعظم الإنجازات الإنشائية التي تمت في عهده وعهد خلفائه تتمثل في عمارة المآذن التي تشق عنان السماء بسموها ورشاققتها، وجمال صورتها على نحو يثير الإعجاب.

وشهدت تلمسان أوج تقدمها وازدهارها في مجال العمارة والفنون والعلوم في عصر بني زيان، وتشهد آثارهم الباقية على تذوق هؤلاء السلاطين للفنون وتقديرهم لها، وهكذا أبهر الزيانيون تلمسان بروائع معمارية لم يسبق أن شهدتها من قبل وأصبحت تشكل تراثا عظيما استحقت بفضل تلمسان أن تلقب بمدينة الفن والتاريخ ^(٢).

١ - الطابع العام للمئذنة في عهد بني زيان:

قبل الحديث عن الطابع العام لمآذن بني زيان ونظامها تجدر الإشارة إلى أن عصر المرابطين لم يسجل إنشاء مآذن على الإطلاق فمساجد المرابطين في المغرب الأوسط المتمثلة في المسجد الجامع بتلمسان والمسجد الجامع بالجزائر العاصمة وجامع ندرومة كلها متوجة بمآذن ترجع إلى الفترة الزيانية.

والسؤال المطروح هو لماذا لم يبن المرابطون مآذن لمساجدهم؟ من المعروف أن المرابطين يمتازون بشدة تعصبهم ونزعتهم الدينية القوية، ولذلك اعتبروا المئذنة بدعة من البدع لأن مسجد الرسول (صلي الله عليه وسلم) كان يخلو من المئذنة، ولهذا تمسك المرابطون بهذه السنة، وربما يرجع زهدهم في إقامة مآذن لمساجدهم الجامعة إلى رغبتهم في سرعة بناء المساجد، وقد يكون لأسباب أخرى لا نعرفها.

^(١) التنسي (محمد بن عبد الله): تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، حققه وعلق عليه محمد بوعباد، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر ١٩٨٥، ص ١٢٥.

^(٢) MARCAIS (G); TLEMCEN VILLE D'ART ET D'HISTOIRE EXTRAIT DU DEUXIEME CONGRES DE LA FEDERATION DES SOCIETES SAVANTES DE L'AFRIQUE DU NORD, P.21.

أما الموحدون فلم يؤثر عنهم أنهم أقاموا مساجد أو مآذن في مدن المغرب الأوسط، ولهذا السبب فإننا ننتقل مباشرة إلى عصر بني زيان الذين تركوا مآذن بلغت الغاية في الروعة والجمال، وهي مآذن مربعة الشكل تتكون غالبا من طابقين وتزدان واجهاتها بشبكات من المعينات تنبثق من عقود مختلفة الأنواع وتحاط هذه الشبكات الزخرفية عادة بأفاريز بارزة^(١).

وتبدو المآذن الزيانية وثيقة الصلة بمآذن الموحدين فهي تنتصب في الفضاء كتلة واحدة جدرانها معتدلة لا تميل إلى الداخل كلما ارتفعت وبداخلها درج يدور حول دعامة مركزية مربعة صماء. وتتكون المآذن الزيانية عادة من طابقين، الطابق الأول وهو الأساسي في المئذنة ينتهي بشرفات يليه طابق أقل ارتفاعا وضخامة تعلوه قبية يبرز من أعلاها سفود بارز، ومعظم أوجه المآذن الزيانية يزدان بشبكة من المعينات، وقد ورثوا هذا التقليد عن الموحدين^(٢).

وترجع إلى هذه الفترة الزيانية في المغرب الأوسط ثمان مآذن منها مئذنة جامع سيدي أبي الحسن، ومئذنة جامع سيدي إبراهيم، ومئذنة المسجد الجامع بتلمسان، ومئذنة جامع ندرومة، ومئذنة جامع أغادير ومئذنة جامع أولاد الإمام، ومئذنة المسجد الجامع بالجزائر العاصمة ومئذنة جامع المشور.

ومن الملاحظ أن الطابق الأول من المآذن الخمس الأولى يزدان بشبكة من المعينات محصورة بين أفاريز أربعة في حين اختفت هذه الشبكات في المآذن الثلاثة الأخيرة وربما لم تكن موجودة أصلا.

ويجدر القول أن مئذنة المسجد الجامع بالجزائر فقدت الكثير من أصلها بحيث لم تعد تحتفظ بصورتها القديمة، أما مئذنة جامع أولاد الإمام فالبرغم من صغر مساحة الجامع وضآلة أهميته في مدينة تلمسان إلا أن مئذنته تمثل طرازا زخرفيا مختلفا

(١) LES MOSQUEES EN ALGERIE. COLLECTION "ART ET CULTURE". SNED. ALGER, JUIN 1970, P.26.

(٢) BOUROUBA (R); L'ART MUSULAMAN EN ALGERIE, SNED ALGER 1972, P.47.

عن القاعدة الزخرفية لمآذن بني زيان فهي تزدان بعقدين مفصصين كل منهما يتألف من خمسة فصوص تحيط به طرة مستطيلة الشكل بداخلها حشوة تشتمل على ثلاثة عشر فصا. أما منذنة جامع المشور فلها قيمة تاريخية وأثرية كبيرة إذ أن هذا الجامع أنشئ داخل قصر يغمراسن ولهذا عرف بالمشور، وتزدان منذنته بالواجهات الأربع ببوائك متصلة العقود وبقطع من الفسيفساء الزخرفية البراقة بالإضافة إلى شريط من الكتابة منقوش في الواجهة الجنوبية للمنذنة.

وتتميز المآذن الزياتية بأنها تقع عادة في زوايا جدار مؤخرة المسجد باستثناء جامع تلمسان وجامع الجزائر العاصمة فالمنذنة تقع في منتصف جدار المؤخرة وفي نفس المحور مع المحراب، وربما تأثر موقع المنذنة في زاوية جدار المؤخرة لا سيما الزاوية الشمالية الشرقية بوضع المآذن الموحدية^(١).

وتمتاز المآذن الزياتية بارتفاعها المتوسط الذي يتناسب مع كبر مساحة المسجد أو صغرها، وقد أشرنا فيما سبق أنها تأثرت كثيرا بمآذن الموحدين بدليل أنها مآذن من طابقين وليست من ثلاثة طوابق كما هو الحال في منذنة جامع القيروان وجامع صفاقس، ثم أن جدرانها تنتصب باعتدال دون أدنى ميل إلى الداخل كلما ارتفعت بخلاف منذنتي جامع القيروان وجامع صفاقس وبنفس طابع مآذن الموحدين التي تأثرت بدورها من حيث الشكل والتقاسيم الزخرفية بمنذنة جامع قلعة بني حماد.

أما من حيث النظام الداخلي لمآذن بني زيان، فإن الارتفاع إلى أعلى المنذنة يتم عن طريق سلم يدور حول دعامة مركزية مربعة الشكل صماء كما هو الحال في منذنة جامع قلعة بني حماد، ويسقف درجات السلم قبوات نصف أسطوانية يطوقها في كل دورة قبوان متقاطعان وفي بعض الأحيان ثلاث قبوات متقاطعة.

وكل ما يمكن أن نقوله عن طابع مآذن بني زيان ونظامها الداخلي أنها متأثرة من حيث المظهر الخارجي العام، وكذلك من حيث الزخرفة، بمآذن الموحدين، أما من حيث النظام الداخلي للمنذنة فيشبهه إلى حد كبير نظيره في منذنة جامع قلعة بني حماد.

^(١) BOUROUIBA ®; L'ART TELIG MUSUL P.186.

ولقد وقع اختيارنا لدراسة مآذن بني زيان على أربع مآذن تعتبر نماذج صادقة لهذه المآذن بالإضافة إلى ما تحظى به من أهمية كما أنها مازالت تحتفظ بعناصرها الأصلية وأعني بها مآذن المسجد الجامع بتلمسان، وجامع سيدي أبي الحسن، وجامع ندرومة وجامع المشور، أما المآذن الأخرى فنتعرض لها بإيجاز شديد.

٢ - مئذنة المسجد الجامع بتلمسان :

يعتبر جامع تلمسان أحد روائع الفن والعمارة المرابطية في الجزائر حيث تداخلت فيه الكثير من مظاهر التأثيرات المغربية والأندلسية كما أنه يعتبر صورة مصغرة لجامع قرطبة، إذ اقتبس هذا الجامع نظامه التخطيطي وواجهة القبلة والقبلة التي تتقدم المحراب والقبلة المشرفة على الصحن، واستخدام العقود بالإضافة إلى فكرة المحاريب الثلاثة التي ظهرت بادئ ذي بدء في قرطبة في عهد الحكم المستنصر. وعلى عنق القبلة من الداخل نقش كتابي يتضمن تاريخ الفراغ من أعمال البناء في ٥٣٠هـ/٦-١١٣٥م أي في عهد علي بن يوسف بينما طمس إسم المؤسس في النقش وأغلب الظن أن الموحدين هم الذين طمسوه.

ويبلغ طول بيت الصلاة ٤٩,٣٠م وعرضه ٢٥م ويتألف من ١٣ بلاطة تتجه عموديا على جدار القبلة ويحدها ١٢ صفا من الدعائم المربعة ويفصل بين أساكيب بيت الصلاة صف من العقود الموازية لجدار القبلة تقسم بيت الصلاة إلى مجموعتين تحتوي كل واحدة على ثلاثة أساكيب، أما البلاطة الوسطى فأكثر البلاطات اتساعا في المسجد ويسجل ذلك تأثيرا أندلسيا من جامع قرطبة^(١).

ولقد تعرض الجامع لإصلاحات في العصر الموحدي، وأضيفت إليه في العصر الزياني زيادة تضم بنيان المئذنة مما يبين أن الزيادة التي أجريت في الجامع شملت بيت الصلاة حتى الموقع الحالي للمئذنة^(٢). وتقع مئذنة الجامع في منتصف الجدار

(١) MARCAIS (G); L'ARCHIT MUSUL. D'OCCI, P.192.

(٢) MARCAIS (G); "SUR LA GRANDE MOSQUEE DE TLEMCEN' IN. ANNALES DE L'INSTITUT D'ETUDES ORIENTALES. TOME VIII 1949-1950, P.275.

الشمالي للجامع على محور المحراب نفسه (شكل ٨) وهذا يوحى باستمرار توافد التأثيرات الأندلسية في عصر دولة بني زيان، والمنذنة مربعة الشكل تتألف من طابقين، الطابق الأول يزدان في أوجهه الأربعة بزخارف متماثلة، ولذلك فساقطصر على وصف الواجهة المطلة على الصحن التي يتوسط نصفها العلوي حشوة مستطيلة الشكل تزدان بشبكة من نحور ناتئة منبثقة من أربعة عقود مقرنصة وتمتد النحور وتتقاطع فيما بينها مؤلفة ما يشبه المعينات، وترتكز العقود الأربعة على خمسة أعمدة من الرخام الأبيض، ويعلو الحشوة المذكورة بائكة من خمسة عقود مفصصة قائمة على ستة أعمدة من الرخام الأبيض ويطوق البائكة شريط مستطيل الشكل، ويحيط بالبائكة إفريزان بارزان يرتبطان مع نظائرها في الواجهات الثلاثة الأخرى من المنذنة، ويكسو هذان الإفريزان تربيعات من الزليج، ويتوج هذا الطابق صف من الشرفات المسننة (صورة ٧)، أما الطابق الثاني فيتمثل في برج صغير الحجم تزدان كل من أوجهه الأربعة بجوفة معقودة بعقد متجاوز ومتعدد النصوص يشغل طرته المرتفعة شبكة من المعينات المتصلة بداخلها بتوريقات نباتية خضراء اللون براقية تشبه نظيرتها في منذنة جامع قلعة بني حماد تبقت منها اليوم بقية. (شكل ٩) ويكسو بقية الوجه تربيعات من الزليج خضراء قائمة وبيضاء تزدان بتوريقات، وينتهي الجوسق من أعلي بقببية ينبثق من مركزها سفود بارز ركبت فيه تفاحة واحدة، ولكن الرسم الذي قام به الأستاذ بوروبية يخلو من التفاحة المذكورة ويجعل مكانها هلالا بداخله نجمة (شكل ٩) غير أننا لم نشهد شيئا من ذلك عند دراستنا الميدانية للمنذنة.

ومن المعروف أن هذه المنذنة بنيت في ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م^(١) وهي نفس السنة التي أقيمت فيها منذنة جامع أغادير بتلمسان، ولذلك فهي وثيقة الصلة بها من حيث

^(١) BERQUE (A) ;ART ANTIQUE ET ART MUSULMAN EN ELGERIE, CAHIERS CENTENAIRES DE L' ALGERIE, N^o 6, ALGER 1930, P.166.

طابعها العام وأسلوب بنائها^(١).

ويشغل جوف المئذنة دعامة مركزية صماء مربعة الشكل طول كل جانب منها ٢,٨٠م في حين يصل طول كل جانب من جوانب قاعدة المئذنة ٦,٢٠م ويدور في الفراغ ما بين الجدار الخارجي للمئذنة والدعامة المركزية درج عدد درجاته ١٣٠ تصل إليه عن طريق باب من الخشب على يساره غرفة بابها من الخشب ربما كانت مخصصة لحفظ مستلزمات المسجد قد تكون مناما للمؤذن. (شكل ١٠).

ويسقف درجات المئذنة - وكلها متساوية في الطول والارتفاع - قبوات يبلغ عددها في كل طلعة ثلاثة كالشأن في مئذنة قلعة بني حماد (شكل ١١) ويتخلل جدار الطلعة الأولى التي تشتمل على ست درجات فتحة على شكل مزغل واسعة من الداخل وضيقة من الخارج، الجدير بالذكر أن الطلعة الأخيرة التي نفضي بعدها إلى سطح الطابق الأول تشتمل على عشر درجات، كما يتخلل جدار المئذنة أيضا فتحات تحتوي على قنوات من الفخار لا نعرف ما إذا كانت مضافة أم أصلية وعند الدورة الرابعة بأعلى المئذنة يقابل الراقى بابا خشبيا يفضي إلى شرفة مستطيلة الشكل ربما كانت تستخدم للآذان أيضا، وعلى جانبيها درجتان وتؤديان إلى سطح مجنبية المسجد.

وتنفّث في جدران المئذنة فتحات مربعة للإضاءة والتهوية، أما المزغل فمن المحتمل أنها كانت تؤدي دور المراقبة أثناء الحصار المريني لتلمسان، ويجدر القول أن القبوات المتقاطعة التي تعلو الدرج قد تهاوت بالقرب من سطح الطابق الأول من المئذنة ثم رمت بعوارض من الخشب والحديد لتدعيم جدار المئذنة، أما الدورة الأخيرة في الدرج تؤدي إلى سطح الطابق الأول الذي ينتصب عليه الجوسق أو الطابق العلوي، وعلى يمين الراقى إلى سطح المئذنة غرفة صغيرة مستطيلة الشكل، وقد تكون غرفة المؤذن، ويبلغ ارتفاع المئذنة في أدنى الطابق الأول حتى السطح ١٩,٥٠م، أما الطابق الثاني أو الجوسق فتتراجع جدرانه عن جدران الطابق الأول

^(١) MARCAIS (G ET W); LES MONUMENTS ARABES DE TLEMCEN, ALBERT FONTEMOING EDITEUR, PARIS 1903, P.142.

بنحو ١,٦٥ متراً، وهي مساحة تتيح للمؤذن أو المراقب التحرك بكل حرية وسهولة، ويدور بالسطح جدار سائر ارتفاعه ٢,٢٠ متراً تكمله شرافات ارتفاع الواحدة ٩٠ سم. وفي الجهة الشرقية للجوسق درج يتصل بباب يفضي إلى غرفة مربعة تعلوها قبة، وبنيت في أعلى القبة سفود بارز ينتهي بهلال، هذا ويبلغ ارتفاع الطابق الثاني ابتداء من سطح الطابق الأول وحتى أعلى قمة المنذنة ٩,٢٠ م وبذلك يصل الارتفاع الكلي للمنذنة إلى ٢٨,٧٠ م.

ولا تختلف مواد البناء في هذه المنذنة عن مواد بناء المآذن السابقة، فقد استخدم في بنائها الآجر الأحمر الممزوج بالحجر المدكوك الذي استعمل لتماسك الآجر فيما بينه ثم طلي بالجير، وتداخلت في قوالب الآجر كثير من العوارض الخشبية التي مازالت آثارها قائمة حتى اليوم ولا تختلف هذه الطريقة في مضمونها عن طريقة بناء منذنة جامع قلعة بني حماد.

وتعتبر هذه المنذنة رائعة الجمال نموذجاً حياً لمآذن بني زيان في المغرب الأوسط إذ تدرج بمظهرها الأصيل في عداد المآذن المربعة التقليدية في الشمال الأفريقي، كما أنها لا تختلف إطلاقاً في نظامها عن منذنة جامع أغادير^(١).

٣ - منذنة جامع ندرومة :

المسجد الجامع بندرومة واحد من أهم الآثار التي قام المرابطون بإنشائها في المغرب الأوسط وهو يشبه إلى حد ما المسجد الجامع بالجزائر العاصمة الذي بني في نفس الفترة.

يتألف بيت الصلاة من تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة وثلاث أساكيب، وثلاث بلاطات في كل من مجنبتَي الصحن الشرقية والغربية، ويزيد اتساع البلاطة الوسطى عن البلاطات الأخرى، ومن الغريب أن العقد المفصص الذي كان الظاهرة

^(١) BERQUE (A); L' ALGERIE TERRE D'ART ET D'HISTOIRE, ALGER 1937, P.158.

المميزة لمساجد المرابطين في المغرب الأوسط اختفي تمامًا في جامع ندرومة^(١).

وتلتصق المئذنة بالجدار الشرقي للجامع لصق المدخل الرئيسي (شكل ١٢)، والمئذنة مربعة الشكل طول ضلعها ٤,٩٠ م تتألف شأن مئذنة جامع تلمسان من طابقين، الطابق الأول مربع الشكل ارتفاعه ٢٠,٥٠ م بينما يصل ارتفاع الطابق الثاني (الجوسق) إلى ٤,٢٠ مترًا وارتفاع المئذنة الكلي يبلغ ٢٤,٧٠ م (شكل ١٤).

وواجهات الطابق الأول كلها مكسوة بشبكات من المعينات تغطي معظم المسطحات وتتمثل في حشوتين متراكبتين السفلى تنحصر داخل سطح مستطيل الشكل وقوامها عقدان مفصصان ينبتان من عمود مركزي في الوسط، ويتوسط كل منهما جامة بيضية الشكل، أما الحشوة العليا فتغطي معظم سطح الطابق الأول وقوام زخارفها عقود ثلاثة مقرنصة رؤوسها مدببة تقوم على عمودين مركزيين، وتمتد من رؤوسها محور تتقاطع فيما بينها مع امتدادها مؤلفة شبكة من المعينات البارزة. ومن الجدير بالذكر أن شبكة المعينات والعقود مقامة من القراميد^(٢).

أما الطابق الثاني (الجوسق) فصغير الحجم وجدرانه عاطلة من الزخرفة تعلوه قبيبة ركب فيها سفود خال من الكرات. (صورة ٨).

وموقع المئذنة من المسجد يشبه موقع مئذنة جامع سيدي الحلوى من عصر دولة بني مرين، وبداخل المئذنة درج يفضي إلى سطح الطابق الأول يبلغ عدد درجاته ١٠٢ درجة ويدور حول دعامة مركزية مربعة صماء طول ضلعها ١,٢٠ م غير مزودة بالغرفة التي تقع إلى يسار المدخل في مئذنة جامع تلمسان، ولكن الجدار في هذا الموضع مبني بالأسمنت الحديث يشير إلى احتمال وجودها في عصر الإنشاء ودثورها بعد ذلك. (شكل ١٣).

ويسقف الدرج قبو نصف أسطوانتي ينحصر بين قبوين متقاطعين في الزوايا على غرار قبوات الدرج في مئذنة جامع قلعة بني حماد وتتخلل الجدران الداخلية

^(١) MARCAIS (G), L'ARCHIT. MUSUL. D'OCCI. P.192..

^(٢) LES MOSQUEES EN ALGERIE P.21.

للمئذنة فتحات كلها على شكل مزاغل.

ودرج السلم مقام من الأجر والخشب، ويبلغ طول كل درجة من درجاته ٨٢ سم، ومن الجدير بالذكر أن نظام توزيع الدرجات يتغير بأعلى الدرج في الدورة الأخيرة حيث تنقسم الدعامة المركزية إلى قسمين تخترقها عشر درجات تؤدي إلى جوسق المئذنة، وقبل هذا التشعب تظهر غرفة مستطيلة الشكل على اليسار كما هو الحال في مئذنة جامع تلمسان، وعندما يصل الراقى إلى آخر درجة في الدورة الأخيرة يجد درجات أخرى تفضي إلى غرفة المؤذن وهي غرفة مربعة الشكل تعلوها قبة يوجد في أعلاها سفود بارز.

ويتميز جدار شرفة المئذنة الواقعة بين الطابقين بخلوها من الشرافات، وقد استخدمت في بناء المئذنة نفس مواد البناء التي استخدمت في المآذن السابقة لها، ومن الواضح أن هذه المئذنة تتشابه كثيرا سواء من حيث الشكل العام أو من حيث التفاصيل الداخلية والخارجية مع مئذنة جامع تلمسان.

٤- مئذنة جامع سيدي أبي الحسن:

بني جامع سيدي أبي الحسن في ٦٩٦هـ/١٢٩٦م في فترة حكم الأمير أبي سعيد عثمان الذي شيده تخليدا لذكرى الأمير أبي أمير إبراهيم بن يغمراسن ويؤكد ذلك نقشان كتابيان مثبتان أحدهما في الجدار الغربي من بيت الصلاة، والآخر بطرة عقد المحراب، وأبو الحسن الذي سمي به الجامع (هو أبو الحسن بن يخلق التنسي) أحد العلماء الذين عاشوا في فترة حكم أبي سعيد عثمان.

وتحول الجامع في فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر إلى مخزن للخمور، ثم مخزن للعلف، ثم تحول إلى مدرسة عربية فرنسية وأخيرا تحول إلى متحف وهي الوظيفة التي يشغلها حاليا. ^(١)

(١) أبو الحسن بن يخلق التنسي فقيه مشهور أصله من مدينة التنس، استوطن تلمسان أول حكم أبي سعيد عثمان ورث من المكاة الرفيعة التي احتلها أخوه أبو إسحاق إبراهيم الذائع الصيت في بلاط بني زيان ودرس في الجامع الذي يحمل اسمه الآن.

وتخطيط الجامع على شكل مربع صغير المساحة لاصحن له يتألف من ثلاث بلاطات عمودية على جدار القبلة، الوسطى أكثر اتساعا من البلاطتين الجانبيتين، ويتوسط المحراب الجدار القبلي، وجوفته مضلعة وهو محراب بلغ الغاية في الروعة والجمال يذكرنا بمحراب جامع تلمسان ومحراب جامع قرطبة، ويسجل هذا المحراب عودة إلى المحاريب المرابطية وهو مؤشر لاستمرار التأثيرات الفنية الأندلسية على عمارة وفنون بني زيان.

وينفتح في جدار القبلة باب يؤدي مباشرة إلى سلم المئذنة الملتصقة بالجدار الخارجي للمسجد في الزاوية الجنوبية الشرقية منه (شكل ١٥).

ولا تختلف واجهات المئذنة المقابلة للشارع كثيرا في نظامها وفي شكلها العام عن مئذنة المسجد الجامع بتلمسان اللهم إلا في بعض التفاصيل الزخرفية للجوسق العلوي.

والمئذنة مربعة الشكل وتتألف من طابقين الأول منهما تزدان واجهاته بنفس الزخارف التي تزدان بها واجهات المآذن السابقة، وتنقسم زخارف الطابق الأول في كل من أوجهه الأربعة إلى ثلاث قطاعات متراكبة، القطاع الأدنى منها تشغله حشوة يتوسطها عقد متعدد الفصوص غائر رأسه مدببة تحيط به طرة مستطيلة الشكل، ويعلو الحشوة بين القطاعين الأدنى والأوسط فتحتان ضيقتان للإضاءة والتهوية، والقطاع الأوسط وهو أكثر من الأدنى ارتفاعا وتكسوه شبكة من المعينات تنبثق من ثلاثة عقود مقرنصة مدببة الرؤوس قائمة على عمودين تاجاهما كورنثيان، وتتداخل بشبكة المعينات قطع من الفسيفساء خضراء اللون، ويفصل بين هذا القطاع الأوسط والقطاع العلوي إفريز بارز يدور حول أوجه المئذنة الأربعة يزدان بقطع من الفسيفساء يتناوب فيها اللون الأبيض والأخضر ويعلو هذا الإفريز القطاع العلوي الذي تشغله بائكة من ثلاثة عقود مفصصة قائمة على عمودين، وتكسو بواطن

= عن بورويبة (رشيد): الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، ترجمة إبراهيم شيبوح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٧٧.

العقود وبنيفاتها قطع من الفسيفساء متعددة الالوان فيها الأخضر والأبيض والأسفر والأسود (صورة ٩).

أما الطابق الثاني للمئذنة ويمثله الجوسق العلوي فتتوسطه جوفة مستطيلة الشكل يعلوها عقد مفصص محمول على كابولين جانبيين ويطوق العقد تربية مطولة تكسوها زخارف رائعة من الفسيفساء الخزفية ذات قطع هندسية مربعة ومستطيلة، ونجمية الشكل بالوان منها الأخضر والأبيض والأسود والأسفر (صورة ١٠) وينطبق هذا الوصف على الواجهات الأربعة للمئذنة، ويعلو ذلك الطابق قببية ينبثق من مركزها سفود بارز ركبت فيه تفاحتان وهلال مقوس يتجه طرفاه إلى السماء.

ويتبين مما سبق أن هذه المئذنة ترتبط كثيرا بمئذنة المسجد الجامع بتلمسان. وتظهر زخارف القطع الفسيفسائية التي تتناوب فيها الألوان بسيطة في تكوينها وأصبحت قاسما مشتركا بين المآذن الزياتية بحيث يمكننا اعتبارها إحدى الخصائص المميزة للمآذن الزياتية^(١).

وينفذ الراقى إلى أعلى المئذنة عبر باب من الخشب يؤدي إلى دعامة مركزية مربعة الشكل صماء طول ضلعها ١,٣٥م وعلى يسار الدعامة غرفة فارغة، وعلى يمينها سلم عدد درجاته ٤٣ درجة يلتف حول الدعامة المركزية صاعدا نحو قمة المئذنة (شكل ١٦).

ويبلغ سعة باب المئذنة ٨٠سم وسمك جدارها ٨٥سم أما طول ضلع القاعدة المربعة للطابق الأول منها فيبلغ ٤,٣٥م. وتتخلل جدران المئذنة منافذ للإضاءة والتهوية، وفي كل طلعة محاذية لجانب من الجوانب الأربعة ثلاث درجات. ويسقف الدرج قبوة نصف أسطوانية تنحصر بين قبوتين متعارضتين في كل طلعة حتى نهاية الطابق الأول من المئذنة، وفي آخر طلعة إلى أعلى المئذنة نشهد غرفة صغيرة على يمين الراقى كما هو الحال في مئذنة جامع تلمسان.

^(١) MARCAIS (G.ET.W); LES MONUMENTS ARABESP. 183.

وينتهي الدرج عند شرفة المئذنة عبر باب صغير ليقوم الطابق الثاني (الجوسق) الذي يتراجع قليلا عن الطابق الأول للمئذنة ليتيح للمؤذن التحرك بسهولة حول الجوسق.

ويتوج شرفة المئذنة شرافات مسننة كما هو الحال في مئذنة المسجد الجامع بتلمسان، ويبلغ ارتفاع الشرفة ١٠,٧٠م، أما الارتفاع الكلي للمئذنة فيصل إلى ١٤,٢٥م (شكل ١٧)، ولهذا فهي من المآذن القصيرة ولكنها تتناسب مع تخطيط المسجد وصغر مساحته.

ونلاحظ في هذه المئذنة غياب المزاول التي حلت محلها فتحات أو منافذ مستطيلة الشكل كما تظهر من الخارج. وكل ما يمكن قوله عن هذه المئذنة أنها لا تختلف كثيرا عن مئذنة جامع تلمسان.

كما أنه طبقت نفس المادة البنائية وطريقة البناء المستخدمة فيها.

٥- مئذنة جامع المشور:

المشور اسم يطلق على مقر إقامة السلطان الزياني بغمراسن بن زيان وما زالت آثاره قائمة إلى الآن وهو يشغل مساحة كبيرة يحيط بها ترتكز عليه أبراج ويشتمل بداخله على قصر السلطان وبعض الدور والملحقات، والمسجد الجامع الذي شهد تغييرات كثيرة على مر العصور، بعضها في العصر التركي والبعض الآخر في فترة الاستعمار الفرنسي حين تحول إلى كنيسة، ثم استرجع مكانته ووظيفته الإسلامية بعد الاستقلال، ولكنه أصبح مهجورا، ولم يبق من عناصره الزيانية سوى مئذنته^(١) وقاعدة المئذنة مربعة الشكل تتألف من طابقين، وتبدو جدران الطابق الأول من الخارج منتظمة قائمة دون أي ميل من القاعدة إلى نهايته وتزدان أوجهه الأربعة بنفس الزخارف وقد اقتصرنا في دراستنا على وصف الواجهة الجنوبية فقط التي تكتمل فيها الزخارف، وتتألف من ثلاث حشوات متراكبة السفلى منها تشبه حشوة نظيرتها في مئذنة مسجد تلمسان وأبي الحسن، وهي حشوة غائرة تزينها أشكال

^(١) MARCAIS (GET W); LES MONUMENTSP.314.

هندسية قوامها عقود تكسوها قطع من الفسيفساء الخزفية تؤلف أشكالاً متعامدة ومستطيلة ومربعة يحيط بها شريط من الكتابة بالخط النسخي من الصعب قراءته لتآكله وتهاوى قطع منه مع مرور الزمن. ويفصل هذه الحشوة عن الحشوة الثانية ثلاثة أشرطة متتالية من الزليج، وأما الحشوة الثانية فغائرة بعض الشيء وقوام زخارفها عقد مفصص يشبه نظيره. في المئذنتين سالفتي الذكر (تلمسان وأبي الحسن)، وهذا العقد متعدد الفصوص تزدان بواطن فصوصه بقطع رائعة من الفسيفساء الخزفية ذات أشكال هندسية متباينة الألوان، منها خطوط متعرجة سوداء وصفراء على أرضية بيضاء، وأما القطع الخزفية الأخرى فتتلاصق فيما بينها مؤلفة مربعات ومستطيلات ونجوماً زرقاء وخضراء وسوداء وبيضاء.

ويحيط بالحشوة إطار من الآجر يطوقه شريط آخر عريض من قطع الفسيفساء الكبيرة نسقت بحيث تكون ما يشبه المعينات المترابكة بألوان منها الأخضر الفاتح، والأسود، والأزرق، والبني على أرضية بيضاء.

ويعلو هذه الحشوة إفريز بارز يدور بأوجه المئذنة يتألف من قطع مربعة من الزليج بيضاء وسوداء وخضراء، ويعلو هذا الإفريز حشوة كبيرة مربعة الشكل غائرة قوام زخارفها بانيكتان تعلو الواحدة منهما الأخرى (صورة ١١) تزدان بواطن عقودها بمعينات من الفسيفساء الخزفية ذات اللون الأسود والأبيض والأخضر ويعلو الحشوة فراغ عاطل من الزخرفة يليه الشرفات المسننة.

وأما الطابق الثاني فيمثله الجوسق الذي تعلوه القبة التي لم يتبق منها إلا آثارها ثم السفود البارز الذي يخلو من التفاحات (صورة ١٢) وهذه الواجهة هي الوحيدة التي تحتفظ بحشواتها الثلاثة وبزخارفها وهذه المئذنة تشبه في بعض حشواتها مئذنة جامع أولاد الإمام التي من الممكن أن تكون قد استلهمت منها هذه الزخارف^(١).

يبلغ طول كل جانب من قاعدة المئذنة ٤,٩٥ متراً، ويؤدي مدخل المئذنة إلى

(١) MARCAIS (G.ET.W); LES MONUMENTS ARABESP. 183.

دعامة مركزية مربعة الشكل طول ضلعها ٢,٠٥م يدور حولها سلم يبلغ عدد درجاته ٨٨ درجة، وعلى يسار المدخل غرفة مستطيلة الشكل تشبه نظيرتها في منذنة جامع قلعة بني حماد، وعلى يمين المدخل ردهة صغيرة على يمينها باب يدخل منه إلى المسجد وعلى اليسار درج يدور حول دعامة مركزية صماء (شكل ١٨).

ويتكون السلم من ست درجات في كل طلعة بأحد جوانب المنذنة ماعدا الأولى التي تبلغ عدد درجاتها ثمان وهي مستخدمة. ويسقف السلم قبوات نصف أسطوانية تنحصر بين قبوتين متقاطعتين، ومن الجدير بالملاحظة قلة عدد الفتحات أو المنافذ المفتوحة بجدران المنذنة فهي لا تعدو أربعة مزاغل، ويبلغ طول كل درجة من درجات السلم ٩٠سم وهي شبيهة بدرجات منذنة جامع قلعة بني حماد من حيث بنائها بأجر ممزوج بالخشب.

وعند الاقتراب من قمة المنذنة يتغير النظام ويصبح كمنذنتي المسجد الجامع بتلمسان ومسجد أبي الحسن بحيث تنقسم الدعامة المركزية إلى قسمين يخرقها السلم فتصبح عشر درجات، وعلى يسار هذه الدرجات غرفة مستطيلة صغيرة، وتفضي آخر درجة بالسلم الداخلي مباشرة إلى غرفة الجوسق وهي مربعة تعلوها قبة، ويتوج القبة سفود بارز، وينفتح في الجوسق باب يطل على الشرفة، ويتوج بدن المنذنة شرافات مستننة ويقدر الارتفاع الكلي للمنذنة بما في ذلك الجوسق ٢٥م (شكل ١٩).

أما من حيث مواد البناء فهي لا تختلف عن المآذن سالفة الذكر باستثناء ثرائها الزخرفي، فهي المنذنة الزيانية الوحيدة التي تحتفظ بهذه الزخارف، والتي سنتعرض إليها بشيء من التفصيل في الفصل الذي أفردناه لدراسة زخارف المآذن في المغرب الأوسط.

٦- مآذن زيانية أخرى:

بالإضافة إلى ما ذكرناه هناك مآذن أخرى زيانية الأصل ولكنها فقدت قيمتها الأثرية بسبب دثور الكثير من عناصرها الأصلية منها على سبيل المثال منذنة

المسجد الجامع بالجزائر العاصمة الذي يرجع إنشاؤه إلى عصر المرابطين والذي أقيمت له منذنة زياتية في ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م بأمر من أبي تاشفين سلطان تلمسان كما يشير إلى ذلك نقش كتابي تتضمنه لوحة مثبتة على مدخل المنذنة، ولكن المنذنة تعرضت لتغييرات كثيرة أفقدتها قيمتها الأثرية^(١). ويبلغ ارتفاع المنذنة ١٥م وتزدان بأعلى الشرفة بأربع وعشرين شرافة، ويذكر (كلان) أنها أضيفت إليها في سنة ١٨٥٦م القطع الخزفية الزرقاء اللون التي تزينها اليوم^(٢). (صورة ١٣).

أما المنذنة الأخرى فهي منذنة جامع أغادير الذي يرجع تاريخ بنائه إلى عصر الأدارسة، فقد بناه إدريس بن عبد الله بن الحسن في أغادير، وما زالت أغادير تحتفظ بهذا الاسم، ولقد تهدم جامع الأدارسة، ولم يبق منه اليوم إلا بقايا بعض الأعمدة وبيت الصلاة بالإضافة إلى المحراب. أما المنذنة (صورة ١٤) فما تزال إلى اليوم، وتقع في موضع استراتيجي هام للراقي إلى قمته رؤية كل ما في المدينة مما يدل على أن هذه المنذنة استعملت برجاً للمراقبة في الأوقات المضطربة^(٣). والمنذنة مربعة القاعدة طول كل جانب منها ٥,٦٠م ارتفاعها حوالي ٣٠م، وهي لا تختلف في مضمونها عن مآذن المسجد الجامع بتلمسان وجامع سيدي أبي مدين وسيدي الحلوى كما سنرى فيما بعد من حيث وقوعها في الجانب الشمالي من الجامع، أما بدنها فيزدان بشبكة من زخارف الآجر تعلوه عقدين متعددي الفصوص، ويتخلل هذا البدن نوافذ ضيقة لإضاءة السلم الداخلي^(٤).

والجامع الآخر الذي يدخل في نطاق مساجد بني زيان هو جامع سيدي إبراهيم الذي بناه أبو حمو موسى الثاني وكان يضم ضريحاً وزاوية ومدرسة، وكان يطلق عليه قديماً اسم المدرسة اليعقوبية، ولكن اسم المسجد والضريح فقد نسب إلى رجل

(١) MARCAIS (G); L'ARCHIT. MUSUL. D'OCCI. P.273.

(٢) KLEIN(H); FEUILLETS D'EL DJEZAIR. L. CHAIX. EDITEUR, ALGER 1937, P.152..

(٣) BEL (A); "FOUILLES FAITES SUR L'EMPLACEMENT D'AGHADIR, L'ANCIENNE MOSQUEE', TLEMCEN. IN. REV-AFR 1913,P. 34.

(٤) MARCAIS (G ET. W), LES MONUMENTS P. 138.

صالح يدعي سيدي إبراهيم المصمودي^(١). وتقع المنذنة (صورة ١٥) في الركن الشمالي الغربي من بيت الصلاة وتبرز عن سمك جدار المسجد في الجهة الغربية، وهي منذنة متوسطة الارتفاع تزدهان واجهاتها الأربعة بحشوة تشغلها شبكة من المعينات تنبثق من ثلاثة عقود، وتكسو البائكة العليا في بدنها قطع براقعة من الخزف، وتنتهي الشرفة بشرفات مسننة، أما الجوسق فيخلو من أية زخارف.^(٢)

وآخر المآذن الزيانية الأصل منذنة جامع أولاد الإمام الذي بناه السلطان أبو حمو الأول كملحق للمدرسة القديمة التي كان يدرس فيها أخوان هما إبننا إمام مدينة (برقش) بالقرب من تنس، ولقد إمتاز الأخوان بعلمهما إلي أن أصبحا كاتبين لسلطين بني زيان، وحظيا بمحبة السلطان أبي حمو الأول ورعايته، ومن هنا أطلق اسم أولاد الإمام على الجامع الملحق بالمدرسة^(٣)، ويبلغ ارتفاع المنذنة (صورة ١٦) حوالي ١٧م وتزدهان أوجهها الأربعة بزخارف متماثلة وتقترب إلي حد ما من منذنة جامع سيدي أبي الحسن ومنذنة جامع المشور بحيث تتكون من حشوتين غائرتين تعلو الواحدة الأخرى يحيط بها شريط من القطع الخزفية الخضراء والبيضاء والبنية اللون.^(٤)

ويتبين من هذه النظرة العامة على مآذن بني زيان أنها تمتاز جميعا بوحدة في جوهر البناء أي في النظام الداخلي لها مع بعض الاختلافات البسيطة كفتحات الإضاءة أو اختلاف في المقاييس والنسب وفقا لكبر مساحة الجامع أو صغرها، أما من حيث الطابع العام الخارجي، فعلى الرغم من تشابهها فيما بينها في طريقة وضع الزخارف إلا أنها تختلف فيما بينها في التفاصيل كما هو الحال في منذنة جامع سيدي أبي الحسن ومنذنة جامع المشور ومنذنة جامع أولاد الإمام، وقد عرف هذا العصر استعمال القطع الخزفية متعددة الألوان في واجهات المآذن كما في جوسقها، وكان

^(١) BOUROUBA @; L'ART RELIGP. 17.

^(٢) MARCAIS (G ET W); LES MONUMENTS P.306.

^(٣) IBID, P. 185.

^(٤) BERQUE (A); L'ALGERIE TERRE D'ARTP.181.

لهذه الظاهرة صدي كبيراً في مآذن بني مرين في الفصل اللاحق والتي بلغت ذروتها وتقدمها ويتمثل ذلك في مئذنة جامع سيدي أبي مدين التي تأثرت تأثراً واضحاً بمآذن بني زيان.

أما مئذنة جامع المنصورة فهي غربية في عمارتها ووحيدة في هيئتها بين مآذن المغرب الأوسط، هذا ويمكن الاستدلال في النهاية على أن بني زيان لم يبتكروا أسلوباً جديداً في بناء المآذن وأن المئذنة في عصرهم لم تتخذ الأسلوب الذي ساد في عهد الموحدين التي تتميز مآذنهم بأشتمالها على دعامة مركزية مفرغة بداخلها غرف متراكبة ومنحدر صاعد، غير أن الزيانيين تفادوا هذا النظام وأقاموا مآذنهم على غرار مئذنة جامع قلعة بني حماد التي أعطت الصورة الحقيقية لمآذن المغرب الأوسط والمكونة من دعامة مركزية صماء يدور حولها سلم صاعد إلى الجوسق، وماعداً هذه الظاهرة فيمكن القول أن الزيانيين استوحوا تقاليد الموحدين الفنية وأضافوا إليها بعض الأساليب الزخرفية الجديدة، وبهذا تكون مآذن بني زيان قد جمعت بين تأثير معماري حمادي وتأثير فني موحدي.

الفصل الثالث

المئذنة في عهد بني مرين

تمهيد

- (١) الطابع العام للمئذنة في عهد بني مرين.
- (٢) مئذنة جامع المنصورة بتلمسان.
- (٣) مئذنة جامع سيدي أبي مدين.

تمهيد:

بعد سقوط دولة الموحدين قامت في المغرب الإسلامي ثلاث دويلات: الحفصية في تونس، والزيانية في الجزائر (تلمسان) والمرينية في المغرب (فاس)، ومنذ ذلك الحين بدأ المرينيون يشنون الغارات علي أراضي الدولة الزيانية لاسيما علي تلمسان.

ويروي عبد الرحمن بن خلدون أن أبا يعقوب أغتتم فرصة خروج السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن من عاصمته تلمسان لتأديب بعض القبائل التي ساعدت المرينين في حصارهم السابق لتلمسان فأغار للمرة الخامسة عليها^(١). وبهذه المناسبة تجدر الإشارة إلي أنه سبقت هذا العدوان اعتداءات أخري لبني مرين وغارات انتهت بالفشل إلا أن هذه المحاولة وضعت حدا للصمود الزياني، فقد تمكنت القوات المرينية من الوصول إلي تلمسان في شعبان في سنة ٦٩٨ هـ / مايو ١٢٩٩م وانتهى الأمر باستيلائهم عليها^(٢).

ولا نشك في أن هذه المحاولات اقترنت ببعض الإنشاءات والعمائر يذكر صاحب كتاب روض القرطاس أن السلطان أبا يعقوب بمجرد استيلائه علي تلمسان شرع في بناء قصره، ثم مسجد جامع، وأمر الناس بالبناء فانتشر البنيان يمينا وشمالا، ثم أنه أقام سورا يحيط بالجامع كما أمر بتسوير تلمسان الجديدة (المنصورة)^(٣).

ولعل ما أقامه المرينيون من منشآت يعتبر بحق إنجازا كبيرا وآية من آيات فن العمارة الإسلامية المغربية، وللأسف فقدت مدينة المنصورة حاضرة المرينين المؤقتة في المغرب الأوسط كثيرا من معالمها الأثرية، وكانت بمثابة القاعدة العسكرية لجيوش أبي يعقوب. عاشت فترة رقي وازدهار دامت ثماني سنوات نافست خلالها الحواضر المغربية.

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن): العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨، ص ١٩٥.

(٢) نفسه، ص ١٩٥.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، نورنبرج ١٨٤٣، ص ٣٦٧.

ومن الجدير بالذكر أن إنشاء مدينة المنصورة لم يتم عفوا أو من قبيل الصدفة، أو كان ثمرة ارتقاء حضاري مفاجيء وإنما تحكمت فيه عوامل هامة نذكر منها: حصار المرينيين الطويل بعد أربع حملات باءت جميعها بالفشل مما أدى بهم إلى فرض حصار طويل دام ثماني سنوات منعها من كل تمويل خارجي وذلك ببناء معسكر يضم الجيوش المرينية، وساعد على بناء المدينة المناخ القاري للمنطقة مما دعا القوات الغازية إلى إنشاء هذه المدينة وتعميرها، يضاف إلى ذلك الموقع الجغرافي الهام الذي تنعم به المنصورة وقربه من فاس عاصمة المرينيين ليؤمن خط الرجعة، زد على ذلك موقع تلمسان الاستراتيجي وسط شبكة من الطرق التجارية العظمى التي أتاحت لها الفرصة أن تشهد حركة اقتصادية نشطة، كل ذلك شجع سلاطين بني مرين على إنشائها.

ولقد تبقى من آثار بني مرين في المنصورة بقايا مسجدهم الجامع بمنذنته الشامخة الصامدة إلى الآن والفريدة من نوعها بين مآذن المغرب الأوسط. ومعلوم أن المسجد الجامع قطب الفن الإسلامي ومحور ارتكازه، فيه تركزت عبقرية الفنان المسلم وإبداعه، وفيه تمثلت براعته وملكاته، ولهذا فإن مآذن بني مرين في المغرب الأوسط تعبر بروائعها عن مرحلة فنية متقدمة شهدها الفن الجزائري في العصر الإسلامي.

١ - الطابع العام للمنذنة في عهد بني مرين:

شهدت المنذنة في عصر بني مرين تطورا مذهلا في جميع عناصرها المعمارية، سواء من حيث الطابع العام أو النظام الداخلي كما تمثله منذنة جامع المنصورة، فالمنذنة المرينية ممثلة في جامعي سيدي أبي مدين وسيدي الحلوي تميزت بطرز تقليدي، فهاتان المنذنتان من حيث البناء المعماري والزخرفي تذكرنا بمآذن بني زيان فكلتاهاما تنتصب في الزاوية الغربية من الجامع، كما أن منذنة جامع سيدي الحلوي تبرز عن جدار المسجد^(١).

(١) BOUROUBA (A); L'ART RELIG ...P.272.

ومن حيث النظام الداخلي تتكون كلتاهما من دعامة مركزية مربعة صماء يدور حولها سلم صاعد إلى أعلى المئذنة، وتزدان واجهات المئذنة بحشوات تتخللها تشبيكات زخرفية بالآجر بارزة بالإضافة إلى بعض الزخارف الزهرية على أرضية من الفسيفساء الخزفية التي تحلي أعلى المئذنة والجوسق^(١).

أما مئذنة جامع المنصورة فمربعة الشكل القائمة إلى الآن بلونها الآجري الأحمر والتي ضاع جزء من قمته تختلف تمام الاختلاف عن سابقتها^(٢) فهي المئذنة الوحيدة في الجزائر التي تحتوي على دعامة مركزية جوفاء، يرتقي الراقون إلى أعلاها عن طريق ممر صاعد منحدر يدور حولها، ويشغل الدعامة غرف متراكبة مربعة الشكل طول كل جانب منها ٢،٤٨م وسمك الجدار ١،٠٦م، ويتمثل أقدم أمثلة الممرات الصاعدة في العمارة المغربية في منار سوسة، غير أن مئذنة جامع المنصورة جاءت تقليدا للنظام الداخلي لمآذن الموحدين الثلاثة بجامع الكتبية وجامع حسان بالرباط وجامع اشبيلية. ويسقف الطريق الصاعد قبوات نصف أسطوانية ومتقاطعة^(٣).

يضيء السلم من الداخل فتحات عريضة على الواجهات الأربع وفي نهاية الدورة السابعة والأخيرة توجد مساحة واسعة عبارة عن قاعة ذات جدران منحوتة على شكل بوائك تتألف من عشرين عقدا تتماثل مع البوائك الصماء التي تزين واجهات المئذنة من الخارج، ويربط بين هذا الطابق والسطح درج يرتفع وسط الدعامة المركزية التي تحمل الجوسق كما هو الحال في مئذنة جامع الكتبية بمراكش^(٤).

وتقوم المئذنة بأعلى الباب الرئيسي للمسجد وهي في ذلك تنفرد بهذا الموقع

(١) LES MOSQUEES EN ALGERIE ...P.37.

(2) L'ALGERIE AUX CENT VISAGES. ARTS ET METIERS GRAPHIQUES, PARIS 1955, P. 48.

(3) BOUROUBA @; ARRORTS DE L'ALGERIE A L'ACHITECTURE RELIGIEUSE ARABO. ISLAMIQUE OPU ALGER 1986, P. 285.

(4) MARCAIS (G); L'ARCHI MUSUL D'OCCI, P. 275.

بين مآذن المساجد المرينية، ويتميز القسم العلوي من واجهاتها بأنه أقيم بنفس نظام مآذن جامع قرطبة وجامع اشبيلية وجامع الكتبية بمراكش، وكذلك معظم مآذن المغرب الإسلامي^(١).

وتزدان واجهات المئذنة بحشوات ذات تشبيكات من الآجر تحلي أرضيتها قطع من الفسيفساء الخزفية البراقة، وقد وفق البناءون في اتخاذ اللون البني للأحجار التي أقيمت منها المئذنة حلية زخرفية تتناسق مع الترصيعات الخزفية الخضراء والبيضاء والبنفسجية، مع تنوع العناصر الزخرفية التي جعلت من هذه المئذنة أجمل المآذن الجزائرية من حيث الزخرفة ومتانة البناء وصلابته، ولعل طريقة توزيع زخارفها على الواجهات تذكرنا بتوزيعات الشبكات الزخرفية بمئذنة الخيرالدا بإشبيلية^(٢).

٢ - مئذنة جامع المنصورة بتلمسان:

تتميز مئذنة جامع المنصورة بتلمسان بخاصية فريدة من نوعها بين المآذن المغربية إذ تنتصب فوق المدخل الرئيسي للجامع بحيث يصبح المدخل نفسه جزءا منها ويجدر بنا لذلك السبب أن نبدأ بوصف الجامع قبل الخوض في دراستنا للمئذنة. يقع الجامع على هضبة صلبة من الصخور الكلسية غير بعيد عن السور بحيث لا يبعد عن الباب الغربي لهذا السور إلا ببضعة مئات من الأمتار^(٣) وموقعه في هذا الموضع بعيد عن الجهة الشرقية لم يتم بمحض الصدفة وإنما كان مقصودا إذ أنه لو وقع بالقرب من الأسوار الشرقية أو الجنوبية فإنه يكون معرضا لخطر العدوان الزياتي عليه، وقد تصيب جدرانها ببعض قذائف المناجيق. وقد أحيط هذا الجامع بسور خارجي لأهميته بخلاف السور الخارجي المحيط بالمدينة، ولكن لم يبق منه اليوم سوى الجدران الخارجية من العمارة الداخلية للجامع، فلقد ترتب على الحفريات

(١) MARCAIS (G ET W); LES MONUMENTS ... P. 220.

(٢) BERQUE (A); L'ALGERIE TERRE D'ART ...P. 189.

(٣) IBID, P. 185.

التي أجريت في موقع الجامع قبل سنة ١٨٥٩م^(١)، ثم الحفريات التي أجراها (الكسندر ليزين) سنة ١٩٦٤م الكشف عن الجامع. يتوسط الجامع صحن مربع الشكل طول ضلعه ٣٠م^(٢) تحيط به المجنبات من الجوانب الثلاثة الشرقية والغربية والشمالية بالإضافة إلى رواق القبلة الذي يتكون من ثلاث عشرة بلاطة تتقدمها ثلاثة أساكيب مستعرضة تترك مساحة مربعة أمام المحراب، ويرى الأستاذ (جورج مارسيه) أنها كانت تشكل قاعدة لحمل القبة التي تتقدم المحراب أو ربما لسقف هرمي الشكل يرتكز على جدران القبلة، ويضاف إلى هذه الأساكيب العريضة ثمان دعائم متقاطعة الشكل ربما كانت مخصصة للمقصورة التي كانت تشغل هذه المساحة^(٣).

ويرجع عالم الآثار الجزائري الأستاذ رشيد بورويبة السقف الهرمي بدلا من القبة استنادا إلى حقائق منها أن طول كل جانب من جوانب القاعدة المربع ١٤م تشكل فراغا كبير المساحة لا يمكن أن تعلوه قبة لكبره^(٤).

وتنقسم الثلاث عشرة بلاطة إلى ستة أساكيب محددة بخمسة صفوف من الأعمدة كما يلاحظ أن البلاطة الوسطي أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى.

ويعلو واجهة المدخل شريط من الكتابة التأسيسية نطالع فيه العبارة الآتية: "الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، أمر ببناء هذا الجامع المبارك أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين المقدس المرحوم أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق رحمه الله"

والمأمل لهذا النقش التأسيسي يستنتج لأول وهلة أن الجامع لم يكتمل بناؤه في عهد أبي يعقوب نتيجة لورود لفظ المرحوم، وهذا يدل على أن السلطان وافته المنية

(^١) BROSELARD (M.C) ; 'LES INSCRIPTIONS ARABES DE TLEMCEN MANSOURA. In. REV-AFR 3^e ANNEE, N^o 17, JUIN 1859, P.334.

(^٢) MARCAIS(G); L'ARCHIT. MUSUL. D'OCCI...P. 274.

(^٣) IBID, P.274.

(^٤) BOUROUBA®; L'ART RELIGP. 377.

قبل الفراغ النهائي من تأسيس الجامع والمئذنة علي وجه الخصوص، وهذا استدلال قريب من المنطق خاصة إذا علمنا أن رغبته في بناء مسجد جامع عظيم كجامع المنصورة لينافس به المسجد الجامع بتلمسان الذي كثيرا ما تفاخر به سلاطين بني زيان، يجعلنا نستبعد بناء جامع المنصورة الضخم في سنتين أو ثلاث، وما يؤكد هذا الاستدلال ابن مرزوق التلمساني في سياق حديثه الذي يقارن فيه بين جامع أبي يعقوب وجامعي قرطبة وجامع المنصور بمراكش: " لو أن جامع المنصورة أكمل بناؤه وزخرفته لما قل عظمة وروعة عن الجامعين المذكورين "(١).

هذا الرأي يخالف رأي علماء الآثار الإسلامية أمثال (بارك) الذي اعتبر سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م تاريخ الفراغ من تأسيس الجامع^(٢)، ولنا أن نتساءل عن السبب في ورود لفظ المرحوم في النقش الكتابي التأسيسي علي الرغم من أن المصادر تشير إلي أن المئذنة تم بناؤها في عهد أبي يعقوب، وعما إذا كانت قد هدمت في جملة ما هدم من منشآت المدينة في أعقاب انسحاب المرينيين عنها، ثم أعاد السلطان أبو الحسن ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م بناءها ثانية. ونعتقد أن النواة الأساسية لبناء الجامع والمئذنة تمت علي يدي السلطان المريني أبي يعقوب ثم تولى أبو الحسن ترميم ما تهدم منهما وقت حصاره لتلمسان واستكمل البناء وزخرفته وقد نفذ النقش الكتابي في فترة حكم السلطان أبي الحسن عند حصاره لتلمسان، ونسب هذا العمل إلي جده اعترافا بفضل السبق في تأسيسه للجامع والمئذنة وعلي هذا النحو حظي هذا الجامع بتأسيس أبي يعقوب وترميمات أبي الحسن لها وهي من عمارته، وهو لذلك يعد آية من آيات فن العمارة الإسلامية في المغرب الإسلامي حتى أن ابن مرزوق وصفه بقوله: " وأما الجامع الكبير فقد اتفق الرحالون وأجمع المتجولون علي أنهم لم يروا له ثانية"(٣).

(١) ابن مرزوق (محمد التلمساني): المسند الصحيح في مآثر المولي أبي الحسن، تصحيح الأستاذ ليفي بروفنسال، اميل لاروز، باريس ١٩٢٥، ص ١٧.

(٢) BERQUE (A); L'ALGERIE TERRE D'ART....P. 185.

(٣) ابن مرزوق: المسند، ص ١٧.

وأما عن مئذنة الجامع فهي أعلى مئذنة في الجزائر وثالث مئذنة في المغرب الإسلامي بعد كل من مئذنتي جامع حسان بالرباط، وتتكون المئذنة من قاعدة مربعة طول كل جانب منها عشرة أمتار، وتنتصب في منتصف الجدار الشمالي للجامع على نفس محور المحراب (شكل ٢٠) وتبرز كلها عن مستوي هذا الجدار (صورة ١٧).

ويتم الدخول إلى المئذنة عن طريق باب يعلوه عقد متجاوز لنصف الدائرة يرتكز على عمودين من الرخام تاجاهما مركبان (صورة ١٨) وتنقسم واجهة المئذنة إلى خمس حشوات متراكبة ويعلو هذا العقد عقد بارز متعدد الفصوص تتناوب فيه فصوص كبيرة وأخرى صغيرة، يرتكز بدوره على عضادتين ويطوقه زخرفة هندسية قوامها أقواس متقاطعة تتخللها دوائر مفرغة كل فص منه يشتمل على ثلاثة فصوص صغيرة مرصعة بقطع من الفسيفساء الخزفية السوداء اللون ذات أشكال بيضية، ويحيط بالعقد تربية تمتد إلى المستوي الأدنى للعضادات ويشغل البنيقتان وخواصر العقد زخارف نباتية محفورة في الحجر متداخلة فيما بينها قوامها مراوح نخيلية بسيطة وبراعم نباتية، وتبرز في كل من البنيقتين محارة بارزة ومفصصة تذكرنا بمحارات القلعة وربما تأثرت بها، ويدور بهذه الحشوة الزخرفية التي تعلو مدخل المئذنة شريط عريض من الكتابة النسخية على أرضية نباتية تنتهي حروفها بمراوح نباتية (صورة ١٩). أما الحشوة الثانية فتتألف من بائكة من سبعة عقود مقرنصة صغيرة وكبيرة على التناوب ترتكز على عمد صغيرة، وتبدو هذه البائكة بارزة عن سمت وجه المئذنة، ومن الجدير بالذكر أن هذه العقود المقرنصة ظهرت لأول مرة في زخارف المآذن الجزائرية، يلي هذه البائكة طاقتان واحدة في كل جانب ينحصر بينهما إفريز بارز يرتكز على البائكة البارزة على جانبيه كابولان وصل إلينا أحدهما. ويعتبر جورج مارسيه هذا النصف البارز من العقود والكابولين قاعدة لشرفة المئذنة^(١) (صورة ٢٠) بينما ينكر الأستاذ بورويبة ذلك ويرى أنه مجرد إفريز زخرفي تابع للحشوة الأولى ويستند في قوله هذا على وجود مثل هذا النوع من الزخرفة في جوامع مرينية أخرى معاصرة كمسجد سيدي أبي مدين

(١) MARCAIS (G ET W) LES MONUMENISP. 218.

وسيدي الحلوي بتلمسان والمدرسة البوعنانية وفندق القصر بسلا بالمغرب^(١)، وأميل إلى ترجيح هذا الرأي استنادًا إلى أن الفتحة التي تتوسط الحشوة الثالثة بأعلى الشرفة المزعومة لا تصل إلى مستوى البائكة البارزة مما يؤكد أنها مجرد نافذة لإدخال الضوء.

أما الحشوة الثالثة فتتألف من الفتحة المذكورة وهي فتحة مربعة الشكل معقودة بعقد مقرنص منكسر تحيط به تربيعة، ويطوق هذه المجموعة عقد بارز مقرنص منكسر كبير الحجم، وتنتهي الحشوة من أعلى بطاقتين مستطيلتي الشكل يعلو واحدة في كل جانب (صورة ٢٠) أما الحشوة الرابعة فتشكل أجمل وأروع ما تزدان به المئذنة وهي أكثر الحشوات ارتفاعا وتقسم إلى ثلاثة قطاعات رأسية، القطاعان الجانبيان منها متناظران، ولهذا نقتصر على وصف جانب واحد فقط.

يتكون من عقد متعدد الفصوص تتناوب فيه الفصوص المستديرة مع فصوص مدببة، يرتكز العقد على عمودين لا وجود لهما حاليا، ويعلو هذا العقد شبكة من المعينات، قوامها محور متقاطعة تتألف من فصوص مماثلة لفصوص العقد وكلها من الآجر رصعت بقطع الفسيفساء الخزفية (خضراء وخضراء فاتحة وسوداء اللون)، ويتوسط القطاعين المتناظرين قطاع أوسط يتألف من نافذتين متراكبتين مستطيلتي الشكل معقودتين بعقدين نصف دائريين تطوق كل منهما تربيعة، ويعلو هذا القطاع معينات تتصل بالشبكتين سالفتي الذكر. ويعلو هذه الحشوة الرابعة حشوة خامسة قوامها بائكة من خمسة عقود مفصصة ترتكز على ٦ أعمدة من الرخام الأبيض لم يتبق منها إلا أربعة، وفي وسط كل عقد فتحة مربعة الشكل صغيرة ماعدا الفتحة الوسطى فهي طاقة مستطيلة الشكل كبيرة الحجم، وينتهي هذا الطابق من المئذنة بمسطح عاطل من الزخرفة تليه قمة المئذنة التي لم يتبق منها أي أثر (صورة ٢١) ومن الجدير بالذكر أن جوف المئذنة وصل إلينا مهتما بما في ذلك الطريق الصاعد المؤدي إلى أعلى المئذنة، وكذلك بعض أجزاء من الواجهتين الجانبيتين اللتين أقيمتا متماثلتين، ولهذا سنكتفي بوصف أحدهما، تتكون الواجهة الجانبية من أربع حشوات

(١) BOUROUBA ®; L'ART RELIGP. 180.

تزدان الأولى بجوفتين موزعتين واحدة في كل جانب، الطاقة الشمالية غائرة، تفتح أسفلها طاقة مستطيلة الشكل وعقد أعلاها بعقد متعدد الفصوص ويعلو هذا العقد شبكة من المعينات المتشابكة، أما الطاقة الجنوبية في الحشوة الأولى فصماء وهذه الجوفة معقودة بعقد منكسر، ويتوسط الجوفتين علي مستوي أكثر ارتفاعا جوفة أخرى معقودة بعقد نصف دائري، ويعلو العقد إطار بقيت فيه بعض الزخارف الهندسية تمثل خطوطا وأشكال معينات وفصوص.

أما الحشوة الثانية في الواجهة الجانبية فتتألف من مربع غائر ينحصر بين إفريزين بارزين ينتهي أعلاه بدخلتين مربعتي الشكل وتزدان هذه الحشوة بعقد منكسر متدرج يضم عقدين مقرنصين.

ومن الجدير بالملاحظة أن جدار المئذنة يتراجع ويضيق محيطه كلما ارتفعت. أما الحشوة الثالثة فتتألف من عقد مقرنص ينبثق من مفتاحه نحران يمتدان وتتقاطع معهما نحور أخرى مؤلفة شبكة من المعينات رصعت أرضيتها بقطع الفسيفساء الخضراء والسوداء اللون، أما القسم المجاور لها فيتكون من حنيتين مصمتتين واحدة فوق الأخرى. أما الحشوة الرابعة وهي أصغر الحشوات حجما فتزدان بثلاثة عقود مفصصة تقوم علي أربعة عمد تبقي منهما عمودان فقط (صورة ٢٢).

ويبدو من خلال الوصف السابق أن الواجهة الرئيسية لمئذنة جامع المنصورة مستوحاة من مئذنة جامع حسان بالرباط. وللدخول إلي جوف المئذنة، نمر من الباب الذي يتوسط الواجهة الرئيسية ويؤدي إلي ردهة مستطيلة الشكل مبلطة بالآجر علي جانبيها غرفتان اليمنى مستطيلة الشكل ومغلقة ويعلوها بقايا عقد، ويعتقد ليزين أنها كانت مخصصة لحفظ أثاث المئذنة^(١). أما الغرفة اليسرى فبقيت فيها آثار قبوة متقاطعة (شكل ٢١)، وكان يدور بالدعامة المركزية التي كانت تتوسط جوف المئذنة طريق صاعد يماثل نظيره في مآذن الموحدين ويؤدي إلي القمة بقيت آثار منه حتى

(^١) LEZINE (A); "NOTES D'ARCHEOLOGIE TLEMCENIENNE" IN. B.A.A. TOME 1, 1962-1965, EDITIONS.EDE BOCCARD, PARIS 1967, P. 268.

ويرى ليزين بأن أقدم مثال لاستعمال الطريق الصاعد في أبراج ومآذن المغرب الإسلامي يتمثل في منار سوسة^(١). ومن خلال آثاره المتبقية في أدنى جوف مئذنة المنصورة يتبين أن سعته تبلغ ٣٣،١ مترا وأنه كان مسقوفا بقبوات نصف أسطوانية تتحول في أركان المئذنة إلى قبوات متقاطعة. ويذكر ابن مرزوق بأنه صعد إلى أعلى المئذنة علي بغلته ويعبر عن ذلك بقوله: "صعدتها غير مرة مع الأمير أبي علي الناصر وهو علي فرسه وأنا علي بغلتي من أسفلها إلى أعلاها وكانا في وطأ من الأرض، ولها مجريان يطلع فيهما إلى أعلاها وكانت محكمة البناء والنجارة في الأحجار"^(٢).

ولعل القارئ لوصف ابن مرزوق يتبادر إلى ذهنه أن للمئذنة طريقين صاعدين أو مجريين علي حد قوله، ولكن المقصود بذلك أن الطريق الصاعد عريض يتسع لشخصين راكبين مما يدل علي اتساعه.

ويرى مارسيه أن الوصول إلى القمة كان يتم بواسطة طريق صاعد أو منحدر يدور سبع دورات حتى شرفة المئذنة^٣، وتتخلل الجدران الداخلية للمئذنة فتحات للإضاءة والتهوية (شكل ٢٢). وتتميز المئذنة بطرازها الفريد بالنسبة لمآذن المغرب الأوسط إذ تشمل علي دعامة مركزية جوفاء، وهي بذلك تنفرد دون هذه المآذن بتلك الخاصة، ولا نشك في وجود غرف للحراسة بالمئذنة بدليل أنه يفتح في جدرانها منافذ عديدة منها ما يتخذ شكل مزاغل ومنها ما يتخذ شكل طاقات مستطيلة ومربعة خصصت جميعها للإضاءة والتهوية والمراقبة في آن واحد.

هذا وقد اندثر جوسق المئذنة أو طابقها العلوي الذي ينتهي بالتفافيح المركبة في العمود الحديدي، وقد شاهده ابن مرزوق أثناء صعوده فيذكر أنه رأي "العمود

(١) IBID, P. 268.

(٢) ابن مرزوق: المسند، ص ١٧.

(٣) MARCAIS (G); L'ARCHIT. MUSUL. D'OCCI, P. 274.

الذي تركب فيه التفافيح وهو من حديد^(١) وأما صاحب روض القرطاس فيضيف بعض التفاصيل فذكر أن أبا يعقوب يوسف "بني به منارا عظيما وجعل علي رأسه تفافicha من الذهب بسبع مائة دينار ذهبا^(٢)".

ونستنتج من الوصفين سالف الذكر أن المئذنة كانت تنتهي من أعلى بجوسق تعلوه قبة يخرج منها سفود بارز ركبت فيه ثلاث تفاحات وربما كان يتوجها هلال، وانطلاقا من الوصفين السابقين يمكننا إعادة التصور لمخطط الجوسق، وأغلب الظن أنه كان يزدان في واجهاته الأربعة بقطع من الفسيفساء الخزفية علي غرار جوسق مئذنة جامع سيدي أبي مدين، وقد اعتمدنا في تصورنا للجوسق وجود بقايا آثار شرافتين في قمة واجهة المئذنة واحدة في كل من زاويتها اليمنى و اليسرى مما يدعونا إلي الاعتقاد بأنه كان يتوجها أربع شرافات واحدة في كل زاوية، وقد يكون الجدار العلوي مكللا كله بشرافات اندثرت ولم يبق إلا آثارها في الزوايا (شكل ٢٣) وفي تصوري أن ارتفاع المئذنة بطاقيها وقبتها كان يبلغ ما يقرب من ٤٥ م.

وقد أقيمت المئذنة بكتل منتظمة من الحجر المنحوت وردي اللون ونقشت الزخارف بالآجر وبعضها نقش في الحجر، كما استعمل الحجر المدكوك في بناء المئذنة، ولاحظنا أيضا مزج بعض الألواح الخشبية والحديد لتدعيم المبنى.

ومن خلال دراستنا لهذه المئذنة تتبادر إلي الذهن عدة حقائق منها سمك جدار المئذنة ويبلغ ٥٠، ١م، وعلوها الشاهق وقدرناه بـ ٤٥ مترا وبنائها متناسق مما يوحي بأنها لم تكن مجرد مئذنة، وإنما كانت تقوم أيضا بمهمة المراقبة.

هذا ويجدر بنا القول أن الطريق الصاعد إلي أعلى المئذنة ظهر لأول مرة في العراق في القرن الثالث الهجري، ويتمثل في مئذنتي جامع سامراء وجامع أبي دلف، ولكن الطريق الصاعد في هاتين المئذنتين خارجي وليس داخلي، وتسجل المآذن الموحدية أول ظهور له في الداخل في العالم الإسلامي ربما تقليدا للطريق الصاعد

(١) ابن مرزوق: المسند، ص ١٧.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٣٦٨.

بمنار الإسكندرية ثم ظهر في منذنة جامع المنصورة. ونتساءل كيف انتقل هذا التقليد من مآذن الموحدين إلى منذنة جامع المنصورة؟ ولا يتبادر الشك إطلاقاً إلى أي باحث في آثار الإسلام في أن عرفاء البناء في المنصورة استلهموه من المآذن الموحدية، وإن كان (جولفان) يعتقد أن الطريق الصاعد في العمارة المغربية الإسلامية بالجزائر لم يكن من ابتكار المعمار الموحدي، إذ نجده مطبقاً ومنفذاً في برج المنار بالقلعة الحمادية حيث يدور حول دعامة مفرغة مربعة الشكل تشغلها من الداخل غرف متراكبة للحراسة^(١).

وهذا يدعونا إلى تأكيد أصله الحمادي والاعتقاد بأن الموحدين عرفوه إبان سيطرتهم على قلعة بني حماد في ٥٤٧هـ / ١١٥٢م عندما كان برج المنار ما يزال قائماً، ولقد اقتبس عرفاء الموحدين هذه الفكرة ونفذوها على وجه الخصوص في منذنة جامع حسان بالرباط التي يصفها عبد الواحد المراكشي المؤرخ المغربي في كتابه (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) والذي يؤكد الرأي الذي أدلى به الدكتور السيد عبد العزيز سالم ويتلخص في أن لمنار الإسكندرية تأثيراً واضحاً على مآذن المغرب الإسلامي خاصة الموحدية^(٢) يقول عبد الواحد المراكشي: "وعمل للجامع منذنة في نهاية العلو على هيئة منار الإسكندرية يصعد فيه بغير درج"^(٣).

ويبدو في رأينا أن منار الإسكندرية قد مارس تأثيراً واضحاً على مآذن المغرب الإسلامي من حيث الطابع العام، وننتهي من العرض السابق إلى الاعتقاد بأن بناء منذنة جامع المنصورة تأثروا في اتخاذهم للطريق الصاعد وسيلة للصعود إلى قمة المنذنة بنظيره في برج المنار بقلعة بني حماد القريبة منهم زماناً ومكاناً، وكان

(١) GOLVIN (L); ESSAI SUR L'ARCHIT. RELIG. MUSUL, T.4. EDITIONS, KLINCKSIIECK, PARIS; 1979, P. 285.

(٢) السيد عبد العزيز (سالم): تأثير منار الإسكندرية على بعض مآذن المغرب والأندلس، مجلة المعهد المصري بمطريد، عدد ٢٣.

(٣) المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الطبعة الثانية، مراجعة وتصحيح ر. دوزي ليدن، أبريل ١٨٨١، ص ١٩٢.

الحماديون قد عرفوه من العمارة الإفريقية في منار سوسة.

كما يري ليزين ومنه انتقل إلى المغرب الأوسط ممثلاً في القلعة ثم إلى المغرب الأقصى ممثلاً في المآذن الموحدية، ومئذنة الخيرالدا بإشبيلية، ثم يعود إلى عمارة المغرب الأوسط في عصر بني مرين^(١).

ويجدر القول أن الطريق الصاعد الذي يدور بمئذنتي سامرا ومئذنة جامع ابن طولون في القطائع إنما جاء تقليداً لمعابد النار الفارسية (أتش جاه) أو الزيجورات، ولا علاقة لهذا الطريق الصاعد في هذه المآذن بنظيره في مآذن المغرب، وربما استخدم في هذه المآذن المغربية لهدف عسكري بقصد المراقبة أو سرعة الوصول إلى أعلي المنار حتى على ظهور الخيل إن اقتضى الأمر.

وفيما يتعلق بزخارف واجهة هذه المئذنة فيبدو أنها تأثرت بنظائرها في مئذنة جامع الموحدين بإشبيلية التي أثرت بدورها تأثيراً واضحاً في مآذن الزيانيين والمرينيين خاصة مئذنة جامع المنصورة، ومن الواضح أن فكرة تقسيم الزخارف إلى قطاعات رأسية ثلاثة في الخيرالدا، إنما ظهرت لأول مرة في مئذنة جامع قلعة بني حماد، وربما اقتبس الموحدون هذا النظام ونفذوه بحذق في تقسيمات الزخارف بمئذنة إشبيلية ثم نفذه المرينيون على نحو أكثر اتقاناً وروعة في مئذنة جامع المنصورة.

(١) يختلف أستاذي الدكتور عبد العزيز سالم معي في ذلك ويعتقد بدوره أن التأثير المباشر تم عن طريق مآذن مساجد الموحدين في المغرب الأقصى، صحيح أن أول استخدام لهذا الطريق الصاعد نفذ في برج المنار بقلعة بني حماد ولكنه لم ينفذ بنفس الأسلوب والنظام اللذين نشهده في الخيرالدا، وفي جامع حسان، أو الكتبية أو المنصورة. إذ كان يتسع في كل من هذه المآذن لفارسين يصعدان جنباً إلى جنب، كما يذكر عبد الواحد المراكشي وابن مرزوق وهو نفس القول الذي ذكره المسعودي بالنسبة للطريق الصاعد بمنار الإسكندرية. وما دام جامع المنصورة من بناء المرينيين خلفاء الموحدين في المغرب فإن التأثير يبدو غالباً على مئذنة المنصورة التي تنفرد عن المآذن الزيانية بهذه الخاصية للمآذن.

٣- مئذنة جامع سيدي أبي مدين:

أمر السلطان أبو الحسن ببناء هذا الجامع في ٧٣٩هـ / ١٣٣٩م، كملحق لقبر سيدي أبي مدين الذي اختار هذا الموضوع المعروف بالعباد ليُدفن فيه، وأصبح مجموع بنيان الجامع يضم ضريحا وقصرا وحماما ومسجدا هذا بالإضافة إلى المدرسة الخلدونية التي أقيمت بجوار هذه المجموعة.

ويتميز الجامع بمظهره الأنيق، فكل عناصره المعمارية بالإضافة إلى المنبر والأبواب تزدان جميعا بكسوات زخرفية رائعة الجمال، وينفتح بيت الصلاة على الصحن بثلاثة عقود، ويشتمل على خمسة بلاطات عقودها قائمة على دعائم تقسم بين الصلاة إلى ثلاثة أساكيب، وتتميز البلاطة الوسطى بأنها أكثر البلاطات اتساعا، وهذا ويتقدم المحراب بلاطة عرضية أو أسكوب قائم بذاته^(١).

ويصف ابن مرزوق هذا الجامع بقوله "..... وسقفه كله أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الأخرى في الوضع، إنها أشكال منجورة منفرشة، وهي كلها مبنية إحكاما بالآجر والقصة، واشتمل على المنبر العجيب الشكل المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس"^(٢).

ومئذنة الجامع من الطراز المغربي المربع وتنتصب في الركن الشمالي الغربي من المسجد في نهاية المجنبية الشمالية للمسجد (شكل ٢٤) وتتكون من قاعدة مربعة يعلوها بدن المئذنة المربع الذي اتخذت واجهاته أشكالا زخرفية مختلفة يقول ابن مرزوق في هذه المئذنة: "والصومعة كذلك في غاية من الحسن والاتقان، كل جهة من جهاته الأربع تخالف الأخرى في النوع والإحكام وذهبت تفافيح جامورها بثلاثمائة وسبعين دينارا ذهباً"^(٣).

ولما كانت الزخارف التي تكسو واجهات المئذنة تختلف من واجهة إلى أخرى،

(١) MARCAIS (G); ARCHIT. MUSUL. D'OCCI... P.276.

(٢) ابن مرزوق: المسند، ص ١٨.

(٣) نفسه، ص ١٩.

فسننظر إلى وصف كل واجهة منها على حدة، ففيما يخص الواجهة الجنوبية فإنها تنقسم إلى حشوتين الأولى صغيرة وزخارفها عبارة عن طاقة معقودة بعقد نصف دائري تعلوها عقد مفصص كبير وتطوقها تربيعة مستطيلة الشكل تعلوها عقد متعدد الفصوص يرتكز على كابولين، وبقيت في بواطن العقود بعض آثار الفسيفساء الخزفية. أما الحشوة الثانية فيصل ارتفاعها حتى بداية جوسق المنذنة وتزدان في أدناها بثلاثة عقود منكسرة تنتهي بعقد مدبب تعلوها عقود نصف دائرية متراكبة على شكل صفوف. وبقيت بعض آثار الفسيفساء الخزفية التي تزخرفها وهي على شكل دوائر سوداء وخضراء، أما الواجهة الشرقية المطلّة على الصحن فتتكون من حشوة واحدة فقط، لأن الجزء الأدنى منها يدخل في نطاق جدار المسجد، وفي هذا الجدار وجد (مارسيه) إطارا مربعا يتكون من قطع من الفسيفساء الخزفية خضراء مرصعة في الآجر ويعتقد (مارسيه) أنه المثال الوحيد في تلمسان وربما أحد الأمثلة المغربية النادرة من هذا النوع من الزخرفة الكتابية والتي استعملت كثيرا في المشرق وهو الخط الكوفي المزوى نقرأ فيه عبارة (بركة محمد)، أما مارسية فقرأها (ببركة محمد)^(١).

وزخارف هذه الحشوة تنبثق من ثلاثة عقود متدرجة تنتهي بعقدين مدبيين، وكل عقدين مدبيين غائرين تعلوهما عقد نصف دائري بارز يزدان بقطع الفسيفساء الخزفية على شكل دوائر مربعة ومعينات ومستطيلات وعلى شكل بيضات، وبقي في هذه الواجهة زخرفة بشكل مزهرية يخرج منها فرعان نباتيان تعلوهما برعم وهكذا الزخرفة حتى أعلى المنذنة.

أما الواجهة الشمالية فهي فريدة من نوعها في أسلوب زخارفها فهي تتكون من حشوة واحدة غائرة من أدنى إلى أعلى لأن مكان الحشوة الأولى يدخل في نطاق جدار المسجد، وهذه الحشوة مقسمة بدورها إلى ثلاثة أقسام رأسية، الحشوتان الجانبيتان متناظرتان عبارة عن شبكة من عقود متدرجة (منكسرة) تنتهي بعقود مدببة وترتكز السفلي على كوابيل، والصف الثاني يرتكز على الأول وهكذا، أما

^(١) MARCAIS (G ET W); LES MONUMENTS ARABESP. 263..

الحشوة الطولية التي تتوسط هذه الحشوات فتتقسم بدورها إلى أربعة أقسام الأولي قصيرة تتمثل في طاقة لإنفاذ الضوء والهواء معقودة بعقد مدبب يرتكز على كابولين، أما الحشوة الثانية فغائرة وتخلو من الزخارف، أما الثالثة فهي أكثر ارتفاعا يتخلل قسمها الأدنى طاقة صغيرة معقودة بعقد مدبب يعلوها زخارف على شكل معينات منكسرة ومتراكبة، ويعلو كل معين عقد مدبب صغير وهكذا حتى يبدأ القسم الأخير الذي هو عبارة عن طاقة مفتوحة لإدخال الضوء معقودة بعقد نصف دائري ويحيط به تربيعة بارزة.

أما الواجهة الغربية فقد نفذت بنفس نظام الواجهة الجنوبية، ويعلو هذه الواجهات الأربعة شريط صغير من قطع الفسيفساء الهندسية عبارة عن مربعات ومستطيلات ثم يعلوه شريط أكثر اتساعا تشغله أطباق نجمية كبيرة متجاورة يملأ الفراغ بينها قطع أخرى مربعة ومستطيلة ومتعامدة ومعينات ودوائر، يلي هذا الشريط شريط ضيق آخر تكسوه قطع الفسيفساء الخزفية، ويكمل هذا الطابق الشرافات المسننة المزخرفة من الخارج بقطع الفسيفساء على شكل دوائر ومربعات، ثم يبدأ الجوسق أو الطابق العلوي الذي يزدان في واجهاته الأربع بشبكات من المعينات ويكسو الفراغات كسوة من الفسيفساء الملونة، ويعلو الجوسق قبة يخرج منها سفود بارز يحمل ثلاث كرات، يذكر مارسيه بأن الكبرى منها مذهبة يبلغ محيطها ١,٥٠م^(١)، ويعلو الجوسق البارز هلال يتجه طرفاه إلى أعلى (صورة ٢٤).

وقوام الزخارف التي تزدان بها الواجهات الأربع للجوسق العلوي في نفس طابع زخارف بدن المئذنة وقوامها توريقات تتفرع من فروع متشابكة كلها ملونة باللون الأسود على أرضية بيضاء ويعلو هذه الزخرفة النباتية شبكة من المعينات لا تختلف زخارفها عن زخرفة مئذنة جامع سيدي الحلوي ومئذنة جامع تلسمان وجامع أبي الحسن وجامع المشور، وهذه المعينات تنبثق من عقود منكسرة متلاصقة فيما بينها، وتشغلها من الداخل فروع نباتية وتوريقات ألوانها هي الأخضر والأسود والأبيض،

(١) MARCIS (G ET W); LES MONUMENTS ARABESP.263.

يحيط بهذه الزخرفة شريط عريض من الزخارف الهندسية المتباينة الألوان، وحافة هذا الشريط أشكال متعرجة من الفسيفساء الخزفية يليها مستطيلات خضراء ثم تليها الزخرفة الحقيقية للشريط وهي أشكال متعرجة متقاطعة بالإضافة إلى معينات ومربعات ومستطيلات ونجوم صغيرة ذات ثمانية رؤوس، والكبيرة ذات اثني عشر رأسا تتناوب فيما بينها كلما ارتفعنا إلى أعلى الشريط، والزخرفة إجمالاً تشكل أطباقاً نجمية متجاورة ألوانها دائماً الأخضر والأسود والأبيض ثم الأصفر.

أما من حيث النظام الداخلي لهذه المئذنة فيتشابه مع نظام المآذن الزيانية، ويتم الدخول إليها عن طريق باب يفتح في صحن المسجد يؤدي مباشرة إلى دعامة مركزية صماء مربعة الشكل طول ضلعها ١,٧٠م على يسارها غرفة مستطيلة الشكل يعلوها عقد نصف دائري، ويعلو سقف هذه الغرفة قبوة متقاطعة تشبه نظائرها بمآذن بني زيان وقلعة بني حماد.

المئذنة مربعة القاعدة طول ضلعها ٤,٣٠م وسك جدارها ٥٥سم نصعد إلى أعلاها بواسطة درج يدور حول الدعامة المركزية وفي كل دورة خمس درجات (شكل ٢٥)، ويغطي الدرج قبوة متقاطعة تليها قبوة نصف أسطوانية على التناوب، ويتخلل جدار الدورة الثالثة طاقة معقودة بعقد مدبب يتجاوز نصف الدائرة، وهذا العقد غطي بخشب الخرط على شكل مشربية، وقد يكون مستحدثاً في الوقت الحاضر. وتوجد أيضاً فتحات مستطيلة معقودة بعقد نصف دائري بالإضافة إلى مزغل يطل على الجهة الجنوبية الغربية للمسجد، ويقابل الراقي إلى المئذنة قبل الوصول إلى شرفتها فتحة كبيرة معقودة بعقد مشرع تؤدي إلى ما يشبه الشرفة الصغيرة التي تطل على سقف المسجد والصحن، ويوجد أيضاً في نفس الدورة مزغل الضوء والتهوية وإلى جواره حنية غائرة مفتحة في أعلاها فقط بطاقة صغيرة معقودة بعقد مدبب صغير. وفي هذه الدورة يتغير نظام التقبيب ليصبح ثلاثة قبوات متقاطعة ومتجاورة بدلا من القبوة نصف الأسطوانية، ثم يعود النظام الأول والثاني بالتناوب حتى أعلى شرفة المئذنة وهنا يتغير النظام فنجد في الدورة الأخيرة المؤدية إلى الشرفة تسع درجات بدلا من خمس كل دورة، ثم نقابل إلى اليمين غرفة مستطيلة الشكل تشبه الغرفة السفلية

القائمة عند المدخل، ونخرج إلى شرفة المئذنة من باب معقود مشرع، ويتوسط الشرفة الطابق العلوي الذي يتراجع قليلا عن جدار بدن المئذنة (شكل ٢٦).

وندخل إلى الجوسق من باب نصعد إليه بدرجة واحدة وهو معقود بعقد مدبب تعلوه زخارف متشابكة رائعة، وغرفة الجوسق مربعة الشكل تعلوها قبة، هذا وقد قدرنا الارتفاع الكلي للمئذنة بـ ٢٦,٥٠ م.

وقد استخدم البناء الحجر والآجر والخشب والحديد في بناء هذه المئذنة وكل هذه المواد لتدعيم المبنى وتقويته، ومن الجدير بالملاحظة أن الحجر استخدم في بناء المآذن المرينية وقد سبق استخدامه في مئذنة المنصورة.

أما مئذنة جامع سيدي الحلوى فالجامع أقامه السلطان المريني أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن المريني في ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م ويشتمل بدوره على مئذنة رائعة وثيقة الصلة بمئذنة جامع سيدي أبي مدين في جميع المجالات لا سيما مجال الزخرفة (صورة ٢٥)، ونفذت واجهاتها بالطريقة نفسها (صورة ٢٦)، ولهذا اكتفينا فقط بعرض وصف مختصر لها لتشابهها الوثيق مع مئذنة جامع سيدي أبي مدين.

ويبدو في نظرنا من دراسة هذا الفصل بأن قمة المآذن وتطورها خاصة من الناحية الزخرفية كان في عصر بني مرين والذي يعكس مقدرتهم الفنية في مجال العمارة والفنون الزخرفية التي فاقت كل الفترات السابقة في المغرب الأوسط وحتى مآذنهم في المغرب الأقصى أقاموها على نسق المآذن الموحدية والزيانية إلا أنها أقل ارتفاعا منها، وأعظم ما برعوا في أدائه واستعملوه بكثرة هو الزخرفة بالفسيفساء الخزفية متعددة الألوان، وإذا لم يكن هذا النوع من الزخرفة شائع الاستعمال من قبل، وهذه إضافة جديدة في مجال الفنون الإسلامية في الجزائر يمكن تسجيلها للمرينيين، ولعل هذا النوع المبتكر من الزخارف جعل مآذن بني مرين تشغل مكانا فنيا بارزا بين مآذن العالم الإسلامي في العصور الوسطى. ومع قدوم العثمانيين عرفت المئذنة الجزائرية بساطة متناهية، ولم يبلغوا بها التطور المراد حيث بدت واجهات مآذنهم في المغرب الأوسط خالية من كل زخرفة، وإن كانت قد عرفت نوعا من التنوع في الأشكال.

الفصل الرابع

المئذنة في عهد العثمانيين

تمهيد:

- (١) الطابع العام للمئذنة في عهد العثمانيين.
- (٢) مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة.
- (٣) مئذنة جامع الجيش بقصر الداى بالجزائر العاصمة.
- (٤) مئذنة جامع الحواتين (الجامع الجديد) بالجزائر العاصمة.
- (٥) مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة.
- (٦) مئذنة جامع الباشا بوهران.

تمهيد:

أخذ الضعف والاضمحلال يتسللان إلى كيان الدولة الزيانية في أواخر عهدها وأذنت بالانهيار، منذ أن استولي الأسبان على عدد من موانئها الهامة مثل المرسى الكبير ووهران وبجاية، كما ساعد على ذلك السقوط والانهيار تفتت دول المغرب وتطلع القوي منها للسيطرة على الضعيف، وعلى هذا النحو أصبحت معظم سواحل الجزائر مهددة من قبل الأسبان وجمهوريتي البندقية وجنوة إلى أن ظهر خير الدين بربروسة وأخوه عروج للدفاع عنها وحمايتها من العدوان الأيبيري والإيطالي الغاشم وقدر لهما بأن يقوموا بدور هام في تاريخ الجزائر في بداية العصر الحديث وذلك بتكوينهما دولة مستقلة لها كيان ووحدة جغرافية وحدود ثابتة^(١).

وتميزت فترة الوجود العثماني بالجزائر منذ عام ١٥١٦ م بتتابع الاعتداءات الأسبانية، وانتهى الأمر في الربع الأول من القرن ١٩م (١٨٣٠م) بالاحتلال الفرنسي، وشهدت الجزائر إبان العصر العثماني وضعاً اجتماعياً متميزاً وانتعاشاً اقتصادياً واضح المعالم^(٢) وصاحب هذه النهضة حركة فنية ومعمارية نشطة تمثلت في العديد من المنشآت التي مازالت قائمة إلى الآن، والدليل على ذلك قصبة الجزائر التي تضم من المباني التي يمكن أن تتحول بحق إلى متحف مفتوح على الهواء الطلق.

ومازالت مساجد العثمانيين ومبانيهم في كل من الجزائر العاصمة وقسنطينة ووهران وغيرها من المدن الجزائرية قائمة تشهد بنشاط الحركة المعمارية في العصر العثماني الذي تسلمت فيه عناصر فنية ومعمارية جديدة في عمارة المغرب الإسلامي وفنونه، وعرفت المئذنة في عصرهم تنوعاً في الأشكال، كما خرجت المساجد بتخطيطها في بعض الأحيان عن الطراز المربع المألوف في مساجد المغرب

(١) عبد القادر (نور الدين): صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، مطبعة البعث، قسنطينة، ط ٢، ١٩٦٥، ص ٤٣.

(٢) سعيدوني (ناصر الدين) والشيخ المهدي (بوعبدلي): الجزائر في التاريخ، ج ٤، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤، ص ١٤.

١- الطابع العام للمئذنة في عهد العثمانيين:

خلف العثمانيون تراثا معماريا هائلا في الجزائر، يروى (هايدو) أنه في سنة ١٥٨١ بلغ عدد مساجد العاصمة الجزائرية مائة مسجد، وفي سنة ١٨٣٠م قدر (جورج مارسيه) عدد المساجد بمائة واثنين و عشرين مسجدا بما فيها ثلاثة عشر مسجدا جامعا^(١). ومن البديهي أن كل هذه المساجد كانت تحتوي على مآذن متنوعة الأشكال، وإن كان معظمها قد ضاع مع الظروف المضطربة التي عاشتها الجزائر أثناء الاستعمار الفرنسي، ولم تكن المئذنة العثمانية عنصرا ثانويا في المساجد تنتصب في موضعها المخصص في المسجد، بل كانت عنصرا أساسيا يشكل وحدة متناسقة مع التخطيط العام للمسجد حتى وإن كانت مقاساتها تتفاوت من مئذنة إلي أخرى، وفي بعض الأحيان تبدو وقد خلت من الحليات التقليدية واتخذت مظهرا ساذجا^(٢).

وتجدر الإشارة إلي أن موقع المئذنة في المساجد العثمانية لم يكن يخضع لأية قاعدة، بل كانت تنتصب في المكان الذي يستطيع فيه المؤذن أن ينطلق بصوته إلي آفاق بعيدة، وفيما يتعلق بالشكل العام للمئذنة العثمانية فقد كانت إما مربعة الشكل على غرار المآذن السابقة لهذه الفترة، أو مثمثة الشكل على مثال بعض المآذن العثمانية في صنعاء وزبيد باليمن. وفيما تعلق بالطراز المربع فيعتبر طراز تقليديا في العمارة الإسلامية بالجزائر ظل مستخدما في المساجد العثمانية بالجزائر كما يمثلها جامع الحواتين وجامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة، وسوف نتعرض لدراستهما في هذا الفصل بشيء من التفصيل. أما الطراز المثلثي المثلثي فتمثله مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة ومئذنة جامع الباشا بوهراة وغيرهما

^(١) MARCAIS (G); L'ARCHIT. MUSUL. D'OCCI..... P.426.

^(٢) EKREM (A); L'ART EN TURQUIE. OFFICE DU LIVRE FRIBOURG, PARIS 1981, P.147.

من المساجد، ويعتبر طرازاً جديداً داخل الجزائر في الفترة العثمانية^(١).

أما فيما يتعلق بمظهرها الخارجي العام فيختلف باختلاف أشكالها، فالمئذنة العثمانية المربعة لم تكن تختلف عن مآذن بني زيان وبني مرين إذ كانت تتكون من طابقين ويعلو الجوسق قبيبة يتوجها سفود بارز تركب فيه كرات، أما المئذنة فتتكون من طابقين أيضاً، ويمكن أن يطوق بدن المئذنة أكثر من شرفة قائمة على مقرنصات يؤذن منها المؤذن، ويزين الجوسق وكذا بدن بعض المآذن قطع من الزليج مختلفة الألوان.

أما من حيث التكوين الداخلي فتتشابه فيما بينها إذ كان يتوسطها دعامة مركزية مصمتة قد تكون مربعة وقد تكون مئذنة يدور حولها درج حتى أعلى الشرفة، وتسقف الدرج قبوات نصف أسطوانية متتابعة^(٢).

ويتضمن كتاب (اسكار جبريال) صوراً رائعة لمختلف أنواع المآذن في القطر الجزائري والعاصمة على وجه الخصوص ولكن لم يبق لتلك المآذن أثر يذكر. ومن الملفت للملاحظة أن من مآذن العصر العثماني في الجزائر المربعة على غرار مآذن الموحدين والزيانيين والمرينيين والمئذنة والتي تتألف من طابقين أو ثلاثة يعلوها جوسق مستدق يتراجع قليلاً عن مستوي المئذنة ينتهي في أعلى بقبيبة ثم سفود بارز كما هو الحال في مآذن وهران ومستغانم والجزائر العاصمة وجيجل وقسنطينة وغيرها. وهناك بعض مآذن تتميز بجوسقها الأسطواني كما تزدان واجهاتها بزخارف من الزليج والفسيفساء الخزفية متباينة الألوان، ويعلو الجوسق عادة شرفة صغيرة ثم قبة يليها سفود بارز يحمل كرات ويعلوه هلال في بعض الأحيان^(٣).

(١) MARCAIS (G), L'ART EN ALGERIE, P. 136.

(٢) DOKALI (R); LES MOSQUEES DE LA PERIODE TURQUE A ALGER, SNED. ALGER 1974, P.41.

(٣) ESQUER(G); ICONOGRAPHIE HISTORIQUE DE L'ALGERIE DEPUIS LE 16^e SIECLE JUSQU A 1871, TOME 1 ET 2 LIBRAIRIE PLON, PARIS, 1929, S.P.

ومن الجدير بالملاحظة أيضا في هذه المآذن العثمانية التي أقيمت بالجزائر أنها تختلف كثيرا عن المآذن العثمانية التي أقيمت في الدولة العثمانية نفسها، وإنها تعتبر تطورا للمآذن التقليدية مربعة الشكل، التي أقيمت في الغرب الإسلامي قبل العصر العثماني، وظل مستخدما طوال هذا العصر، ويمكن تفسير هذه الظاهرة بسببين: أولهما أن الأتراك لما دخلوا الجزائر وجدوا بها عمارة دينية مزدهرة تختلف في طرازها عن طراز أبنيتهم الدينية فأعجبوا بهذا الطراز المحلي لاختلافه عن طرازهم العثماني، ولهذا أبقوا عليه في المساجد التي أقاموها كالجامع الجديد وجامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالعاصمة الجزائر، والسبب الثاني الذي يمكن أن نعلل به استمرار طراز المآذن المغربية مربعة الشكل في الفترة العثمانية قد يرجع إلى أن عرفاء البناء الذين اشتغلوا بالبنيان والعمارة في الجزائر كانوا محليين من أهل البلاد.

٣ - مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة :

يعتبر جامع سيدي لخضر أحد منجزات العثمانيين في الشرق الجزائري وتاريخ إنشائه مسجل على اللوحة التأسيسية القائمة على مدخل الجامع ونطالع في هذا النقش التأسيسي النص التالي : أمر ببناء هذا المسجد العظيم وتشيد بنائه للصلاة والتسبيح والتعليم ذو القدر العالي والتدبير الكامل وحسن الرأي أميرنا وسيدنا حسن باي أدام الله أيامه وكان تمام بنائه أواخر شهر شعبان سنة ست وخمسين ومائة وألف ١١٥٦هـ.

أما من حيث التخطيط المعماري فيتكون من خمس بلاطات عمودية وستة أساكيب وله محراب في غاية الروعة، وفي مؤخرة المسجد دكة المبلغ، ولقد درس في هذا الجامع الشيخ عبد الحميد بن باديس في عصر السيطرة الاستعمارية وإسم سيدي الخضر أطلق على المسجد نسبة إلى شيخ بهذا الاسم اعتكف فيه طويلا حتى مات وضريحه مازال موجودا في المسجد إلى الآن.

أما فيما يتعلق بمئذنة الجامع فهي من الطراز المضلع فهي مئذنة الشكل من

القاعدة إلى القمة - وتنتصب في الركن الشمالي الغربي من المسجد (شكل ٢٧) ويتخلل جدرانها الخارجية فتحات لكنها قليلة، ويخلو بدن المئذنة الخارجي من الزخارف، وينتهي البدن من أعلي على مسافة قصيرة أدنى الشرفة بعقود نصف دائرية يعلوها حشوات على طول أضلاع المئذنة من الزليج الأصفر ويتوسط كل حشوة، حشوة أخرى مربعة من الزليج متداخل الألوان ذي الزخارف النباتية المتشابكة، ويعلو هذه الحشوات عقود غائرة ترتكز على ستة عشر كابولي تتوزع على البدن المثلث للمئذنة تساعد على حمل الشرفة البارزة على مستوي البدن حيث يقف المؤذن للنداء إلى الصلاة^(١).

أما الجوسق فمثلث الشكل يقوم على سطح البدن الرئيسي للمئذنة وهو استمرار للبدن وتتخلل واجهاته حنايا مستطيلة الشكل صماء، والجوسق قمته مئذنة أيضا ترتكز عليها القبة هرمية الشكل التي يتوجها سفود بارز يحمل كرتين من النحاس^(٢)، يعلوهما هلال يتجه ذراعا إلى السماء (صورة ٢٧). أما من الداخل فنرتقي إلى أعلي المئذنة من باب في المسجد يؤدي إلى قاعدة مئذنة تتوسطها دعامة مركزية من الخشب على غرار مئذنة جامع قسنطينة من الفترة الحمادية (شكل ٢٨). ونصعد إلى أعلي المئذنة بواسطة سلم من الخشب عدد درجاته خمس وثمانون درجة يلتف حول الدعامة المركزية.

والملاحظة الوحيدة على المئذنة أنها تخلو من نظام الطوابق المتراكبة، بل تنتصب كتلة واحدة دون فاصل بين البدن والجوسق ودون استدقاق أو تراجع حتى تقترب من نهايتها وعندئذ تبرز شرفة ارتفاعها ٧٥ سم والمسافة بينها وبين جدار الجوسق ٦٥ سم وهي كافية بأن يدور حولها المؤذن ويقف لأداء الأذان بكل حرية، ويعلو قمة المئذنة جوسق مصلع تقوم عليه قبة هرمية الشكل (شكل ٢٩).

وتنفذ في جدار المئذنة فتحات متعددة منها على شكل مزاغل ضيقة من الخارج

(١) BOUROUBA @, CONSTANTINE, P.113.

(٢) IBID, P.113.

وواسعة من الداخل، ومنها فتحات عادية للإضاءة ومنها طاقات صماء، ويقدر سمك جدار المئذنة بنحو ٥٠ سم، أما طول كل درجة من درجات السلم فتبلغ ٨٥ سم وقطر الدعامة المركزية ٣٠ سم وتنتهي الدعامة المركزية التي تتخذ شكل عمود خشبي بسفود بارز يخترق أعلى المئذنة لتركب فيه كرتان من النحاس ثم هلال تتجه ذراعاها إلى السماء. ويبلغ الارتفاع الإجمالي للمئذنة ١٦,٥٠ م، وطول ضلع القاعدة ٢,٥٠ م ويعبر ذلك عن تناسب هندسي واضح في تصميم المئذنة (شكل ٣٠). نفذ بناء هذه المئذنة وفق طراز معماري جديد غير مألوف في العمارة الجزائرية الإسلامية من قبل، بل ابتكار عثماني في العمارة الجزائرية.

٣- مئذنة جامع الجيش بقصر الداي بالجزائر العاصمة:

يتسم الجامع المذكور بأن مساحته صغيرة للغاية، ويتألف من بيت الصلاة في حالة سيئة، وتقع مئذنة الجامع في الضلع الغربي أي في مؤخرة الجامع وهي مئذنة مثمثة الشكل، ولكن أوجهها الثمانية تزدان هذه المرة بحشوات من البلاطات الخزفية، وقد وصلت المئذنة إلينا اليوم في حالة سيئة بحيث تؤذن بالانهيار الوشيك وتحتاج إلى إصلاح سريع حتى نحفظها من السقوط.

ومن الجدير بالذكر أن الجزء السفلي من المئذنة يندمج مع الجدار في حين يطوق القسم العلوي شريط من البلاطات الخزفية على طول بدن المئذنة وهذه البلاطات خضراء اللون تتميز بوجود تعرجات بيضاء ويعلو هذا الشريط حشوات غائرة قليلا واحدة في كل ضلع، وتزدان الحشوات بقطع مربعة من البلاطات الخزفية، يلي ذلك شريط من البلاطات الخزفية خضراء اللون ذات التعرجات البيضاء على غرار البلاطات سالفة الذكر، ثم حشوات أخرى متماثلة في الحجم والشكل يليها شريط آخر تطبيقا لمبدأ التناظر.

أما أعلى المئذنة فيتوجه شرافات على شكل عقود تختلط فيها الخطوط بالمنحنيات على غرار شرافات مئذنة جامع الحواتين بالجزائر العاصمة وهذا النوع من الشرافات مستحدث في المغرب الأوسط لم تسبقه أمثلة في العمارات السابقة على العصر العثماني مما يجعلنا نرجع بأنه ابتكار عثماني، ويتوسط سطح البدن المثلث

جوسق مضلع تزدان أوجهه ببعض بقايا قطع من الفسيفساء الخزفية، وتعلو الجوسق قبيبة مصقولة الظاهر رأسها مدبب تخلو من السقود البارز والكرات التقليدية (صورة ٢٨).

ويتوسط بدن المئذنة من الداخل دعامة مركزية مربعة مصمتة يلتف حولها درج دائري عدد درجاته ثمان وأربعون درجة، تختلف هذه الدرجات فيما بينها في كل دورة.

وقاعدة المئذنة مربعة الشكل طول كل جانب منها يبلغ ٣,٥٠ م، وارتفاعها الكلي ١٦ مترا وسمك الجدار ٥٠ سم (شكل ٣١). ويسقف الدرج قبوات نصف أسطوانية، ويتخلل جدران المئذنة فتحات معقودة بعقود نصف دائرية للإضاءة والتهوية، وعندما نصل قليلا بارتفاع ٦ أمتار إلى أعلى المئذنة على مستوى سطح المسجد يفتح باب يؤدي إلى هذا السطح. وعند هذا الحد يتوقف الشكل المربع للمئذنة ويبدأ الشكل المثلث للمئذنة (شكل ٣٢) وهذا التنوع في شكل المئذنة يمثل تطورا جديدا لنظام المآذن الجزائرية ويرجع الفضل فيه إلى العثمانيين أول من حملوه إلى الجزائر، ويظهر هنا لأول مرة كما نشهده بعد ذلك ممثلا في مئذنة جامع الداوي في القصر نفسه كما سنرى فيما بعد.

أما من حيث نظام التسقيف فهو نفس النظام الذي طبق في القسم الأدنى من المئذنة، ويستمر استخدام القبوات نصف الأسطوانية حتى أعلى المئذنة حيث يقوم الجوسق، ونلاحظ في هذه المئذنة تنوعا من حيث الفتحات، فمنها ما يتخذ شكل عقد نصف دائري وأخرى مستطيلة الشكل.

وقد استخدم في بناء هذه المئذنة الآجر الممزوج بالحجر المدكوك وكذلك الملاط، كما استخدمت في البناء بعض العوارض الخشبية لتدعيم المبنى وتقويته، وأيا ما كان الأمر فإن نظام هذه المئذنة يبدو مخالفا لنظام المآذن المغربية المألوفة، ومن الواضح أن العثمانيين أثروا في العمارة الإسلامية في الجزائر ببعض الأشكال والطرز التي نعتبرها تطورا لنظام المئذنة.

وعلى مقربة من هذا الجامع يقع مسجد الداوي، وهو مسجد صغير المساحة تتوسطه قبة مركزية كبيرة فتحت فيها شبابيك مخرمة ذات ألوان ثلاثة الأزرق والأحمر والأصفر، ويتميز المحراب بصغره ويزدان ببلاطات خزفية. أما أعمدة المسجد فكلها مقناة بقنوات متموجة لولبية الشكل، ومئذنة الجامع لا تختلف في مظهرها الخارجي عن مئذنة جامع الجيش، فهي صغيرة الحجم قليلة الارتفاع مضلعة وتخلو من نظام الطوابق المتراكبة، وتفتح على واجهاتها بعض المنافذ للإضاءة والتهوية، ويخلو بدن المئذنة من الزخارف ما عدا الشريط العلوي الذي يبدو عريضا بعض الشيء، ويدور حول واجهات المئذنة، ويتألف من بلاطات خزفية خضراء اللون وزرقاء وصفراء وبيضاء وتشغلها زخارف نباتية وهندسية، وتنتهي المئذنة من أعلى بشرافات مثلثة الشكل.

ويتوسط السطح العلوي لبدن المئذنة جوسق قليل الارتفاع مئمن الأضلاع تعلوه قبة ذات سفود بارز ركبت عليها كرتان من البرنز ويزدان النصف العلوي من الجوسق بما في ذلك القبة ببلاطات خزفية كالتي سبق ذكرها، ولا يختلف نظام وشكل هذه المئذنة عن مئذنة جامع الجيش إلا في أن المئذنة مئمنة من القاعدة إلى القمة، وهذا الشكل المئمن لبدن المآذن جيد ومبتكر في تاريخ العمارة الإسلامية بالجزائر (صورة ٢٩) ويشبه إلى حد كبير نماذج عديدة من مآذن اليمن في العصر العثماني.

أما من الداخل فكل ما استطعنا ملاحظته أن الدعامة المركزية مصممة يدور حولها سلم، ولم نتوصل إلى معرفة نظام التسقيف من الداخل وذلك لأن مدخل المئذنة كان موصدا بسبب أعمال الصيانة والترميم الجارية بها.

٤- مئذنة جامع الحواتين (الجامع الجديد) بالجزائر العاصمة؛

يطلق أهل مدينة الجزائر على هذه الجامع أيضا اسم الجامع الجديد وهو الاسم الشائع له، ويشغل هذا الجامع وملحقاته مساحة تبلغ ٢٠، ٣٧١ م^٢، ومن حيث التخطيط يتوسط الجامع قبة مركزية تحيط بها قباب صغيرة على غرار قباب جامع الباشا بوهرا، وتخطيط هذا الجامع يذكرنا بتخطيط المساجد العثمانية

بتركيا^(١).

ويتخذ بيت الصلاة مستطيلا يتجه من الشمال (الشمال الغربي) إلى الجنوب (الجنوب الشرقي) وتقدر أبعاده من الداخل دون احتساب سمك الجدران بـ ٣٩,٥م في الجهة المقابلة^(٢) ومن المعروف أن الجامع بني في عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م بأمر صادر من الجيش العثماني بالعاصمة من مال سبو الخيرات. ويذكر (كلان) أن هذا الجامع بني على انقاض موقع مدرسة قديمة تسمى (أبو عنان)^(٣). واسم الحواتين الذي أطلق على هذا الجامع تسمية فرنسية لقربه من شاطئ الحواتين، وسوقهم القريب من الزاوية الغربية للجامع^(٤).

أما المئذنة موضوع الدراسة فتقع في الزاوية الشمالية الغربية من الجامع وتشغل جانبا من مؤخرة الجامع (شكل ٣٣)، وتتخذ المئذنة شكل برج مربع الشكل طوله ٤ أمتار ينقسم إلى ثلاثة قطاعات أفقية، الأول خال على الإطلاق من الزخارف، والثاني عبارة عن حشوة كبيرة غائرة تضم حشوة أخرى أصغر مساحة، ويتوسط هذه الحشوة الأصلية زخرفة تشغل سطحاً بيضياً الشكل قوامها مربعات خزفية صغيرة متلاصقة فيما بينها تزدان بزخارف نباتية وهندسية باللون الأخضر والأزرق والأصفر والأبيض ويتوسط هذه الزخرفة بيضوية الشكل إطار مربع الشكل من البلاطات الخزفية باللون الأخضر والأبيض والأصفر ذات زخارف هندسية، أما القطاع الثالث فيتألف من حشوة مربعة الشكل غائرة بداخلها حشوة أخرى مربعة أقل مساحة تتوسطها ساعة حديثة (صورة ٣٠) أضيفت إلى مئذنة الجامع في عام ١٨٤٧م كسيت في سنة ١٨٥٩م بغطاء من الزجاج الشفاف لحمايتها من الأمطار^(٥).

(١) MARCAIS (G); L'ARCHIT. MUSUL. D'OCCI, P.433..

(٢) DEVOULX (A); LES EDIFICES RELIGIEUX DE L'ANCIEN ALGER IN. REV-AFR, T.11, 1867, P.302..

(٣) KLEIN (H); FEUILLETS D'EL DJEZAIR P.153.

(٤) DEVOULX (A); OP CIT, P. 385.

(٥) KLEIN (H). OP CIT, P. 153.

أما الإطار المحيط بالساعة قيزدان ببلاطات خزفية مستحدثة.

ويدور بهذا القطاع الثالث من أعلى شريط من التربيغات الخزفية يقدر عرضه بحوالي متر، وتزدان هذه التربيعة شأن الحشوة البيضية التي أشرنا إليها في القطاع الثاني، ويعلو هذا الشريط شرافات مستطيلة الشكل عددها أربعة وعشرون، ويلى هذا البدن الشاهق سطح بزخارف نباتية وهندسية يتوسطه جوسق تزدان واجهاته الأربع بنفس الأسلوب ولهذا نقصر على وصف واجهة الباب الشمالي المطل على البحر، يعلو باب غرفة الجوسق قندلية مطولة عبارة عن نافذتين معقودتين بعقدين توأمين متجاوزين ومطولين يرتكزان على عمود مركزي رشيق يتوسطهما من أعلى مفتاحي العقدين جوفة مستديرة مفرغة يطوقها عقد نصف دائري وتكسو القندلية مشربية من خشب الخرط ويحيط بهذا القطاع كله بلاطات من الخزف على شكل أطباق نجمية الشكل مع دوائر باللون الأخضر والأزرق والأبيض والأصفر والبنى، وينتهي الجوسق من أعلى بشرافات مسننة تحيط بقبة صغيرة نصف كروية يرتفع بأعلاها سفود بارز ركبت فيه ثلاث كرات (صورة ٣١). والمئذنة بهذا الشكل تشبه المآذن المغربية السابقة على العصر العثماني^(١).

ومدخل المئذنة ينفتح في الجانب الشمالي الغربي، وعند دخولنا المئذنة نجد على يسارنا بابا مغلقا يؤدي إلى ما يشبه الغرفة المستطيلة لعلها كانت تستعمل لوضع أثاث المسجد كما هو الشأن في المآذن السابقة (الزيانية والمرينية).

نرتقي إلى أعلى المئذنة عن طريق درج يدور حول دعامة مركزية مربعة الشكل مصمته يبلغ طول جانب منها ١,٦٠م وتتكون الدورة الأولى من خمس درجات تسقفها قبوة متقاطعة يليها قبوة نصف أسطوانية فقببية غائرة (شكل ٣٤). وعند الدورة الثانية من الدرج يقابل الراقين بابان أحدهما يؤدي إلى الشارع والآخر يفضي إلى أعلى المئذنة، وسقف هذه الدورة كله قبوة نصف أسطوانية. ويتخلل جدران المئذنة من الداخل فتحات للإضاءة والتهوية، أما أسلوب التسقيف فيختلف من دورة

(١) LES MOSQUEES EN ALGERIE P.54.

إلى أخرى، فمن قبوة نصف أسطوانية إلى قبوة متقاطعة إلى قبيبة غائرة ويشكل ذلك النظام ظاهرة فريدة من نوعها في نظام المآذن بالمغرب الأوسط. وتتبع طلعات الدرج خمس درجات في كل دورة نفس نظام التسقيف إلى أن نصل في التسعود إلى منتصف المئذنة فيقابلنا باب يؤدي مباشرة إلى سطح المسجد. ومن الجدير بالملاحظة أن درجات السلم في النصف الأدنى من المئذنة مبلطة ببلاط حديث، أما في النصف العلوي فيبدو أنها قديمة وأصلية وتتألف من قوالب متلاصقة من الآجر الأحمر. ويتخلل الجدران الداخلية للمئذنة فتحات مصمتة يبدو أنها أغلقت في فترات حديثة. ونلاحظ عندما نقرب من أعلي المئذنة أن أسلوب الدرجات يبدأ في التغير خاصة عند مستوي الساعة كما يبدو من الخارج (شكل ٣٥) فهناك درجات عادية وأخرى أكثر اتساعا وإذا ما تجاوزنا مستوى الساعة تتوقف الدرجات قدر دورتين استعويض عنها بأخرى حديثة، ثم تنتهي آخر دورة بباب يؤدي إلى السطح العلوي للمئذنة، ونصعد من هذا الباب عبر سلم خشبي ضيق وتتوقف عند هذا الحد الدعامات المركزية ويحل محلها عمود من الخشب يماثل نظيره في مئذنة المسجد الجامع بقسنطينة، ويسقف غرفة الجوسق سقف خشبي مربع يبرز من منتصفه سفود بارز يخترق القبيبة المتوجة للجوسق ركبت فيه الكرات النحاسية الثلاثة. ويبلغ إجمالي ارتفاع المئذنة ٢٥ مترا وكان ارتفاعها الأصلي ٣٠ مترا، ولكن عمليات الردم التي أجرتها الإدارة الفرنسية سابقا في ساحة الشهداء (ساحة الحكومة سابقا) بالجزائر العاصمة أدت إلى انخفاض علوها بحوالي خمسة أمتار^(١).

وأكثر ما يلفت النظر في هذه المئذنة جوسقها الفريد من نوعه بين مآذن المغرب الإسلامي السابقة، ويمكن أن نعتبره ابتكارا عثمانيا، فواجهاته الأربعة تتميز بدخلاتها المتناظرة اثنتين في كل جانب (شكل ٣٦).

أما عن مواد بنائها فهي تقريبا المواد التي بنيت بها مئذنة الجامع سالف الذكر هذا مع تعرض المئذنة لبعض التجديدات التي أدخلت عليها.

^(١) DEVOULX (A); OP CIT, P. 134..

٥- مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي:

يعد عبد الرحمن الثعالبي من أبرز علماء المغرب الأوسط وجلتهم في العلوم الدينية، ولد بمدينة الجزائر سنة ١٣٨٣م وتلقى العلم على شيوخ عصره وعاني الرحلة في أنحاء المغرب الأوسط حتى ذاع علمه واشتهر بين علماء بلده وحظي بتقدير أهل عصره إلى أن وافته المنية في ١٤٧٠م وانتشر إسمه بعد وفاته وتردد كثيرا من مربيه إلى قبره للتبرك، الأمر الذي أدى إلى إقامة ضريح يضم رفاتة في سنة ١٠٢٠هـ/١٦١١م^(١)، وبني فوق الضريح مسجد ألحق به في سنة ١٦٩٦م ويتميز هذا المسجد بصغر مساحته إذ يتكون من أربع بلاطات وأربعة أساكيب وزود بمحراب صغير في غاية الروعة والجمال^(٢)، ولا يسقف هذا المسجد سوى مساحة صغيرة تقدر بـ ٣٦م^٢. وقد لاحظ (البرت ديفولكس) وجود آثار منزل قديم بالقرب من المسجد ويحتمل أن يكون مقر إقامة سيدي عبد الرحمن الثعالبي^(٣).

ولهذا المسجد الصغير مئذنة مربعة الشكل على غرار المآذن المغربية السابقة للعصر العثماني، تقع في الجانب وتندمج في جدار المسجد من ثلاث جهات ماعدا الجهة الجنوبية الشرقية التي تظهر فيها تفاصيل المئذنة كاملة من الخارج^(٤). ونلاحظ أن واجهات المئذنة كلها متماثلة من حيث النظام المعماري والزخرفي ولذلك نقتصر على وصف الواجهة الجنوبية الشرقية. تزدان الواجهة بثلاث قطاعات متماثلة يفصل بين كل منها طنف بارز يشغله شريط عريض من الفسيفساء الخزفية يدور على الجدران الأربعة للمئذنة، ويزدان هذا الشريط بأشكال نباتية عبارة عن فروع نباتية متموجة وأشكال هندسية قوامها أشكال نجمية، ويشغل كل قطاع ثلاثة عقود مفلطحة غائرة ترتكز على أربعة أعمدة ونلاحظ أن العقد الثالث في القطاعين الأوسط والعُلوي تنفتح فيه طاقة صغيرة مستطيلة الشكل كما نلاحظ أن الشريط

(١) MARCAIS (G); L'ARCHIT MUSUL D'OCCL. P. 434.

(٢) KLEIN(H); OP CIT, P. 156.

(٣) DEVOULX (A); OP CIT, P.53.

(٤) DOKALI®; OP CIT, P.41.

الزخرفي الذي يتوج بدن المئذنة بالقطاع الزخرفي الثالث أقل ارتفاعا من الشريطين الأوسط والأدنى (صورة ٣٢) ويتوج البدن الرئيسي للمئذنة شرافات تتخذ شكل القبة مدببة الرأس وعددها اثنتا عشرة من بينها أربع شرافات كبري تشغل الأركان المربعة للبدن، ويتوسط السطح جوسق مربع الشكل يزدان أعلاه بشريط من البلاطات الخزفية تعلوه قبيبية (صورة ٣٣) و (شكل ٣٧)، ومن الجدير بالذكر أن شريط التربيعات الخزفية الذي يمتد بأدنى الشرافات لا يدور على الواجهات الأربعة للمئذنة.

والمئذنة من الداخل مربعة القاعدة طول ضلعها ٣م يتخللها درج يؤدي إلى دعامة مركزية مربعة الشكل مصمتة طول ضلعها ٧٠سم يدور حولها سلم دائري عدد درجاته سبع وعشرون درجة، وتشتمل الدورة الأولى تسع درجات (شكل ٣٨) وتنفتح في جدار المئذنة فتحات نصف دائرية للإضاءة والتهوية، ويتغير نظام الدرجات فيصبح ثلاث درجات في كل دورة ويسقف الدرج سقف مسطح. ويتغير نظام توزيع الدرجات بحيث يصبح في آخر دورة نحو أعلي المئذنة خمس درجات، وينتهي الدرج بشرفة المئذنة التي نصل إليها عن طريق باب صغير، ويقابل المرء عند اقترابه من سطح المئذنة باب يؤدي إلى سطح المسجد، ويتوسط سطح الشرفة جوسق مربع الشكل، هذا ولقد تعرضت المئذنة لبعض أعمال الإصلاح والتجديد كما تدل آثارها. وكل ما يمكن قوله عن هذه المئذنة أنها تمتاز بتناسب واضح بين ارتفاعها وطول ضلع قاعدتها حيث يقدر ارتفاعها بـ ١٦م، كما تمتاز بتكوين معماري بسيط (شكل ٣٩). ومن الواضح أن مظهرها الخارجي يخالف نظام المآذن العثمانية الأخرى المقامة بالجزائر خاصة في زخرفتها الخارجية ويمكن تعليل هذا بالتطور الذي وصلت إليه المئذنة الجزائرية في الفترة العثمانية من حيث الشكل والمضمون.

أما عن مواد بنائها فهي لا تختلف عن مواد بناء المآذن السابقة في قصر الداوي ومئذنة الجامع الجديد بالجزائر العاصمة.

٦ - المئذنة جامع الباشا بوهران :

بني مسجد الباشا بوهران في أواخر الفترة العثمانية كما تشير إلى ذلك اللوحة التأسيسية التي تتقدم مدخل الجامع ونطالع فيها النص التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم مسجد الباشا أسس بأمر من سيدي حسن باشا ١٧٩٢م" وقد تم إنشاؤه بعد الفتح الثاني لوهران سنة ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م وهو مسجد جامع كما تثبت أحدي اللوحات التأسيسية المحفوظة بمتحف وهران، وهي لوحة تذكارية منقوشة على الحجر. ويعتبر من المساجد العثمانية القليلة التي سلمت من أيدي الاستعمار الفرنسي التخريبية أو التحويل إلى كنيسة^(١).

ويتكون بيت الصلاة من خمس بلاطات وسبعة اساكيب تتميز البلاطة الوسطى بأنها أكثر البلاطات اتساعا وتحمل قبة مركزية على نمط قبة جامع القيروان ويحيط بها اثنتا عشرة قبة صغيرة. والمسجد محراب مزخرف يزليج حديث تتقدمه قبة أصلية تزدان بتربيعات من الزليج العثماني. ويحتوى الجامع على دعائم مربعة وأعمدة مزدوجة تحمل عقود بيت الصلاة.

ومدخل المسجد يؤدي إلى غرفة مربعة مسقفة بقبة، وتنتهي هذه الغرفة بصحن المسجد الذي تتوسطه نافورة مستحدثة وكانت في الأصل مجرد حديقة تتخذ شكل رنتين في صدر الصحن (شكل ٤٠)، ويتخذ الصحن شكل نصف دائرة، وينفتح في الصحن باب يفضي إلى بيت الصلاة.

أما المئذنة فتتصب في الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد وتتكون من قاعدة مثمنة يعلوها بدن مئمن الشكل من القاعدة إلى القمة تشتمل واجهاته على أربعة قطاعات زخرفية تقسم إلى قسمين يفصل بينهما زخرف بارز مئمن الشكل، وواجهات المئذنة تزدان جميعا بنفس هذا التقسيم الأمر الذي يجعلنا نقصر الوصف على واجهة واحدة فقط. ويزدان النصف الأدنى من المئذنة بقطاعين متراكبين من الزخرفة في

^(١) مهريس (ميروك): المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في الآثار الإسلامية. إشراف الدكتور رشيد بورويبة ١٩٨١-١٩٨٢، ص ٣٣..

كل منهما عقد نصف دائري متعدد الفصوص المتقاطعة فيما بينها داخل نطاق مستطيل الشكل غائر بعض الشيء عن وجه المنذنة، ويفصل بين كل من القطاعين إفريز عريض من تربيعات الزليج يتناوب فيها اللونين الأبيض والأخضر. أما النصف الأعلى من البدن فيزدان قطاعاه بنفس النظام سالف الذكر ويفصل بين كل من قطاعيه إفريز يماثل للنصف الأدنى من البدن، ويتوج البدن إفريز أكثر عرضاً من الأفاريز الفاصلة، وينتهي البدن بنطاق مثنى يبرز قليلاً عن سمت جدار المنذنة، وتقوم عليه شرفة مسورة بسياج قوامه تشبيك حديدي يزدان بزخارف هندسية مفرغة. ومن الجدير بالملاحظة أن الشريطين يزدانان بتربيعات من الزليج التي تتناوب فيها التربيعات الخضراء والبيضاء (صورة ٣٤، ٣٥).

ويزدان الجوسق العلوي مثنى الشكل بزخارف تكسو واجهاته الثمانية قوامها تربيعات الزليج التي تتناوب منها الخضراء مع البيضاء ويتوج الجوسق قبة مضلعة يعلوها سفود بارز يحمل أربع كرات من البرونز ثم هلال يتجه ذراعاه إلى السماء (شكل ٤١) ويربط المسجد بالمنذنة أسطوانة مسقوفة اتخذ في الوقت الحاضر، أيضاً، يؤدي إلى باب المنذنة ويفضي هذا الباب عبر درجتان إلى مدخل المنذنة ويغلق هذا المدخل باب خشبي يصل إلى جوف المنذنة التي تتخذ من الداخل شكل مثنى طول كل ضلع منه ٢,٥٠ متر وتتوسط المنذنة من الداخل دعامة مركزية مستطيلة الشكل صماء. ومن الجدير بالملاحظة أنه يقع إلى يسار المدخل غرفة مستطيلة الشكل على غرار منذنة جامع قلعة بني حماد ومآذن تلمسان في العهد الزياني والمريني، وهذه الغرفة مسقوفة بقبو نصف أسطوانية ويدور حول الدعامة المركزية سلم يتكون من مائة وثمان وثلاثين درجة يصعد إلى أعلى المنذنة، كل دورة من دوراته الأربع تشتمل على أربع درجات مائة الدورة الأخيرة التي يتغير فيها النظام فتتكون الدورة من ثمان درجات (شكل ٤٢) وتسقف هذه الدورات قبوات متقاطعة في الأركان تتوسطها قبوات نصف أسطوانية على غرار نظام القبوات بمنذنة جامع قلعة بني حماد ومنذنة المسجد الجامع بتلمسان، ولكن مع مرور الزمن بدأت القبوات المتقاطعة تندثر بحيث لم يتبق منها إلا آثار تدل عليها. ويتخلل كل دورة مزغل أو

أكثر بغرض التهوية والإضاءة بدلا من مستطيلة الشكل التي تعودنا رؤيتها في منذنة المسجد الجامع بتلمسان والمآذن الزيتية الأخرى. ونصعد تسعا وسبعين درجة لنصل إلى بسطة مستطيلة الشكل تليها بسطة أخرى مستطيلة الشكل أيضا في الدورة المجاورة، ثم يواصل الدرج صعوده بنفس النظام بمعدل أربع درجات في كل دورة، ويتخلل البسطة مستطيلة الشكل فتحة كبيرة مستطيلة الشكل تحولت في فترة قريبة إلى باب صغير يؤدي إلى الشرفة الخارجية، وتبدو هذه الشرفة بارزة عن سمت بدن المنذنة وإن كان جدارها لم يتبق له من أثر سوى المساحة الأفقية البارزة في الواجهات الثمانية للمنذنة، وقد دفعنا ذلك إلى تقسيمنا للمنذنة من الداخل والخارج إلى قطاعين متحاذيين يعلوهما الجوسق الذي يمكن أن نعتبره الطابق الثالث للمنذنة، وللمؤذن الخيار في أن يؤذن في الشرفة السفلى أو الشرفة العليا.

وتتخذ المنذنة من الداخل نفس النظام كلما ارتفعنا إلى أن يصل المرء إلى الدورة الأخيرة فتصبح عدد درجاتها ثمان درجات، وتنقسم الدعامة المركزية إلى اثنتين وتظهر إلى يمين الدعامة غرفة مستطيلة الشكل صغيرة المساحة بنفس مقاييس الغرفة السفلى الواقعة إلى يسار الدعامة المركزية. وتنتهي الدورة الأخيرة بباب استحدث في فترة معاصرة يؤدي إلى الشرفة العلوية التي لم يبق أثر لجدرانها فعوضت بسياج يتألف من شبكة حديدية تدور بالمنذنة من سائر الجهات ويتوسط سطح البدن الجوسق العلوي للمنذنة وهو بناء مئمن الأضلاع تزدان أوجهه بتربيعات الزليج وتعلوه قبببة مضلعة يتوجها سفود بارز يحمل ثلاث كرات (شكل ٤٣).

هذا وقد استخدم في بناء المنذنة كتل متوسطة الحجم من الحجارة المصقولة أشبه بالقوالب مستطيلة الشكل التي صفت على شكل حلقات وتلاحمت فيما بينها بملاط شديد الصلابة تتخللها عوارض خشبية (صورة ٣٦).

ونخرج من دراستنا لهذه المنذنة بأن لها طرازا خاصا يختلف عن طراز منذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة العارية من الزخارف، ولا تفوتنا الإشارة في هذا الفصل إلى منذنة جامع سيدي حسن باشا بمعسكر وتنسب إلى حسن باشا مؤسس منذنة جامع الباشا ١٧٩٢م ويرجع تاريخ إنشاء جامع معسكر إلى نفس تاريخ إنشاء

جامع الباشا بوهران، وتشبه مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة وجامع الباشا بوهران، وبدنها أملس خال من الزخارف. أما في مدينة وهران نفسها فتوجد مئذنة تبدو على بعد كأنها مئذنة من مآذن بني زيان في كل تكويناتها المعمارية من الداخل أو من الخارج لولا أن اللوحة الحجرية التأسيسية المثبتة على بدن المئذنة تشير إلى أن الجامع والمئذنة من الفترة العثمانية، وينسب بناء المئذنة كما سجل في اللوحة التأسيسية إلى محمد باي عثمان الكبير ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م، ومحمد باي هذا هو الذي افتتح ثغر وهران، و ترتبط هذه المئذنة ارتباطا وثيقا من حيث الشكل العام للمئذنة ونظام البناء بالجامع من حيث الشكل العام للمئذنة ونظام البناء بجامع تلمسان الكبير ويعبر هذا التشابه عن استمرار طراز بني زيان في فترة العثمانيين. أما المئذنة الوحيدة الجديرة بالذكر في هذا الفصل والتي لم نتمكن من الوصول إليها فهي مئذنة جامع صالح باي بعبادة التي أقيمت في ١٢٠٦هـ / ٢ - ١٧٩١م وفقا للنقش الكتابي المسجد في لوحة مثبتة على مدخل الجامع^(١).

ومئذنة الجامع من المآذن أسطوانية الشكل من نوع المآذن قلمية الشكل التي تميز بها الطراز العثماني، وبدنها الرئيسي أملس عاطل من الزخرفة ينتهي بشرفة مستديرة بارزة عن سمت جدار البدن، ويتوسط سطح البدن على امتداده الصعودي جوسق يماثل البدن في الاستدارة، ولكنه قصير ينتهي من أعلي بشكل مخروطي مدبب ركب بقمته سفود يحمل ثلاث كرات معدنية (صورة ٣٧). ولا تبلغ هذه المئذنة في الرشاقة والارتفاع ما لمآذن جامع محمد علي بالقلعة في القاهرة أو مآذن جامع سنان باشا. وربما أوحى هذه المئذنة ببداية ظهور هذا الطراز المبتكر في هذا الجامع ولظروف ما لم ينشر في الجزائر كلها فبقي نموذجا فريدا يعبر علي أي حال من الأحوال عن تطور المئذنة العثمانية في الجزائر.

وبهذا نكون قد أخذنا نماذج مختلفة من المآذن العثمانية التي امتازت بالتنوع في الأشكال ونقص في الدقة الأشكال والإتقان والمهارة في البناء عكس ما عرفته

^(١) LES MOSQUEES EN ALGERIE, P. 64.

مآذن المغرب الأوسط من قبل. وتعتبر منذنة جامع المنصورة في تصورنا أرقى ما وصلت إليه المنذنة الجزائرية من تطور، ولكن المنذنة لم تلبث أن جنحت إلى البساطة المتناهية في العصر العثماني برغم ما عرفته العمارة العثمانية من تطور. ولا حظنا في هذا الفصل أن المآذن العثمانية خالية من أية تأثيرات أندلسية كما كان الأمر من قبل بل امتازت بعمارة ذات طابع خاص.

وبدراستنا لهذه المآذن نكون قد سلطنا الضوء على عمارة المآذن في المغرب الأوسط بدءا بعصر دولة بني حماد حتى نهاية الحكم العثماني، وتبقى بعد ذلك دراسة زخرفة المآذن في المغرب الأوسط. ونخرج من دراستنا المعمارية للمآذن بعدة خصائص تميزت بها:

فمن حيث عدد المآذن التي أقيمت في المساجد، نجد أن المسجد الواحد لم يكن مزودا بأكثر من منذنة واحدة بخلاف ما كان شائعا في مصر الإسلامية والدولة العثمانية، فقد كان يتوج جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة ومدرسة السلطان حسن مؤذنتان، وكان للجامع الأزهر ثلاثة مآذن وجامع محمد علي بالقلعة أربعة، وكان للمسجد الجامع ببورصة وجامع الفتح باسطنبول مؤذنتان وجامع أيا صوفيا أربعة وجامع دمشق ثلاث مآذن، وجامع الرسول (صلي الله عليه وسلم) في المدينة أربعة، وجامع السلিমانيّة بأدرنة بتركيا أربع، وجامع السلطان أحمد باسطنبول ستة. وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال محير: ما المغزى من الاكتفاء بمنذنة واحدة فقط في مساجد المغرب الإسلامي في حين تتعدد في المشرق وآسيا؟.

كذلك نلاحظ من حيث موقعها من المساجد أنها في المغرب الأوسط كانت تنتصب في المجنبية الشمالية للمسجد وأحيانا علي محور المحراب نفسه أو في أحد أركان بيت الصلاة أو الصحن. ففيما يتعلق بالمآذن التي تقع في المجنبية الشمالية علي نفس محور المحراب فتقليد لمنذنة جامع القيروان التي أقيمت في طليعة القرن الثاني الهجري و صفاقس في القرن ٣ هـ / ٩ م، كما تمثله أيضا مآذن جامع قلعة بني حماد والمسجد الجامع بتلمسان و جامع المنصورة، وكلها مآذن تقوم علي نفس محور المحراب. أما المآذن القائمة في أحد أركان بيت الصلاة فمن أمثلتها منذنة

جامع سيدي لخضر الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية للمسجد، ومنذنة جامع أولاد الإمام الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية لبيت الصلاة، وكذا منذنة الجامع الجديد (الحواتين) بالجزائر العاصمة، ومنذنة جامع سيدي أبي الحسن الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية لبيت الصلاة، ومنذنة جامع الباشا بوهراو وتقع في الزاوية الجنوبية الشرقية.

والحق أن موقع المآذن في الزوايا الركنية لبيت الصلاة أو الصحن وفي واجهة المسجد تقليد قديم ظهر بادئ ذي بدء في القيروان ثم في جامع المهدية ٣٠٤هـ / ٩١٦م وموقعها على هذا النحو في المساجد الجزائرية يشير إلى تأثير إفريقي، بل إن هذا التأثير امتد إلى القاهرة الفاطمية وتمثل في منذنتي جامع الحاكم بأمر الله حيث تقع في الركنين الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي وتبرزان عن الجدار الخارجي^(١).

ومن حيث أشكال المآذن الجزائرية، فقد رأينا أن بعضها مربع الشكل وهو الظاهرة الغالبة المميزة للطراز المغربي الأصيل، وبعضها الآخر مئمنة الشكل. وأما المآذن المربعة الشكل فيمكن تصنيفها من حيث المظهر العام إلى نوعين: نوع يتألف من ثلاثة طوابق كما هو الحال في منذنة جامع القيروان، ونوع يتألف من طابقين كما يتمثل في معظم المآذن الجزائرية، وربما يدعونا ذلك إلى القول بأصالة منذنة جامع قلعة بني حماد التي تتكون في رأينا من طابقين فقط، وهي النموذج الذي احتذته مآذن الجزائر و المغرب الأقصى وكذلك مآذن الأندلس في عصر الموحدين.

أما المآذن المئمنة الشكل فقد اختصت بها مآذن العصر العثماني وتتمثل في منذنة جامع الباشا بوهراو ومنذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة وكذا جامع الداي الجزائر العاصمة.

وتجدر الإشارة إلى أن مآذن الجزائر بوجه عام ذات ارتفاع متوسط يتناسب مع صغر مساحة المسجد أو كبره على عكس بعض المساجد في المشرق الإسلامي

(١) السيد عبد العزيز (سالم): المآذن المصرية نظرة عامة عن أصلها وتطورها، ص ١٨.

وآسيا. فمئذنة جامع قطب منار مثلاً يبلغ ارتفاعها ٧٣م، وجامع السليمانية باسطنبول ٦٣،٥٠م^(١)، أما أعلى مئذنة في الجزائر فهي مئذنة جامع المنصورة التي لا يتجاوز ارتفاعها ٣٨م.

أما من حيث التكوين المعماري للمآذن الجزائرية، فيمكن تصنيفها إلى مآذن ذات دعامة مركزية مصمتة وأخرى جوفاء، ففي الأولى تكون الدعامة المركزية عادة مربعة وفي بعض الأحيان مستطيلة أو مثمثة في المآذن المضلعة، وتجدر الإشارة إلى أن الدعامة المركزية في مئذنة الجامع الجديد بالجزائر العاصمة خماسية الأضلاع. ويمكن الصعود في المآذن ذات الدعامة المركزية المربعة إلى أعلى البدن الرئيسي عن طريق سلم درجاته مثلثة أو مربعة في الزوايا ومستطيلة على الجوانب، ولا توجد قاعدة عامة في التكوين الداخلي للمئذنة، فإن مقاسات الدعامة المركزية وعدد درجات السلم وعرضها وعددها في كل دورة يتغير من مئذنة إلى أخرى، ويسقف السلم الصاعد إلى شرفة المئذنة عادة قبوات نصف اسطوانية تنحصر بين قبوتين متقاطعتين، ولعل في تكوين مئذنة جامع قلعة بني حماد، ومئذنة جامع قسنطينة ما يشير إلى وضوح مظهر الأصالة المعمارية فيهما.

أما المآذن ذات الدعامة المركزية الجوفاء فتمثلها مئذنة واحدة فقط في الجزائر وهي مئذنة جامع المنصورة من العصر المريني، ويمكن الصعود إلى أعلاها بواسطة منحدر أو طريق صاعد، ويقع داخل المئذنة غرف للحراسة متراكبة أي تتعدد الطوابق فيها، وهذه المئذنة من المآذن الفريدة في المغرب الإسلامي التي تتميز بهذه الظاهرة.

(١) BOUROUBA®;...P.273.

الفصل الخامس

مقومات الزخرفة علي أوجه المآذن

في المغرب الأوسط

- (١) الزخرفة النباتية.
- (٢) الزخرفة الهندسية.
- (٣) النقوش الكتابية.
- (٤) المقرنصات.

لما كانت مساجد المغرب الإسلامي تقتصر مآذنها علي منذنة واحدة لكل مسجد، فقد كان طبيعيا أن يخصصها رجال الفن بعنايتها ويمهروها بكل القيم الجمالية المؤثرة فيودعونها قدرا كبيرا من الإبداع الفني ويفرغون علي جدرانها ضروبا متنوعة من الرقش والنقش والحليات وعلي هذا النحو تنوعت الزخرفة في المآذن الجزائرية حتى أصبحت حلة قشبية من الزخارف النباتية والهندسية والكتابية بالإضافة إلي عنصر آخر استخدموه كمادة زخرفية هي المقرنصات. وسنحاول تتبع هذه العناصر الزخرفية علي المآذن الجزائرية بدءا بمنذنة قلعة بني حماد إلي المآذن التي أقيمت في أواخر الفترة العثمانية.

١ - عناصر الزخرفة النباتية:

قبل الحديث عن الزخرفة النباتية علي المآذن الجزائرية، لابد من الإشارة إلي أن العناصر النباتية لم تستخدم أول الأمر استخداما واسعا علي المآذن بخلاف الزخرفة الهندسية التي أصبحت من الخصائص المميزة لزخارف المآذن الجزائرية، ولكن علي الرغم من ذلك ففي منذنة جامع قلعة بني حماد ما يمثل الزخرفة النباتية ويتمثل ذلك في اللوحة الحجرية التي تعلو عقد المدخل ويبلغ طولها ٩٤سم وعرضها ٣٢سم^(١) وهذه اللوحة محاطة بإطار من الزخارف النباتية أيضا قوامها أغصان وفروع متموجة ومراوح نخيلية بسيطة ومزدوجة، ويفصل الإطار الخارجي عن الحشوة المركزية شريط من الدوائر المنقوطة في وسطها والمتصلة فيما بينها كحبات اللؤلؤ، أما الحشوة المركزية فقوام زخارفها أغصان ومراوح تنتهي بأشكال زهرية مفصصة، وهذه الفروع والمراوح تتراوح وتتداخل فيما بينها علي غرار ما يعرف بزخرفة التوريق (شكل ٤٤). ومن الواضح أن هذه الزخرفة تبدو بسيطة ومتأثرة كثيرا بزخارف مقصورة جامع القيروان المتأثرة بدورها بزخارف سامراء الجصية، ولا تختلف عنها إلا في أن زخارف مقصورة جامع القيروان قريبة إلي الطبيعة، بينما تظهر زخارف منذنة جامع قلعة بني حماد محورة عن الطبيعة علي

(^١) BOUROUIBA ®; APPORTS DE L'ALGERIE... P. 317.

غرار الطراز الثالث لزخارف سامراء الجصية. أما في مئذنة جامع قسنطينة فتختفي الزخارف النباتية تماما وهو أمر يثير التساؤل فيما إذا ما كانت قد اندثرت مع ترميم المئذنة وإجراء بعض الإصلاحات المضافة إليها، أم أن المئذنة الأم كانت تخلو من الزخارف النباتية.

أما المآذن الزيانية فتغلب عليها الزخرفة الهندسية، أما الزخارف النباتية فتكاد تنعدم تماما ماعدا مئذنة المسجد الجامع بتلسمان حيث تتمثل في الطوق النحاسي الدائري والمجوف الذي كان يتوج مئذنة المسجد الجامع إذ تتخلل الكتابة بعض المراوح النخيلية البسيطة ومنها ما ينتهي بثلاثة فصوص.

أما في الفترة المرينية فقد أخذت الزخرفة النباتية تشهد نوعا من الانتعاش، فنجدها ممثلة علي واجهة مئذنة جامع المنصورة إذ تشكل عنصرا أساسيا يزدان به مدخل المئذنة، كما تظهر علي امتداد الحشوة الأولى للواجهة زخارف نباتية محفورة في الحجر تتداخل فيما بينها وتنتهي ببراعم ومراوح تخيلية بسيطة، ويحيط بهذه الزخارف النباتية شريط من الكتابة علي أرضية نباتية، كما أن الحروف تنتهي بمراوح تخيلية (صورة ٣٩)، وإذا كانت الزخارف النباتية لا تتمثل في بدن مئذنة جامع سيدي أبي مدين فإنها تظهر عنصرا أساسيا في زخارف الجوسق الذي تزدان واجهاته بتوريقات وفروع نباتية متشابكة تنتهي بمراوح ثلاثية الفصوص قد نفذت باللون الأسود علي أرضية بيضاء (صورة ٤٠) وتزدان بعض الحشوات بما يشبه زهرية تنبت منها تفريعات نباتية خضراء وسوداء وبيضاء وصفراء (شكل ٤٥).

أما في الفترة العثمانية فإن العناصر النباتية باتت محدودة جدا وأصبحت تستخدم في كثير من الأحيان مختلطة مع الزخارف الهندسية ففي مئذنة جامع سيدي لخضر، يظهر بأدنى الكوابيل شريط من الزليج يحمل زخارف متشابكة لأغصان وفروع نباتية صفراء اللون، أما في مئذنة جامع الداوي بقصبة الجزائر، فالزخارف النباتية تقتصر علي فروع وأغصان متموجة تختلط مع بعض الزخارف الهندسية في حين تتزايد هذه الزخرفة النباتية نسبيا في مئذنة جامع الحواتين، وإن كانت تتخذ أسلوبا واحدا، فبدن المئذنة يزدان بوزرة بيضية الشكل قوامها تربيعات خزفية

صغيرة متلاصقة فيما بينها تشغلها توريقات نباتية وتشكيلات هندسية باللون الأخضر والأزرق والأصفر والأبيض (صورة ٤١) أما في مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي فتتمثل في شريط عريض من الفسيفساء الخزفية يدور ببدن المئذنة قوام زخارفه أشكال نباتية من أغصان وفروع متموجة تختلط مع أشكال هندسية نجمية الشكل (صورة ٤٢) أما في مئذنة جامع الباشا بوهران فالزخرفة النباتية تختفي تماما.

والحق أن الزخرفة النباتية تظهر على استحياء على المآذن الجزائرية، في حين وجدت التشكيلات الهندسية ضالتها في تحلية مسطحاتها الخارجية.

٢ - الزخرفة الهندسية :

أن أهم ما يلفت النظر في زخارف المآذن بالمغرب الأوسط، تلك الغلالة الحجرية التي تكسو الواجهات الأربعة لتلك المآذن وتتخذ شكل شبكة من المعينات المترابطة والمتصلة فيما بينها، وهذا النوع من الزخرفة يعبر عنه باللغات الأروبية بالزخرفة اللوزنجية LOSENGE GRATING^(١).

شهدت مئذنة جامع قلعة بني حماد طرازا زخرفيا فريدا من نوعه بين المآذن، فقد ازدان وجه واحد منها فقط بالزخارف الهندسية الفريدة من نوعها بين مآذن المشرق والمغرب كله، فالقطاعان الجانبيان بواجهة المئذنة يزدان كل منهما بمشكاة مقعرة معقودة بعقد نصف دائري يحيط بعقد تشتبك فيه الفصوص ويتخذ شكل دلايات، ويدور هذا العقد حول مروحة تتشعب من وسطه الضلوع لتنتهي بفصوص متداخلة تشبه المحارة وتتخذ نفس سمات المشكاوات التي تزين برج المنار بالقلعة^(٢) والواقع أن هذا النوع من الأشكال المحارية (شكل ٤٦) شاع استعماله في العمارة الحمادية^(٣)، وبدلا من أن يطوق عقد مفصص كما هو ممثل في كثير من

(١) محمد عبد العزيز (مرزوق) : الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص ٨٧.

(٢) بورروبية (رشيد): الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها ص ٢١٣.

(٣) GOLVIN (L); RECHERCHES ARCHEOLOGIQUES A LA KALAA P.119.

الأمثلة الفاطمية بمصر، فإننا نشهده مطوقا بعقد بلغ الغاية في التعقيد، إذ يتألف من فصوص بعضها نصف دائرية، وبعضها الآخر مدببة تتقاطع فيما بينها. ومن المحتمل أن يكون الفنان الحمادي قد استوحى هذا التشكيل من العمارة الأفريقية بالقيروان ويتمثل في القبة المجزأة التي تعلو المحراب وكذا القبة التي تتقدمه.

وبالإضافة إلى هذا المثال هناك أشكال هندسية أخرى استعملت في المئذنة من ذلك اتخاذ تشكيلات زخرفية من قوالب الآجر المترابكة في أشكال منتظمة، وهذه القوالب مطلية بالميناء أخضر اللون (شكل ٤٧) ويزدان إطار النافذة الصماء بالمئذنة بزخرفة هندسية علي شكل حرف (Y) اللاتيني تحيط به قطع من الآجر، ويتوسط الزخرفة قطع من الفسيفساء الخزفية مربع ومعينة الشكل مطلية باللون الأخضر ويحيط بالزخرفة كلها عقد نصف دائري مدبب (شكل ٤٨). أما المشكاوات المسطحة السفلي فتزدان بقطع من الآجر المزجج أخضر اللون صفت علي نحو متناوب وشكلت ما يشبه الشبكة تاركة فيما بينها فراغا بداخله أشكال متعامدة (صلبان) أضلاعها متساوية، ويظهر من خلالها طلاء أرضية المشكاة (شكل ٤٩)، أما المشكاة الثانية فتكسوها قطع خزفية خضراء مزججة علي هيئة أشكال هندسية رؤوسها مستديرة مثقوبة في الوسط حتى يظهر طلاء سطح المشكاة (شكل ٥٠) وتتجلي هنا مقدرة الفنان الحمادي علي التنويع والتلاعب بالألوان بين سطح المشكاة والخزف الأخضر مما يضيف علي المئذنة جمالا ورونقا، وبفضل ذلك تميزت مئذنة جامع قلعة بني حماد بأصالة فنية بين مآذن المغرب الإسلامي كله في فترته المبكرة، وكان لهذه الأشكال الزخرفية تأثير علي القصور والكنائس في بالرمو بصقلية^(١).

واستنادا إلي الأدلة المادية يتبين لنا أن البلاطات الخزفية ظهرت لأول مرة في مئذنة جامع قلعة بني حماد، ويرى (اليزين) أن استعماله في هذه المئذنة يعكس تأثيرا

(١) BLANCHET(PAUL); "LA KALAA DES BENI-HAMMAD".IN. ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES LETTRES. COMPTES RENDUS DES SEANCES DE L'ANNEE, 1897, P.468.

شرقيا إيرانيا^(١) ولكن رأيه هذا لا يستند علي أدلة مادية يمكن الاطمئنان إليها، وحسب مطالعتنا الخاصة لم نجد مثالا أقدم من منذنة القلعة، لأن أقدم أمثلة المآذن الإيرانية المزينة بالبلاطات الخزفية يرجع تاريخها إلي القرن السادس الهجري ثم أن طريقة استخدام البلاطات الخزفية في تلك المآذن الإيرانية تختلف عنها في منذنة القلعة، حيث شمل في القلعة في مجالات واسعة، وإذا كنا قد اعترضنا علي هذا الرأي فإن ذلك لا ينفي ما لإيران من شهرة في صناعة البلاطات الخزفية، فهي عريقة في صناعتها، ولكن لا يعني بالضرورة أن تكون قد سبقت المغرب الأوسط في استعمالها لزخرفة المآذن خاصة إذا علمنا أن البلاطات الخزفية في القلعة استعملت في كسوة الأرضيات والجدران وشبابيك النوافذ ويمثل هذا رواق دار البحر في قلعة بني حماد. ويرى (مارسيه) أن القلعة الحمادية تضم أمثلة للبلاطات الخزفية سبقت بنحو قرن من الزمن مجموعة بلاطات (قونية) التي تعد أقدم البلاطات الخزفية^(٢).

ومن تصوري وفي ضوء الأدلة المادية والتسلسل التاريخي أن استعمال البلاطات الخزفية في زخرفة المآذن ابتكار حمادي.

وفي عصر بني زيان بلغت الزخرفة الهندسية أوجها، ونستطيع تقسيم مآذن بني زيان إلي نوعين، الأول يتعلق بالمآذن المزينة بشبكة من المعينات المتدخلة، وهذه الزخرفة ظهرت لأول مرة في محراب جامع قسنطينية، ثم استعملها الموحدون في زخرفة مآذنهم حيث ظهرت لأول مرة في جوسق منذنة الكتبية بمراكش، ثم شهدت رواجاً في منذنة جامع حسان بالرباط، وجامع القصبة الكبير بأشبيلية^(٣) وفي هذه المآذن نلاحظ أن المعينات المتشابكة ترتكز علي عقد أو عقدين أو ثلاثة، بينما ترتكز في المآذن الزيانية علي عقدين ويتمثل ذلك في الواجهة الشرقية لمنذنة المسجد

(^١) LEZINE (A); LE MINARET DE LA KALAA ...P.270.

(^٢) MARCAIS (G); POTERIES ET FAIENCES DE LA KALAA DES BENI-HAMMAD XI^e (SIECLE) D.BRAHAM EDITEUR. CONSTANTINE 1913, P. 10.

(^٣) BOUROUBA (A), L'ART RELIG ...P.187.

الجامع بتلمسان وعلي ثلاثة عقود في مئذنة جامع سيدي أبي الحسن، وفي جميع الجهات في مئذنة جامع سيدي إبراهيم وفي الواجهة الشرقية بندرومة، وعلي أربعة عقود في الواجهة الشمالية والغربية والجنوبية لمئذنة المسجد الجامع بتلمسان، وعلي خمسة عقود في الواجهة الشمالية والجنوبية بندرومة.

أما أشكال العقد فتختلف من عصر إلى آخر، فالموحدون استعملوا العقود المفصصة فقط، بينما استخدم الزيانيون العقد خماسي الفصوص، وكذلك العقد متعدد الفصوص (١١ فصا) والعقد المقرنص المزود برأس أو رأسين أو ثلاثة رؤوس، وتختلف العقود من مئذنة لأخرى، فبعضها يتألف من سبعة فصوص، وبعضها من تسعة، وبعضها الآخر عقود متجاوزة منكسرة كما هو الشأن في مئذنة جامع سيدي إبراهيم الذي تزدان الوزرات المربعة فيها بالفسيفساء، كما تزدان المآذن الزيانية بحشوة زخرفية تقع عادة أدنى شبكة المعينات تمتد عرضا حيناً، ويقل عرضها عنها حيناً آخر.

أما النوع الثاني من المآذن الزيانية فعاطل من شبكة المعينات المتداخلة ويمثل هذا النوع جامع الجزائر العاصمة، ومئذنة جامع أولاد الإمام، ومئذنة جامع المشور، فبالنسبة للمئذنة الأولى، فإنها فقدت خصائصها الزيانية تقريبا، أما الثانية فتزدان بحشوتين مستطيلتي الشكل متراكبتان العليا منهما مزينة بعقدين خماسي الفصوص داخل إطار مستطيل يطوقه بدوره إطار آخر مستطيل من الفسيفساء وهذا تجديد ظهر واضحا في تطور نظام الزخرفة علي المآذن في المغرب الأوسط. أما مئذنة جامع المشور فتزدان جوانبها الأربعة بحشوة مستطيلة تتكون من صفين من العقود المترابكة خماسية الفصوص وإحدى واجهاتها مزينة بحشوة مستطيلة الشكل تتخللها شبكة من المعينات المتشابكة ولكن ليست كالتى نجدها في مئذنة جامع تلمسان أو أبي الحسن، ويزين أرضيتها قطع هندسية من الزليج وألوانها الأبيض والأسود تمتاز معها توريقات ثلاثية الفصوص، ويحيط بجميع الزخرفة شريط من الكتابة (صورة ٤٣).

أما في مئذنة جامع سيدي أبي مدين فتزدان واجهاتها بشبكات من المعينات

المتشابكة ترتكز علي ثلاثة عقود مقرنصة ذات رأس واحد وذلك في كل من
الواجهتين الشرقية والغربية للمئذنة ويتخلل الزخرفة أحيانا توريق من ثلاث شحومات
(شكل ٥١) كما تزدان المئذنة أيضا بشريط تشغله شبكة من صف واحد من المعينات
هي امتداد لعقد تختلط الخطوط المستقيمة بالمنحنيات مزود إما برأس واحد أو
براسين مدبيين، وهذا النوع من الزخرفة أستخدم من قبل في زخرفة جميع واجهات
مئذنة جامع الكتبية بمراكش، أما الشرفة فتزدان بست عشرة شرافة مدبية ملبسة
بالفسيفساء.

ويشير بورويبة أن المرينيين هم أول من زين شرافات المآذن بالفسيفساء^(١)،
ويمثل هذه الظاهرة ثلاثة مساجد في فاس هي:

المسجد الجامع بفاس، وجامع أبي الحسن، وجامع الشرايين، أما واجهات
جوسق مئذنة سيدي أبي مدين فتزدان بشريط من الزخارف الهندسية لا تعدو أشربة
مستطيلة الشكل ضيقة تتقاطع فيما بينها وتكون أطباقا نجمية متقنة بالإضافة إلي
بعض الخطوط المتعرجة (صورة ٤٤).

ومن الجدير بالذكر أن جوسق المآذن المرينية في الجزائر وتتمثل في مئذنتي
جامع سيدي أبي مدين، وسيدي الحلوى يغطيها كسوة من الفسيفساء الخزفية، وفي
تصوري أن هذا النوع من الزخرفة يعكس تأثيرا زياتيا بدليل أن أقدم جوسق تزينه
كسوة الفسيفساء الخزفية هو جوسق مئذنة جامع سيدي أبي الحسن في الفترة
الزيانية ويرجع تاريخه إلي ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦م في حين أن أقدم مثال مريني لهذه
الكسوة الفسيفسائية الخزفية تتمثل في جوسق مئذنة جامع سيدي أبي مدين ٧٣٨
هـ / ١٣٣٨م.

ولقد شاع استخدام الزخارف الهندسية علي نطاق واسع وعلي نحو فريد من
نوعه في مئذنة جامع المنصورة إلي حد أن الواجهة كسيت كلها بشبكة من المعينات
الهندسية تحددها ضفيرتان الأولى عبارة عن فصوص مستديرة تتناوب مع أخرى

(١) BOUROUBA ®; L'ART RELIG...P. 274.

منكسرة، أما الضفيرة الثانية فتتألف من فصوص دائرية فقط، ويشكل تقاطع الضفيرتين معينات علي شكل عقود مفصصة تتناوب فيها فص نصف دائري مع فصين مدبيين، وتقوم هذه الشبكة من المعينات علي عقدين كل منهما نصف دائري ذي ضفيرتين وتشكلان سبعة فصوص نصف دائرية يتناوب كل واحد منها مع فصين مدبيين ويكسو سطح هذه المعينات قطع خزفية بنية وزرقاء صفت بالتناوب مع قطع خضراء في أنصاف المعينات المحاذية لإطارات اللوحة والفراغ الفاصل بين ضفيرتي المعينات (شكل ٥٢) وتزدان المئذنة أيضا بزخارف معقدة من أشكال هندسية متداخلة مع أغصان ووريقات نباتية بالإضافة إلي كتابات (شكل ٥٣)، أما المحارتان المتناظرتان اللتان تزينان الحشوة الزخرفية الأولى التي تعلو مدخل الباب فصفيرتان وفي تصوري أنها تقليد لزخرفة مئذنة جامع قلعة بني حماد من القرن ١١م (صورة ٣٩).

وإذا كانت الزخارف الهندسية عنصرا أساسيا في تزيين المآذن الزيانية والمرينية، فقد قل استخدامها في العصر العثماني، وأصبحت وقفا علي بعض العناصر المعمارية، ففي مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة يمكن اعتبار الكوابيل التي تدعم شرفة المئذنة بمثابة تنميقات هندسية بالإضافة إلي دورها المعماري (صورة ٢٧)، أما في مئذنة جامع الجيش بالجزائر العاصمة فقد اقتصرت الزخرفة الهندسية علي خطوط متعرجة بالإضافة إلي بعض المربعات البيضاء التي تتناوب مع أخرى سوداء (صورة ٢٨)، بينما يظهر في مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الشعالبي نوع جديد من الزخارف الهندسية علي الواجهات الأربع للمئذنة، وتتألف من ثلاثة طوابق متراكبة في عقود توأمية ثلاثة في كل طابق تحملها أربعة أعمدة من الرخام، وهذه العقود مشقوقة من وسطها، ويفصل بين الطابق والآخر شريط عريض من الزخارف النباتية تتمثل في بلاطات خزفية (صورة ٣٢)، وهذا النوع من الزخارف استحدث في الفترة العثمانية، وتنفرد به هذه المئذنة وحدها إذ لا نجد له نظيرا في المآذن الأخرى في الفترة نفسها، وأما الزخرفة الهندسية في مئذنة جامع الباشا بوهرا ففتحتفي تماما في أوجه المئذنة وتقتصر الحليات علي بعض العقود المتشابكة

والمتداخلة التي تزين كل حشوة في كل واجهة من واجهات المئذنة (صورة ٣٥). أخذت الزخرفة القائمة على تشكيلات الفسيفساء انتشارا واسعا في تزيين المآذن الزيانية والمرينية بوجه خاص، ويبدو أنهم تأثروا في ذلك بالموحدين الذين أكثروا في زخرفة مآذنهم^(١) وإن كان الحماديون في حقيقة الأمر هم أول من استعمل البلاطات الخزفية في زخرفة مآذنهم، ويغلب على الظن أن هذه الطريقة في الزخرفة انتقلت إلى الموحدين بعد دخولهم القلعة، وربما كانت المئذنة في تلك الفترة ما تزال تحتفظ بصورتها القشبية، فتأثر الموحدون بزخارفها، وإن كان بعض الباحثين يرون أن بلاد الأناضول هي مصدر البلاطات الخزفية^(٢) وإذا صح رأينا فإن مئذنة القلعة كان لها أثر بارز في زخارف المآذن الموحدية والزيانية باعتبارها مصدرا للبلاطات الخزفية. فلأول مرة في تاريخ الفن الإسلامي تظهر في مئذنة جامع سيدي أبي مدين الحشوة العلوية استخدمت فيها زخرفة الفسيفساء الخزفية سواء في أوجه المآذن أو في الشرافات بخلاف البائكة التي تتوج بدن المآذن موحدية الطابع، وهذا بطبيعة الحال إبداع مريني في مجال الفنون الإسلامية^(٣) (صورة ٢٤ و ٢٥).

ويمكن اعتبار مرحلة بني زيان وبني مرين المرحلتين اللتين عرفت فيهما المئذنة الجزائرية أوج تطورها من حيث الأناقة والمظهر الجمالي، بينما أصبح بدن المآذن في الفترة العثمانية أملاسا وخاليا من الزخارف المشبكة البارزة المكونة من الآجر، واقتصرت الحليات على بعض قطع من الزليج^(٤).

٣ - النقوش الكتابية :

لم تلعب الزخرفة الكتابية دورا كبيرا في زخرفة المآذن الجزائرية فباستثناء بعض الأمثلة القليلة للغاية يمكن أن يقال أنها كانت تخلو من هذه النقوش الكتابية.

(^١) TERRASSE (H); L'ART HISPANO MAURESQUE, PARIS LES EDITIONS G.VAN OEST 1932, P. 323.

(^٢) EKREM (A); OP CIT, P. 180.

(^٣) BOUROUBA ®; APPORTS DE L'ALGERIE... P. 301.

(^٤) RICARD(P), POUR COMPRENDRE L'ART ...P. 201.

فمنذنتا جامع قلعة بني حماد وجامع قسنطينة تخلوان تماما من أية نقوش كتابية، ولكننا لاحظنا في دراستنا أن أول مثل للمآذن التي تحمل نقوشا كتابية يتمثل في الطوق النحاسي الدائري الذي كان يتوج أعلى منذنة المسجد الجامع بتلمسان في عصر بني زيان، وهو الآن محفوظ بمتحف الآثار القديمة بالجزائر العاصمة ويتمثل ذلك في عبارة (اليمن والإقبال) التي كتبت بخط لين بارز علي الأرضية بحيث تتدخل بعض المراوح النخيلية مع حروف الكتابة وتنتهي ببرعم أو أكثر يتوسطها (شكل ٥٤).

ويحيط بأحدي واجهات منذنة جامع المشور شريط من الكتابة بالخط النسخي علي مهاد من التوريفات وقد تعذر علينا قراءتها بسبب العوامل الطبيعية التي أثرت علي الشريط (صورة ٤٣).

أما الأستاذ بورويبة فاستطاع أن يقرأ كلمتي (اليمن و الإقبال) وقد سبق أن سجلتا في منذنة المسجد الجامع بتلمسان وكذلك علي زخرفة مدهونة يحتفظ بها متحف تلمسان حاليا، ويقال أنه عثر عليها في أحد المنازل القديمة بالمدينة، كما تزدان بها مزهرية بقصر الحمراء بغرناطة، ومن الجدير بالذكر أن الاستاذ بورويبة عثر علي هذه العبارة منقوشة علي سوار في قلعة بني حماد أثناء الحفريات التي أجراها في الجهة الجنوبية من بيت الصلاة بالمسجد الجامع بالقلعة الحمادية وذلك في سبتمبر ١٩٦٧^(١)، كما عثر علي نقش كتابي آخر يتمثل في عبارة يتضرع صاحبها لله سبحانه وتعالى ونطالع فيها النص التالي: "يا ثقتي يا أملي، أنت الرجا أنت الولي، اختم بخير عملي " وقد شاع هذا النوع من العبارات في عصر بني مرين حيث يتمثل في الرواق الداخلي في مسجد سيدي أبي مدين^(٢).

وهناك مثل آخر للنقوش الكتابية علي مآذن المغرب الأوسط يتمثل في واجهة منذنة سيدي أبي مدين حيث توجد حشوة مربعة إطارها الخارجي يزدان بخطوط

(١) BOUROUBA @; APPORTS DE L'ALGERIE ...P.316.

(٢) IBID, P. 316.

هندسية متضافرة، أما وسط الحشوة فتشغلها كتابة أنيقة بالخط الكوفي مربع الزوايا نصفها وفق قراءتنا (بركة محمد)،، في حين قراءها (مارسيه) علي أنها (بركة محمد) (شكل ٥١)، والدليل علي صحة قراءتنا وجود نفس هذا النقش الكتابي (بركة محمد) علي أحد جدران مسجد الشراييين بفاس في العهد المريني^(١).

كذلك يحيط بالإطار الذي زين مدخل مئذنة جامع المنصورة من نفس العصر شريط من الكتابة الخط النسخي علي أرضية نباتية بحيث تتداخل الأغصان والفروع مع الكتابة إلي حد يتعذر معه قراءتها، وتضمن النقش ما يشير إلي تاريخ بناء الجامع والمئذنة وقد سبق أن أشرنا إليه من قبل في دراستنا لمئذنة جامع المنصورة من الوجهة المعمارية (صورة ٣٩).

٤ - المقرنصات:

المقرنصات أو المقربصات أو الدلايات كلها مسميات لمدلول واحد وهو عنصر أصله معماري ثم تحول إلي عنصر زخرفي أقبل عليه المزوقون كحليات معمارية بحيث أصبح عنصرا من أبرز عناصر الزخارف الإسلامية التي ليس فيها روح. وأصل هذا العنصر الزخرفي يرجع إلي الكوة التي تقام فوق الأركان الأربعة لتحويل القاعدة المربعة إلي مئذنة أو المئذنة إلي ١٦ ضلعا أو إلي ٣٢ ضلعا أو إلي ٦٤ حسب عدد الحطات تمكينا لمحيط القباب نصف الكروية الاستقرار عليها، ويعرف الفراغ القائم ما بين القاعدة المربعة ومحيط القبة برقبة القبة، وقد تفنن المهندسون في وضع تلك الكوي وفي تنسيقها وتزيينها حتى بدت تحفا رائعة من الفن الجميل. ولقد شاع استخدام المقرنصات في تزيين الفتحات في أبواب ونوافذ وعقود ومداخل وأركان وكذا المئذنة^(٢).

وأول مثل للمقرنصات الزخرفية نشهده في القبة التي تتقدم المحراب بالمسجد

(١) BOUROUBA ®; L'ART RELIG ...P. 274.

(٢) محمد عبد العزيز (مرزوق): الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه، مطبعة أسعد، بغداد

١٩٦٥، ص ١٨٤.

الجامع بتلمسان المؤرخ ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م، ولكن أصل القرنصات حسب الأدلة المادية وحتى التسلسل التاريخي يرجع إلى قلعة بني حماد، وإن كانت مقرنساتها بدائية تخلو من مظاهر الجمال التي تتمثل في القبة التي تتقدم المحراب بجامع تلمسان.

وتظهر المقرنصات في واجهة منذنة جامع المنصورة في عصر بني مرين علي شكل صف من المقرنصات (صورة ٤٥)، وهذه المنذنة هي الوحيدة من بين مآذن المغرب الإسلامي التي تزدهان بالقرنصات^(١).

(^١) GABRIEL @; L'ART DECORATIF MUSULMAN, PARIS, MARCEL RIVIERE EDITER, PARIS 1934, P. 31.

الخاتمة

خاتمة :

استطاعت منذنة جامع القيروان أولي مآذن المغرب الإسلامي أن تحدد شكل المنذنة وتخطيطها ووضعها في الجامع في المغرب والأندلس، وذلك منذ فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي، ثم شهدت المنذنة بعض المتغيرات الطفيفة نتيجة لتعرضها للتأثيرات والتقاليد الإقليمية الغالبة في كل بقعة من أرض المغرب، وأن ظلت تحتفظ بالشكل العام المربع الذي يعتبر صدي لمنذنة جامع القيروان، ويتمثل ذلك في منذنة جامع قلعة بني حماد التي تتشابه في الشكل العام مع منذنة القيروان، وتختلف معها في كثير من التفاصيل المعمارية والزخرفية، فمنذنة جامع قلعة بني حماد تتكون من طابقين وتعتبر مصدرا لمآذن الموحدين الذين تأثروا بالعمارة الحمادية بعد أن استولوا على قلعة بني حماد، ولقد ظهر تأثير منذنة القلعة على منذنة الكتبية بمراكش، ومنذنة جامع حسان بالرباط، وكذلك على منذنة جامع الموحدين بأشبيلية من حيث الطابع العام، ومن حيث التوزيع الزخرفي.

ولقد أثرت المآذن الموحدية بدورها في مآذن بني زيان سواء في النظام العام أم في الزخرفة، أما من حيث النظام الداخلي للمآذن، فلقد سارت مسار منذنة القلعة إلى شكل كبير، وتعتبر منذنة جامع المشور الفريدة من نوعها بين مآذن المغرب أرقى ما وصل إليه تطور فن زخرفة المآذن الزيانية بالمغرب الأوسط. ولهذا السبب فإن المآذن الزيانية تتميز بوحدة في جوهر البناء مع بعض الاختلافات البسيطة التي تتمثل في فتحات الإضاءة، أو المقاييس والنسب وفق مساحة المسجد، وأما من حيث المظهر الخارجي فقد تشابهت فيما بينها في طريقة توزيع الزخارف ورغم وجود بعض الاختلافات في التفاصيل كما هو الحال في منذنة جامع سيدي أبي الحسن، ومنذنة جامع المشور، ومنذنة جامع أولاد الإمام. هذا وقد استخدمت في زخرفة واجهات مآذن هذا العصر وجواسقها لأول مرة الكسوات الخزفية، وكان لهذه الطريقة صدي كبير في العصر الذي يليه.

أما في عصر بني مرين، فتمثل منذنة جامع المنصورة أرقى ما وصلت إليه المنذنة الجزائرية حيث عرفت تطورا مذهلا من حيث الطابع العام، والنظام الداخلي

والكسوات الخزفية، فقد حذت هذه المئذنة حذو المآذن الموحدية وعلي الأخص مئذنة جامعي القصبه والكتيبة بمراكش، ومئذنة جامع حسان بالرباط، ومئذنة جامع الموحدين باشبيلية وذلك باحتوائها علي دعامة مركزية جوفاء تتكون من غرف متراكبة استخدمت مخازن لأدوات الجامع.

ولعل استعمال الطريق الصاعد في مئذنة جامع المنصورة يمثل تطورا في عمارة المآذن في عصر بني مرين، وقد فاقت هذه المئذنة بوجه خاص ومآذن بني مرين بوجه عام مآذن المغرب الأوسط في العصور السابقة حيث بلغت غاية التطور في مجال الزخرفة والبناء مما يعبر عن قدرات عالية وصل إليها فن العمارة والزخرفة في العصر المريني.

وفي العصر العثماني عرفت المئذنة الجزائرية تطورا في الأشكال لم تكن معروفة من قبل، فأقيمت مآذن مربعة القاعدة علي غرار المآذن المغربية التقليدية وأخري مئذنة الشكل، وأخري مربعة ومئذنة في آن واحد، ولقد أثري العثمانيون العمارة الإسلامية في الجزائر ببعض الأشكال والطرز التي نعتبرها تطورا لفن المئذنة في العمارة الإسلامية، إلا أن الشكل العام للمئذنة العثمانية اتسم بانحطاط في الذوق الفني، فقد أصبحت أبدان بعض المآذن عاطلة من الزخارف، بينما ازدان بعضها الآخر بقطع من الزليج أي أن المئذنة الجزائرية فقدت حلتها الزخرفية التي تميزت بها في عصر بني زيان وبني مرين، كما يعتبر استعمال الشرافات المنكسرة المنحنية الممثلة في جامع الجيش وجامع الحواتين بمدينة الجزائر المفتوح علي واجهاته الأربع يعبر عن ابتكار عثماني لم يكن معروفا من قبل، ويعتبر الجوسق الوحيد في العمارة الإسلامية بالجزائر الذي أقيم علي هذا النظام.

وبالرغم مما عرفته العمارة العثمانية من تطور، فإن المآذن التي أقاموها بالجزائر تفتقد الدقة والإتقان والمهارة في البناء، وحق لنا القول أن العصر العثماني يعتبر مرحلة تقهقر وانحطاط في تاريخ المئذنة الإسلامية بالجزائر.

وأما من حيث تطور العناصر الزخرفية علي المآذن الجزائرية فلقد رأينا أن

الزخرفة النباتية لم تكن تستعمل على نطاق واسع، فقد كانت تقتصر على بعض الفروع والأغصان المتموجة وبعض المراوح النخيلية البسيطة وهي إن كانت قد مرت بمرحلة انتعاش في عصر بني مرين، إلا إنها اضمحلت تماما في العصر العثماني، وأصبحت تتمثل ممتزجة مع بعض الزخارف الهندسية.

أما الزخارف الهندسية فقد سارت منذ عصر بني حماد حتى العصر الزياني فالمريني، وتميزت بظهور أشكال جديدة، وطريقة جديدة في الزخرفة أعطت للمآذن الجزائرية طابعا مميزا لها في العصور الوسطى، بينما شهدت اضمحلالا واضح المعالم في العصر العثماني.

ونستنتج مما سبق أن العصرين الزياني والمريني يمثلان المرحلة التي بلغت فيها المئذنة الجزائرية أوج تطورها من حيث التكوين المعماري والزخرفي والمظهر الجمالي.

أما عن الزخرفة الكتابية فلقد تمثلت في بعض العبارات الدعائية المتكررة على أوجه بعض المآذن وكذلك في عبارات تضرع لله وكتابة تأسيسية كما هو الحال في مئذنة جامع المنصورة، ولقد سجل أغلبها بالخط النسخ ماعدا كتابة واحدة بالخط الكوفي.

أما عن المقرنصات فقد انفردت بها مئذنة جامع المنصورة بتلمسان إذ ظهرت في شكل صف تتفاوت فيه الحطات واحدة كبيرة وأخرى صغيرة بالتناوب، وربما كان لغلبة الزخرفة الهندسية أعظم الأثر في الإحياء للباحثين في زخارف المآذن بالمغرب الأوسط بأن الزخرفة الهندسية كانت العنصر الرئيسي في تنميق المآذن.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة	١١
الدراسة التمهيدية	١٧
١ - التعريف بالمنذنة	١٧
٢ - أشكال المآذن	٢٠
٣ - المآذن الأولى في الإسلام ومصادرها	٢١
٤ - المآذن المبكرة في المغرب والأندلس	٢٥
أ - منذنة جامع القيروان	٢٥
ب - منذنة جامع صفاقس	٢٧
ج - منذنة جامع قرطبة	٢٧

الفصل الأول

المنذنة في عهد بني حماد

تمهيد	٣١
١ - الطابع العام لمآذن بني حماد	٣٢
٢ - منذنة جامع قلعة بني حماد	٣٤
٣ - منذنة المسجد الجامع بقسنطينة	٤٢

الفصل الثاني

المنذنة في عهد بني زيان

تمهيد	٤٩
١ - الطابع العام للمنذنة في عهد بني زيان	٥٠

٥٣	٢ - مئذنة المسجد الجامع بتلمسان
٥٦	٣ - مئذنة جامع ندرومة
٥٨	٤ - مئذنة جامع سيدي أبي الحسن
٦١	٥ - مئذنة جامع المشور
٦٣	٦ - مآذن زيانية أخرى

الفصل الثالث

المئذنة في عهد بني مرين

٦٩	تمهيد
٧٠	١ - الطابع العام للمئذنة في عهد بني مرين
٧٢	٢ - مئذنة جامع المنصورة بتلمسان
٨٢	٣ - مئذنة جامع سيدي أبي مدين

الفصل الرابع

المئذنة في عهد العثمانيين

٨٩	تمهيد
٩٠	١ - الطابع العام للمئذنة في عهد العثمانيين
٩٢	٣ - مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة
٩٤	٣ - مئذنة جامع الجيش بقصر الداى بالجزائر العاصمة
٩٦	٤ - مئذنة جامع الحواتين (الجامع الجديد) بالجزائر العاصمة
١٠٠	٥ - مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي
١٠٢	٦ - مئذنة جامع الباشا بوهران

الفصل الخامس

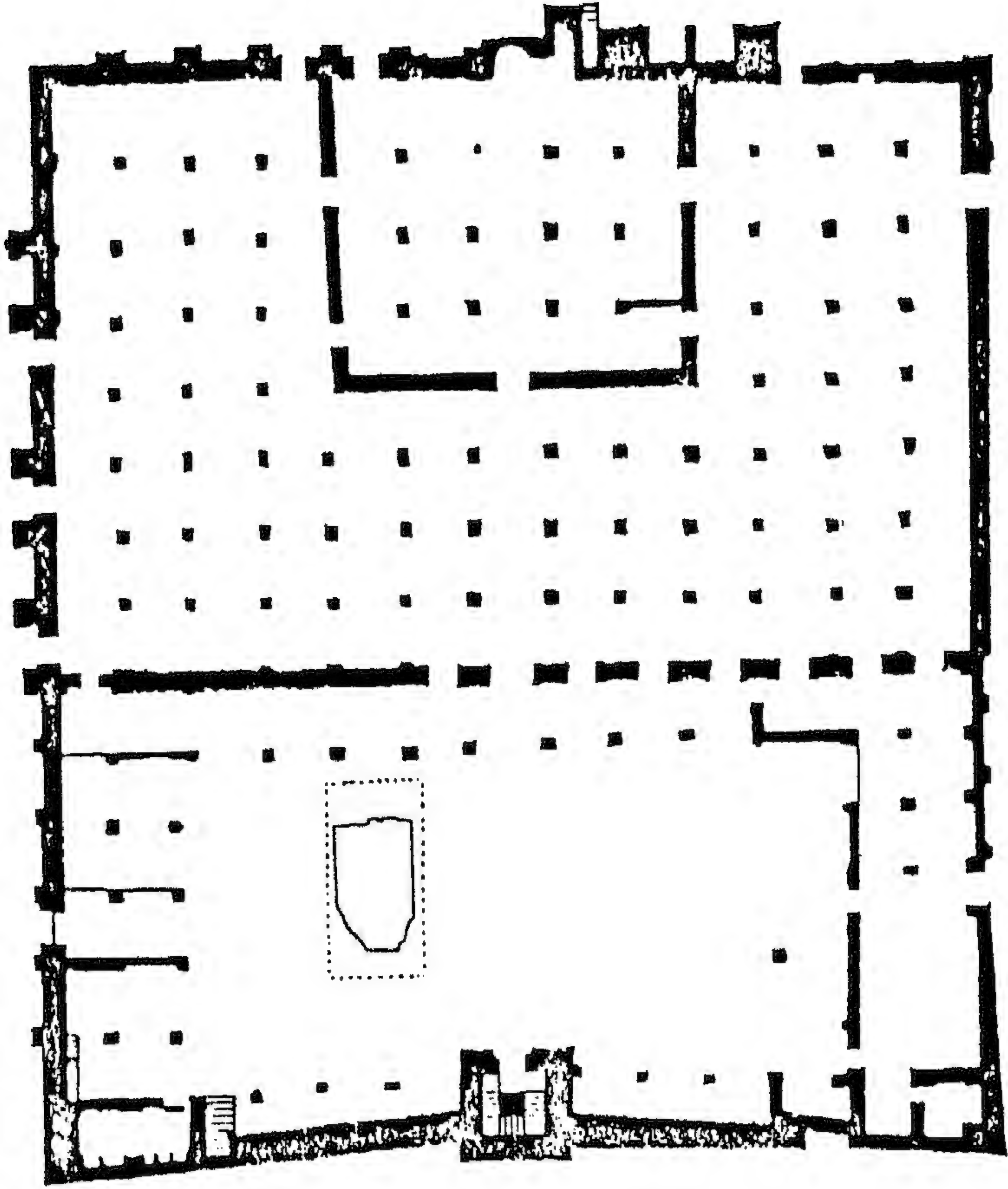
مقومات الزخرفة علي أوجه المآذن

في المغرب الأوسط

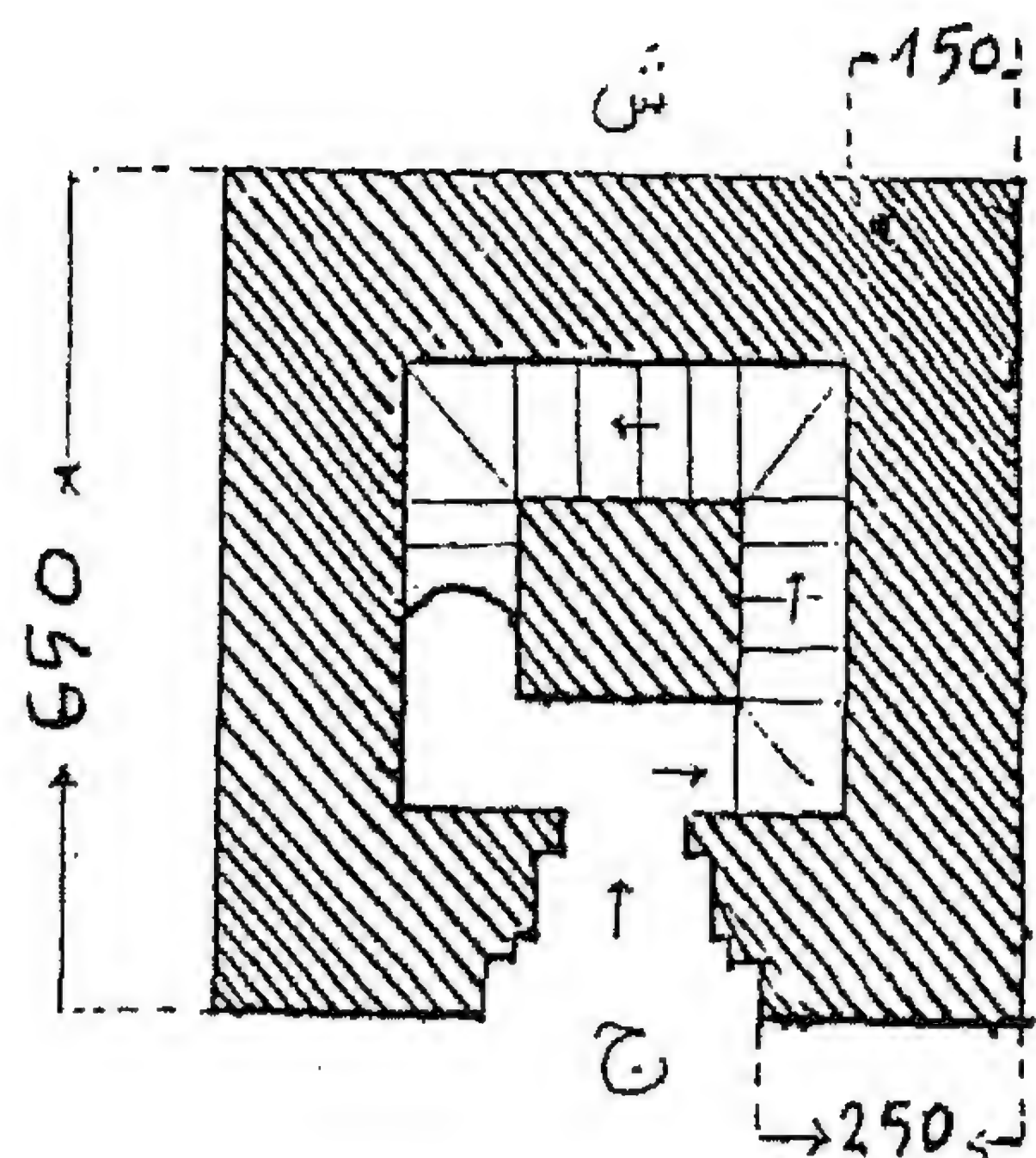
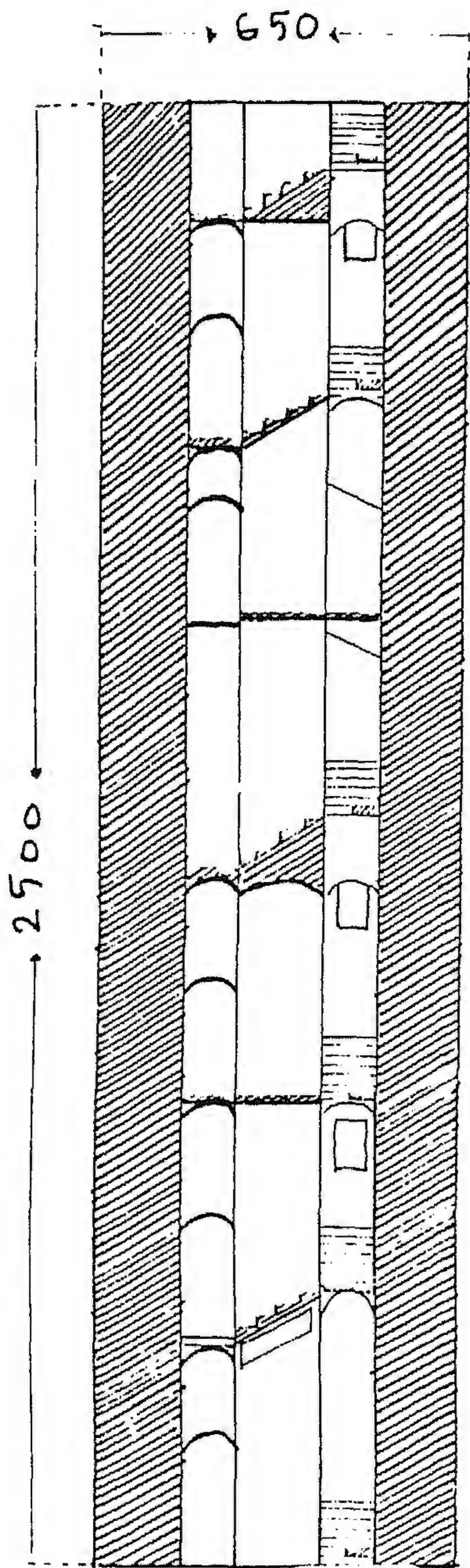
١١١	١ - عناصر الزخرفة النباتية
١١٣	٢ - الزخرفة الهندسية
١١٩	٣ - النقوش الكتابية
١٢١	٤ - المقرنصات
١٢٣	الخاتمة
١٢٩	فهرس الأشكال
	فهرس الموضوعات

ثبت الأشكال واللوحات

أولاً: الاشكال

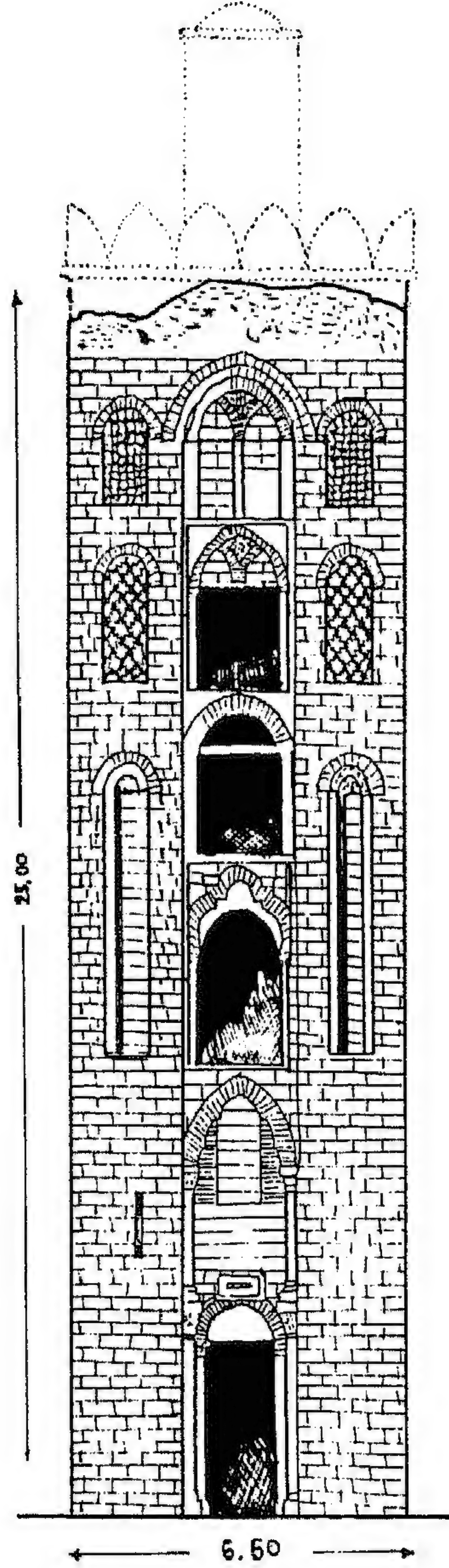


شكل (١) : جامع قلعة بنى حماد . (عن بورويبة)

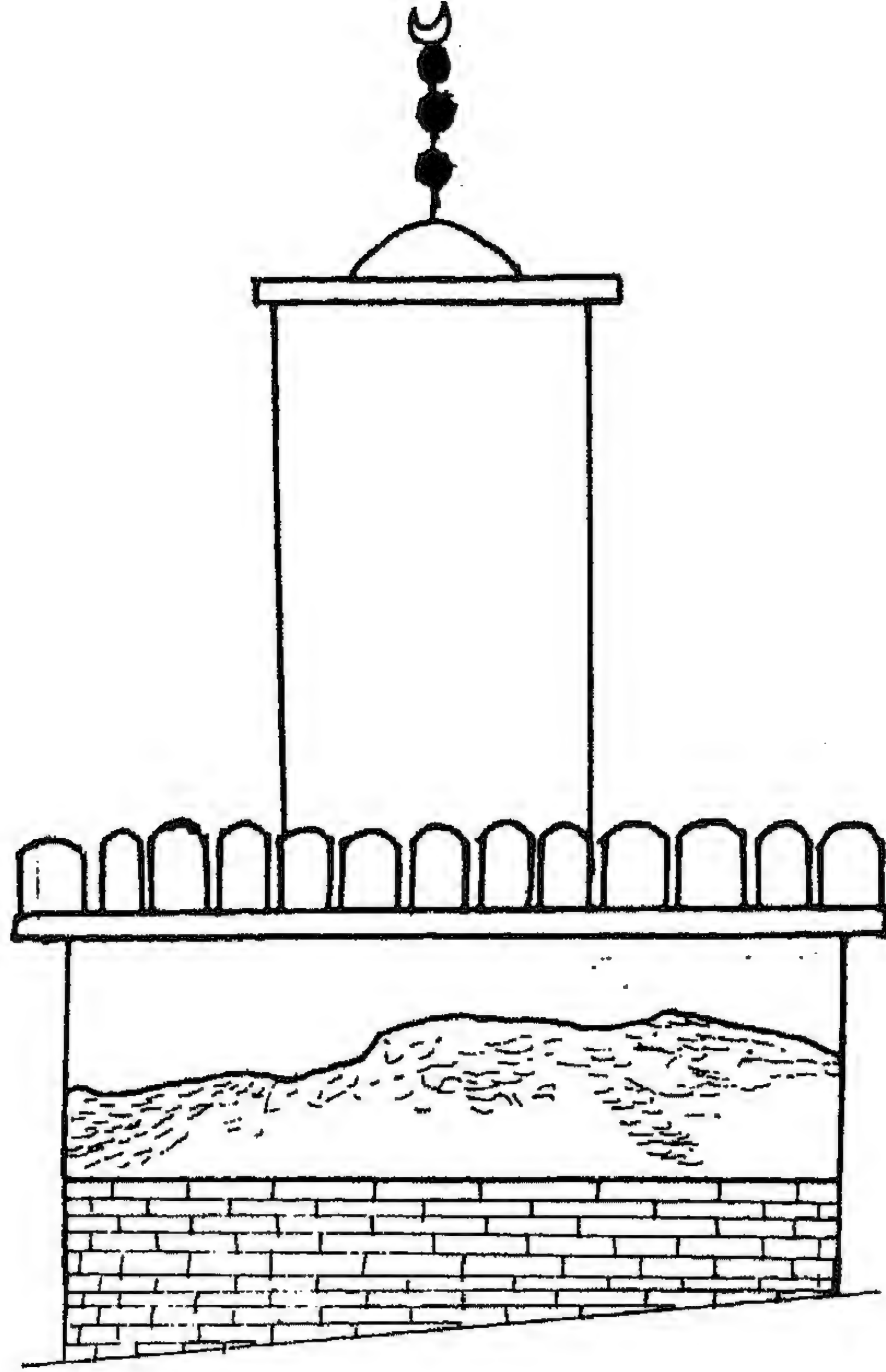


شكل (٢) : مقطع عرضي لمئذنة
مسجد قلعة بني حماد
بسلم ١ : ١٢٥

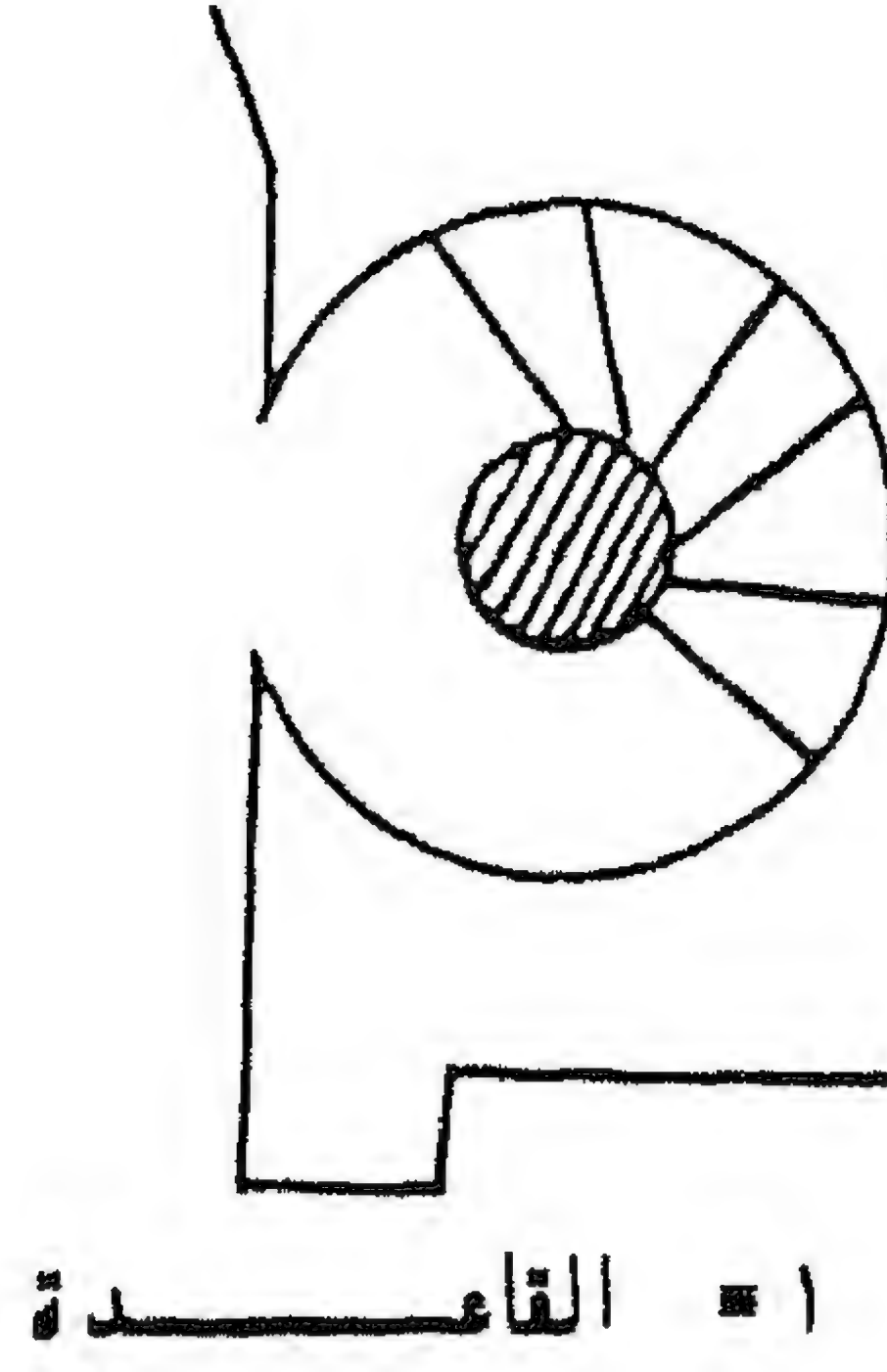
شكل (٣) : مقطع طولي لمئذنة مسجد قلعة بني حماد
بسلم ١ : ١٢٥



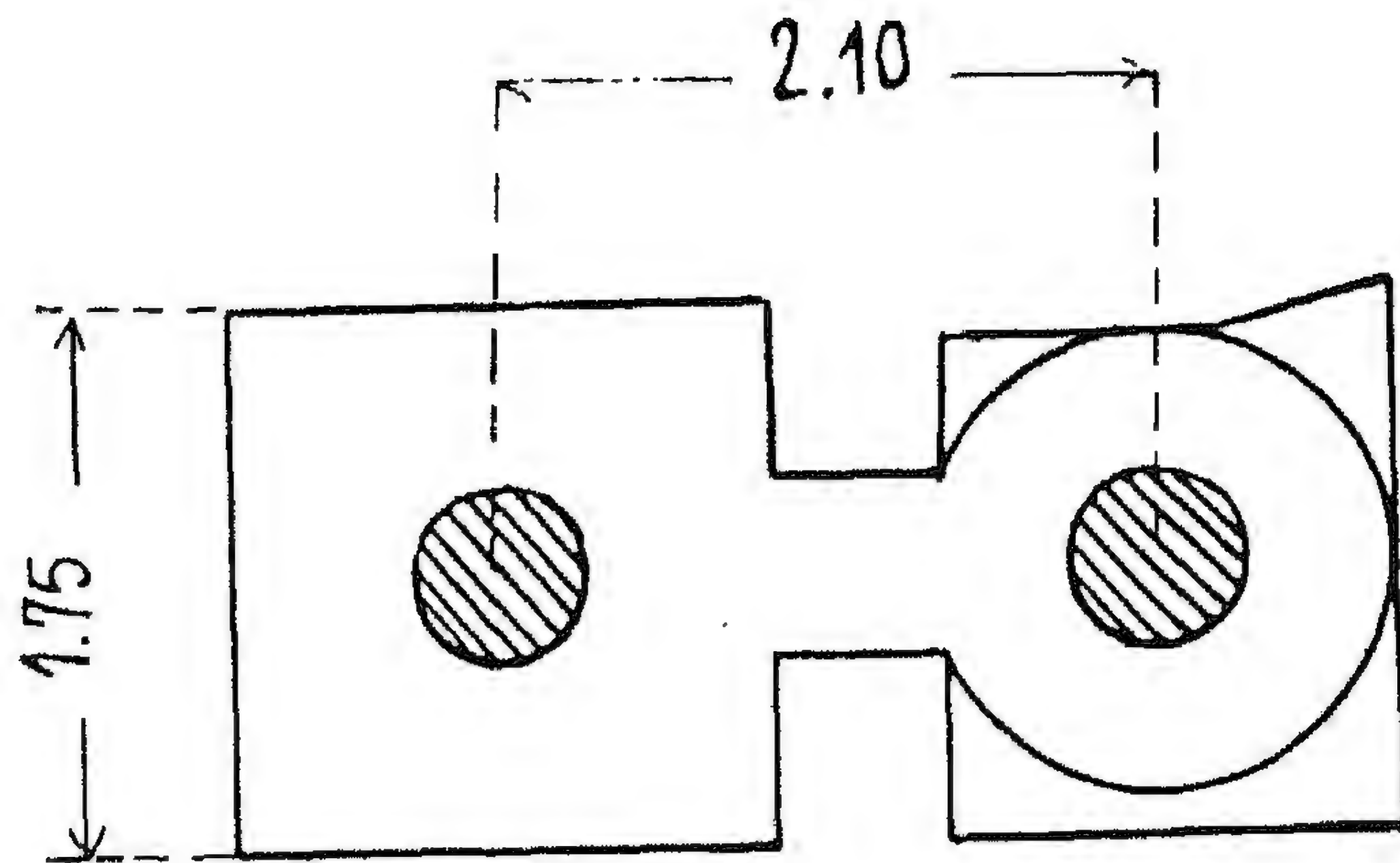
شكل (٤) : رسم تخيلي لجوسق مئذنة مسجد قلعة بني حماد
(الجزء العلوى) " عن مارسية " .



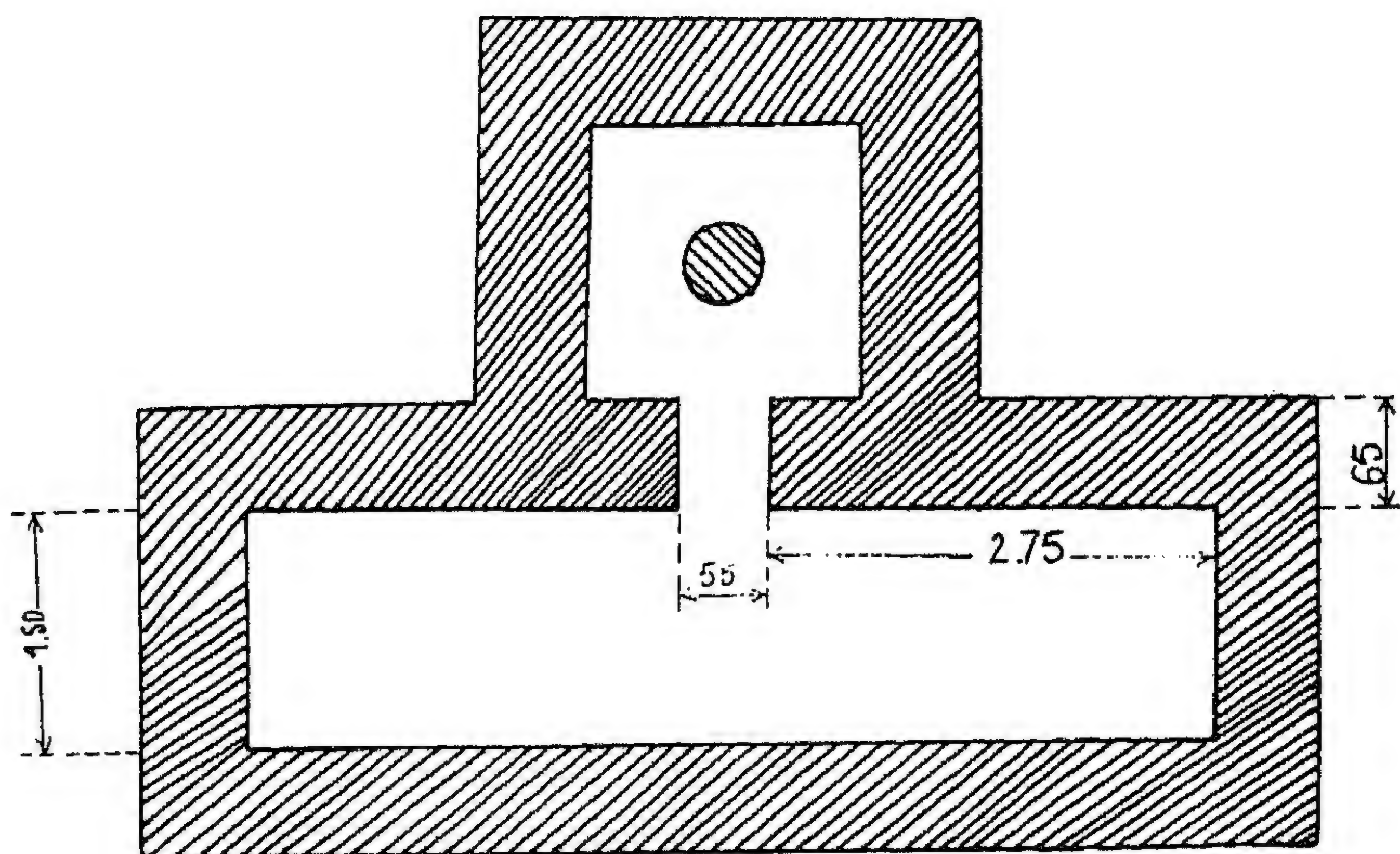
شكل (٥) : جوسق مئذنة مسجد قلعة بني حماد
من تصور الباحث



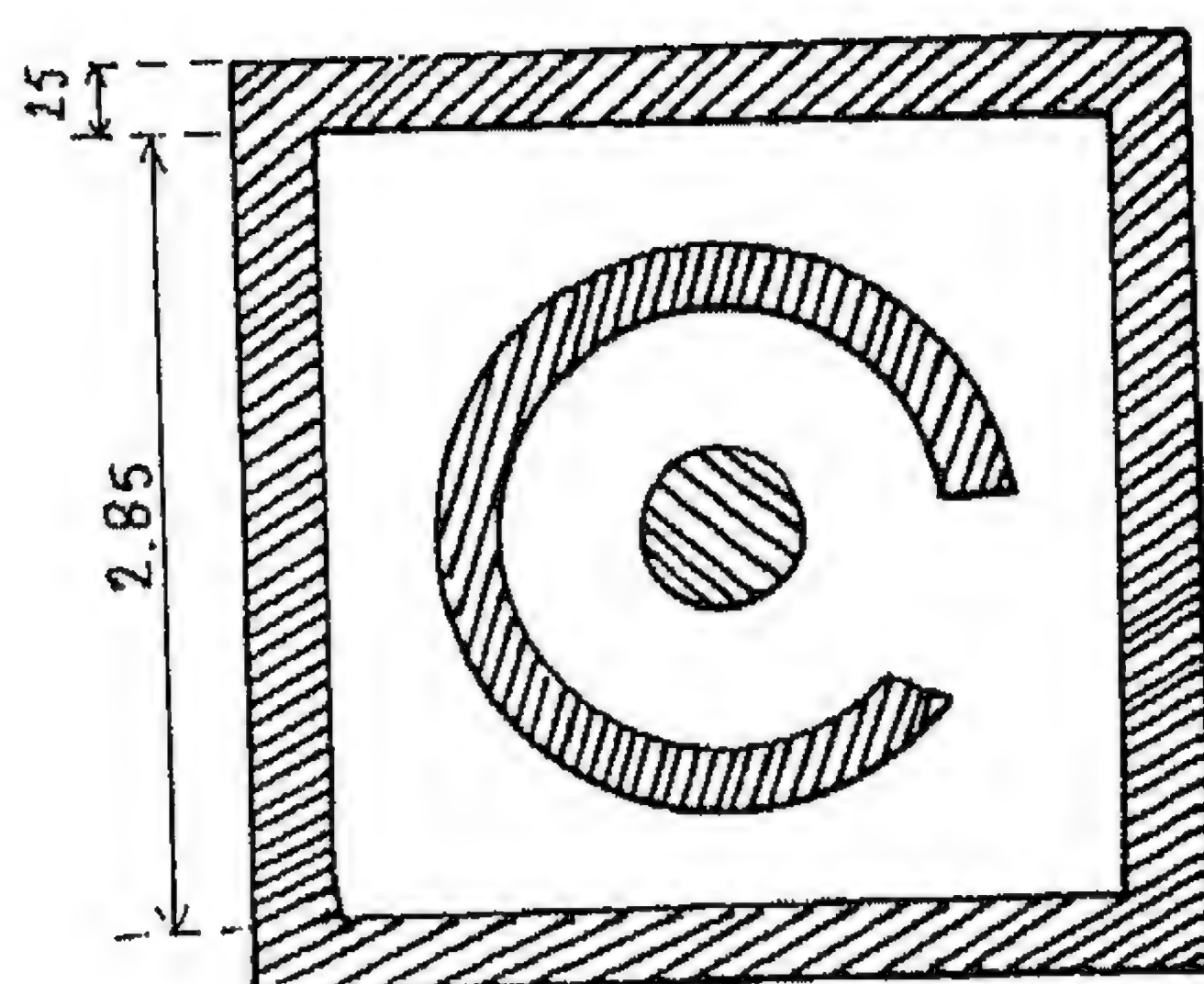
شكل (٦) : مقطع عرضي لمئذنة المسجد الجامع بقسنطينة
مقياس : ١ : ٥٠



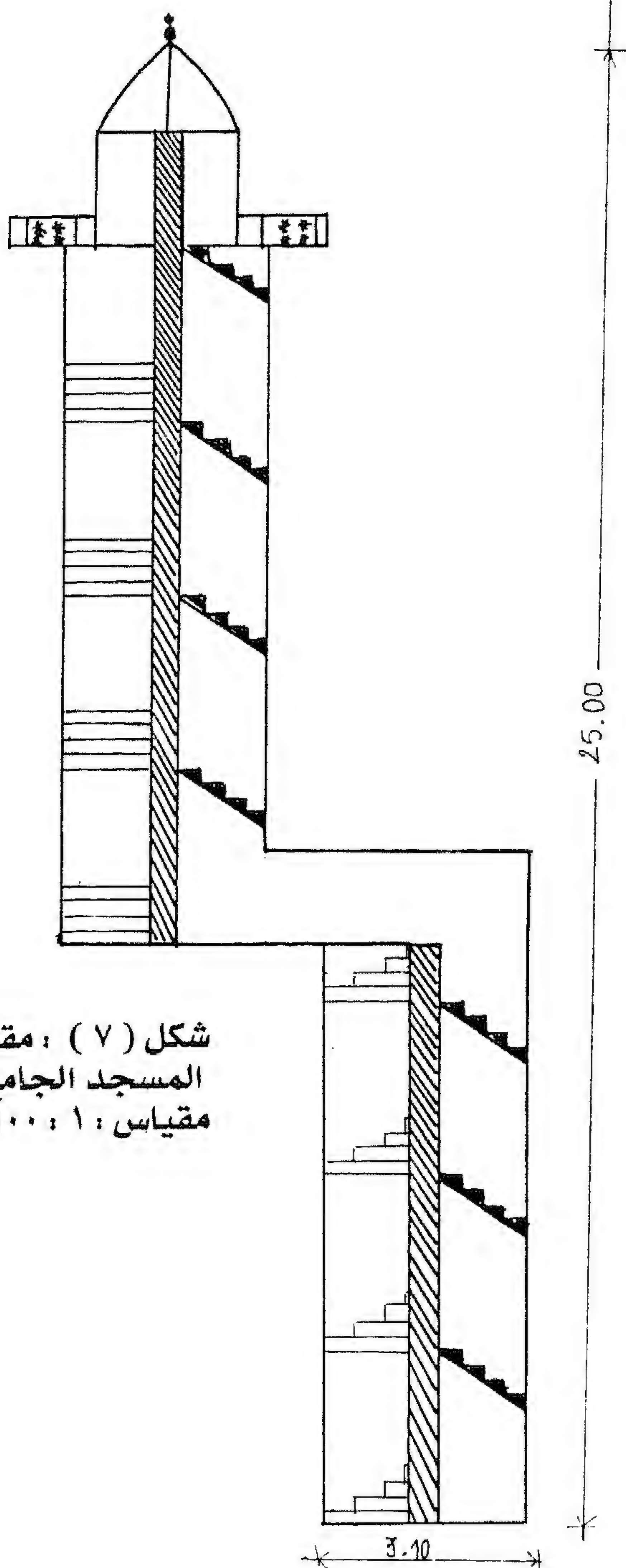
شكل (٦) ب : المخطط الأفقي الأول .



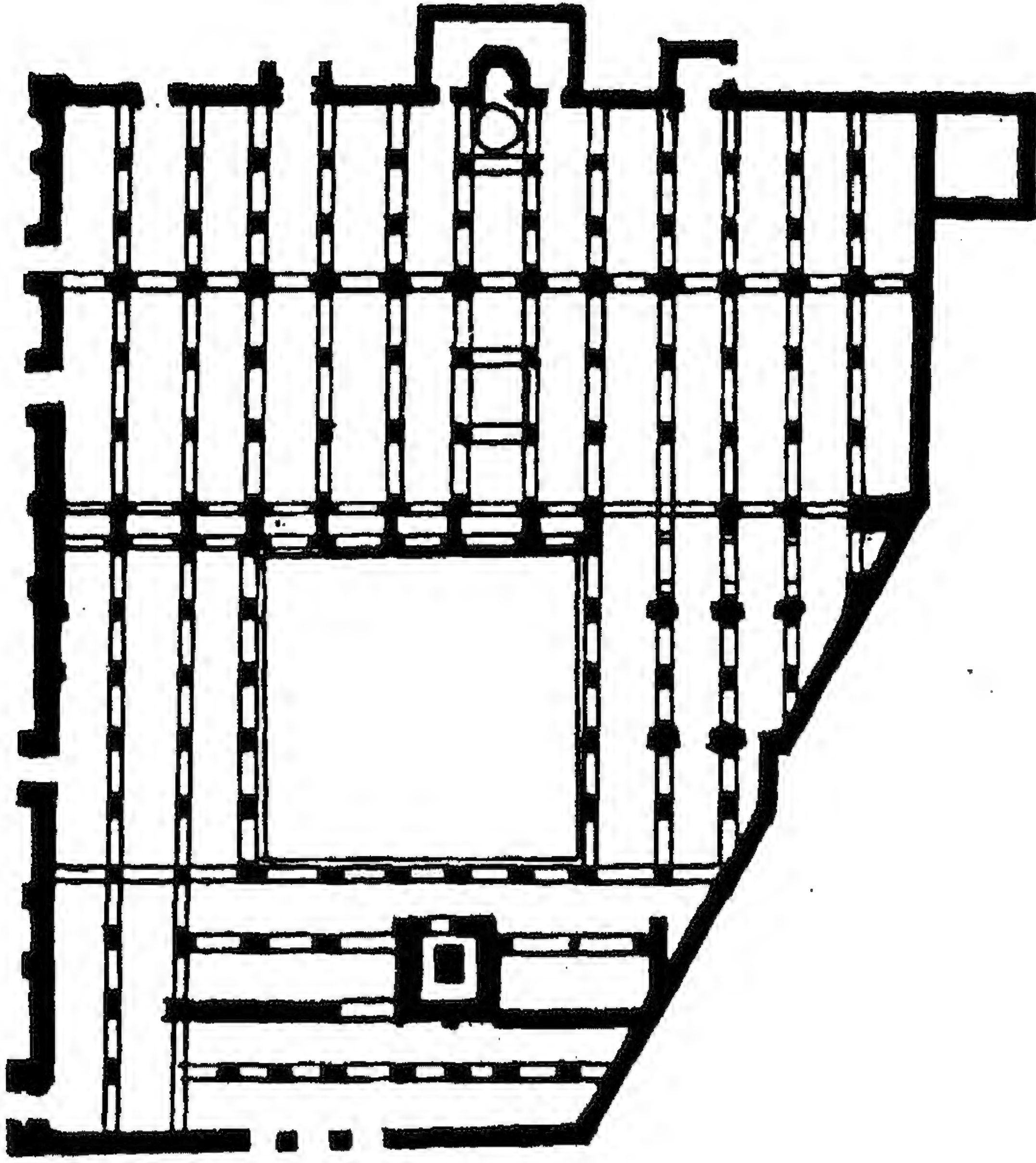
شكل (٦) ج : المساحة المسطحة .



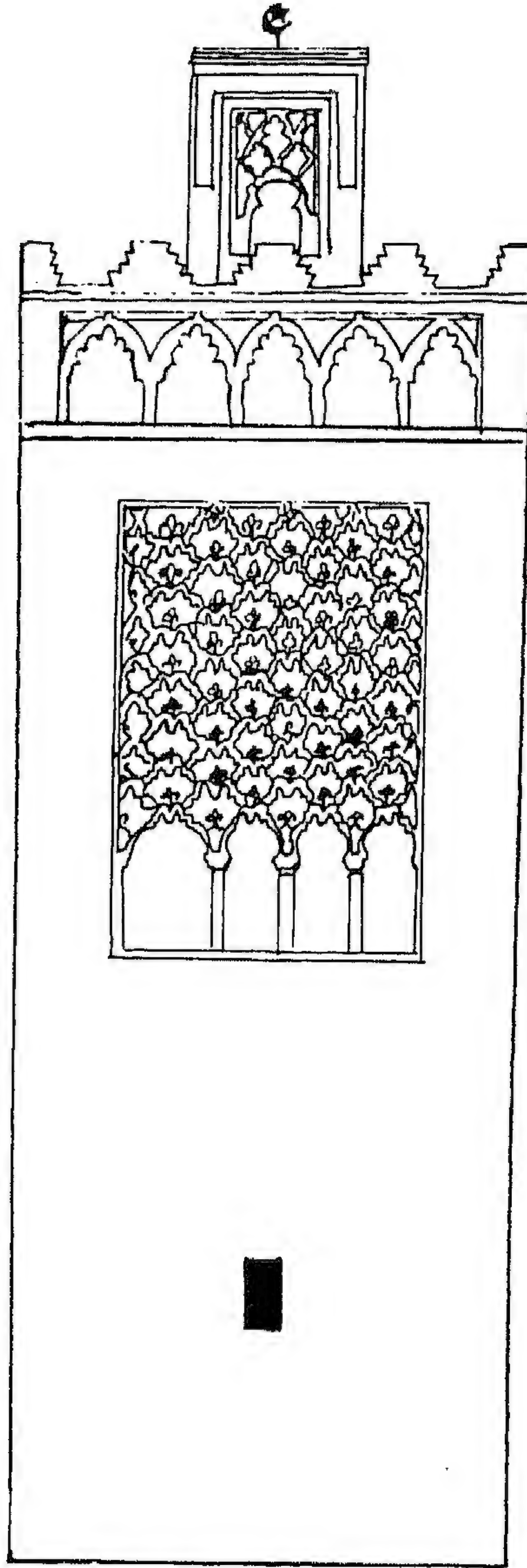
شكل (٦) د : المقطع الافقى العلوي .
مقياس : ١ : ٥٠ .



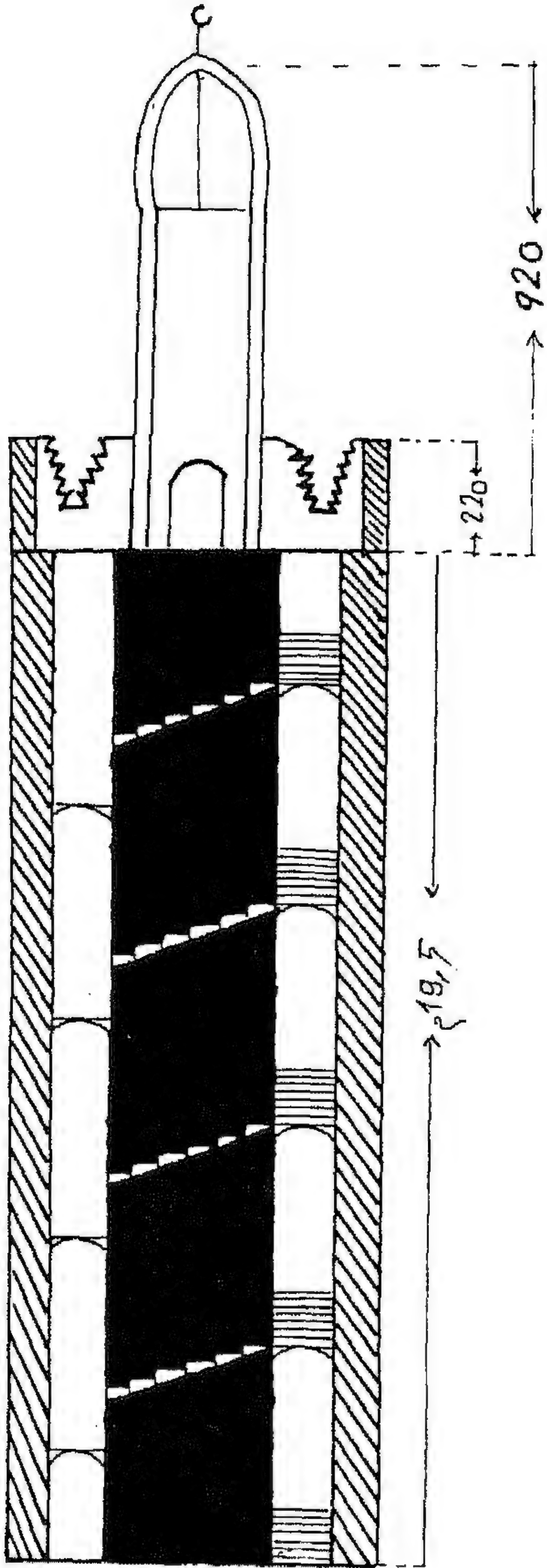
شكل (٧) : مقطع طولى لمئذنة
المسجد الجامع بقسنطينة .
مقياس : ١ : ١٠٠ .



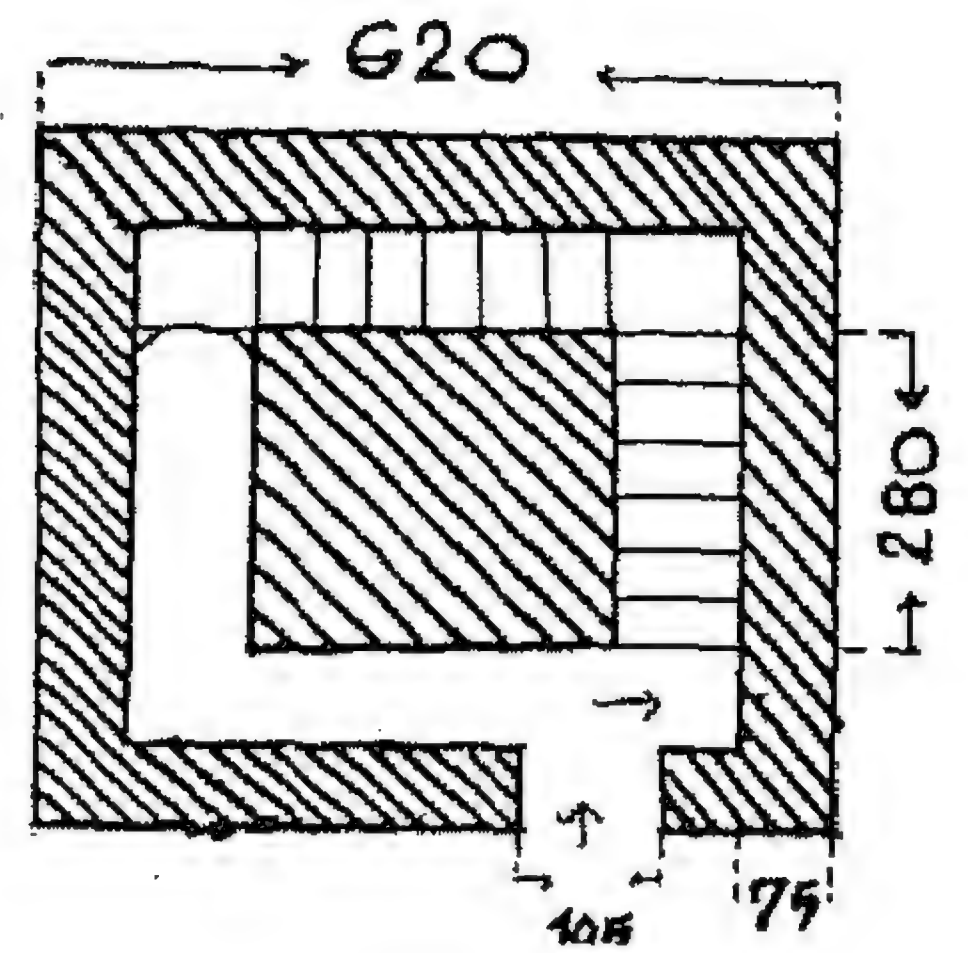
شكل (٨) : جامع تلمسان (عن مارسية) .



شكل (٩) : الواجهة الجنوبية لمئذنة المسجد الجامع
بتلمسان . (عن بورويبة) .

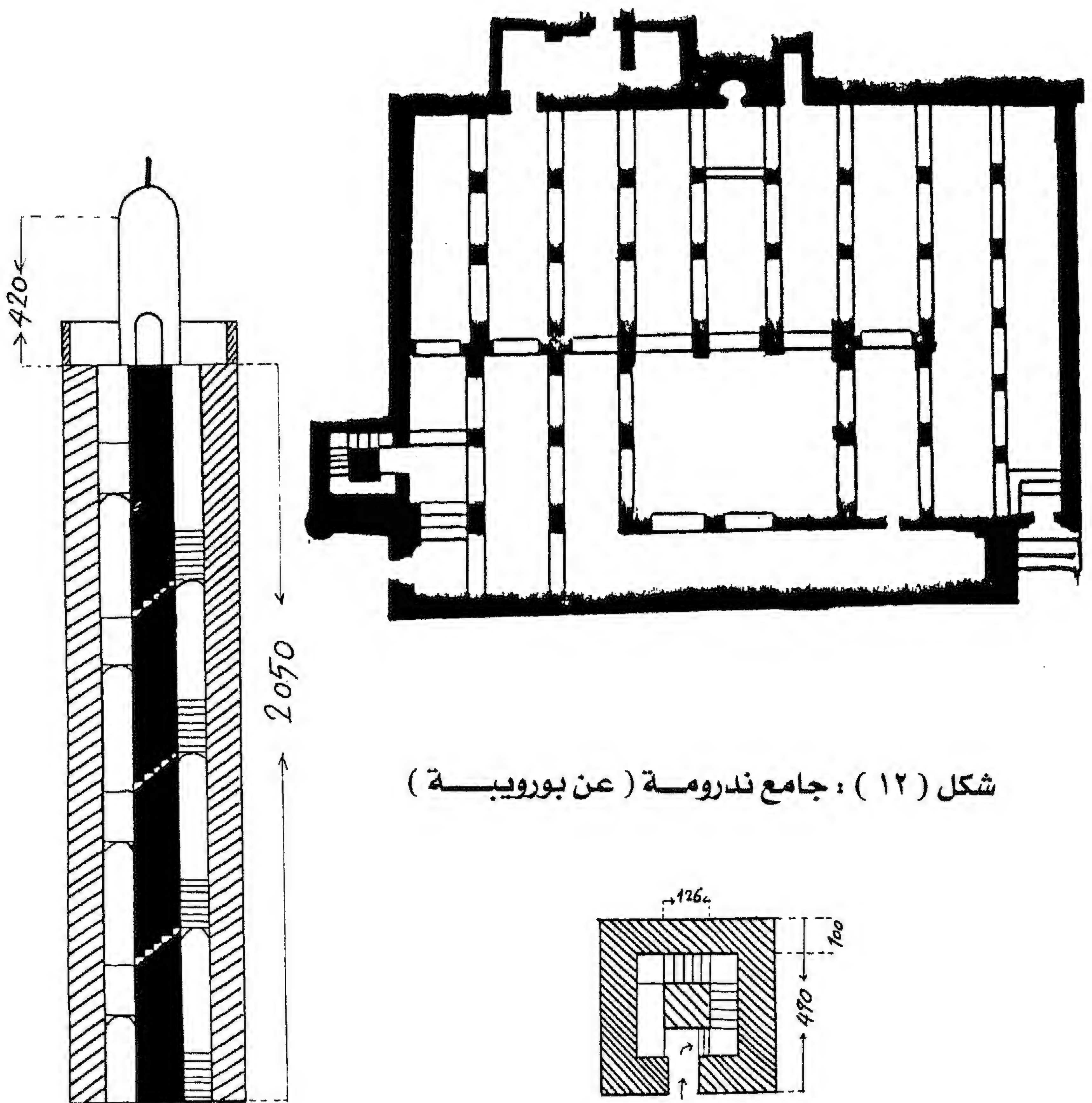


شكل (١١) : مقطع طولى لمئذنة
المسجد الجامع بتلمسان



شكل (١٠) : مقطع عرضى لمئذنة
المسجد الجامع بتلمسان

مقاس ١ : ١٢٥

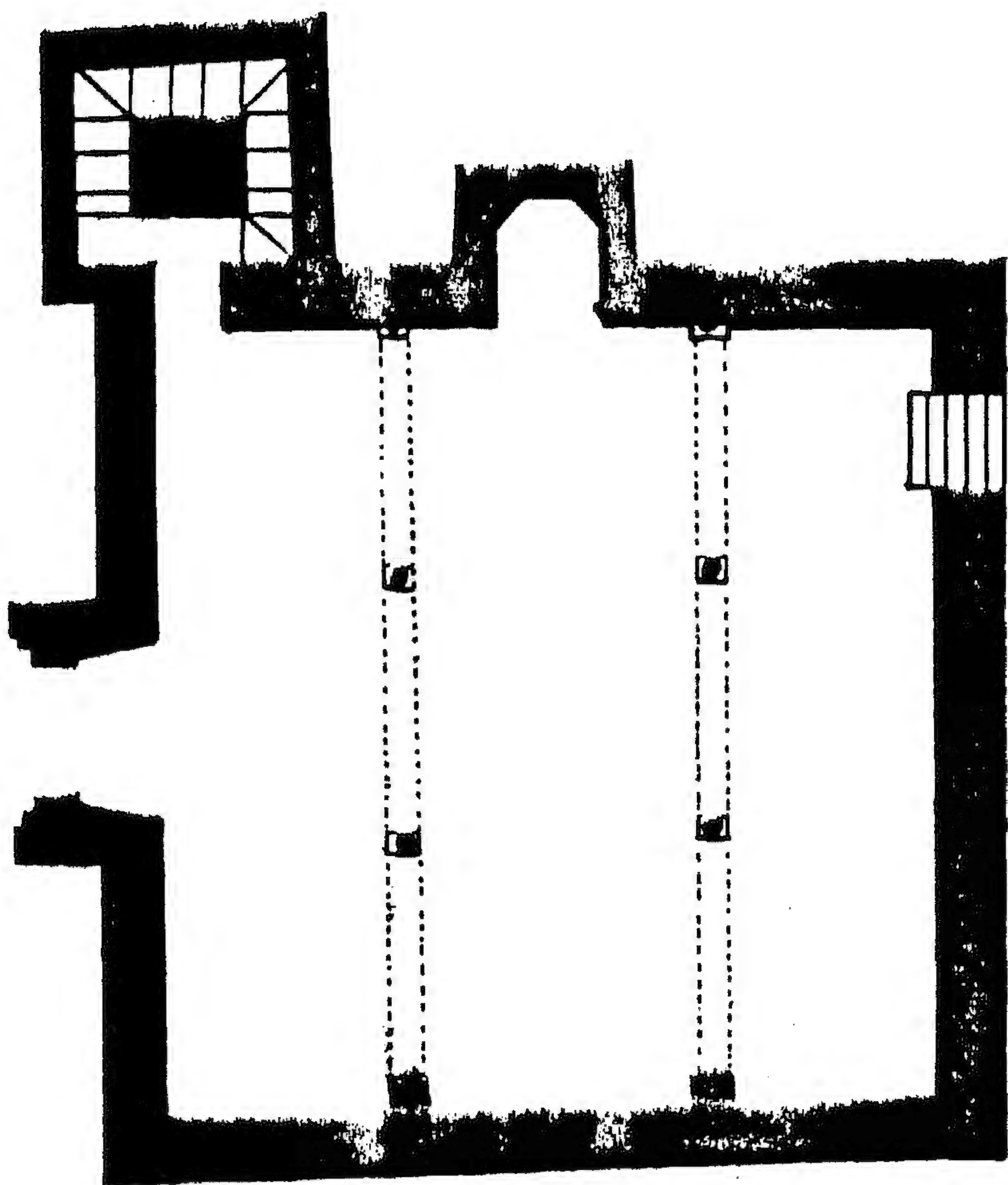


شكل (١٢) : جامع ندرومة (عن بورويبة)

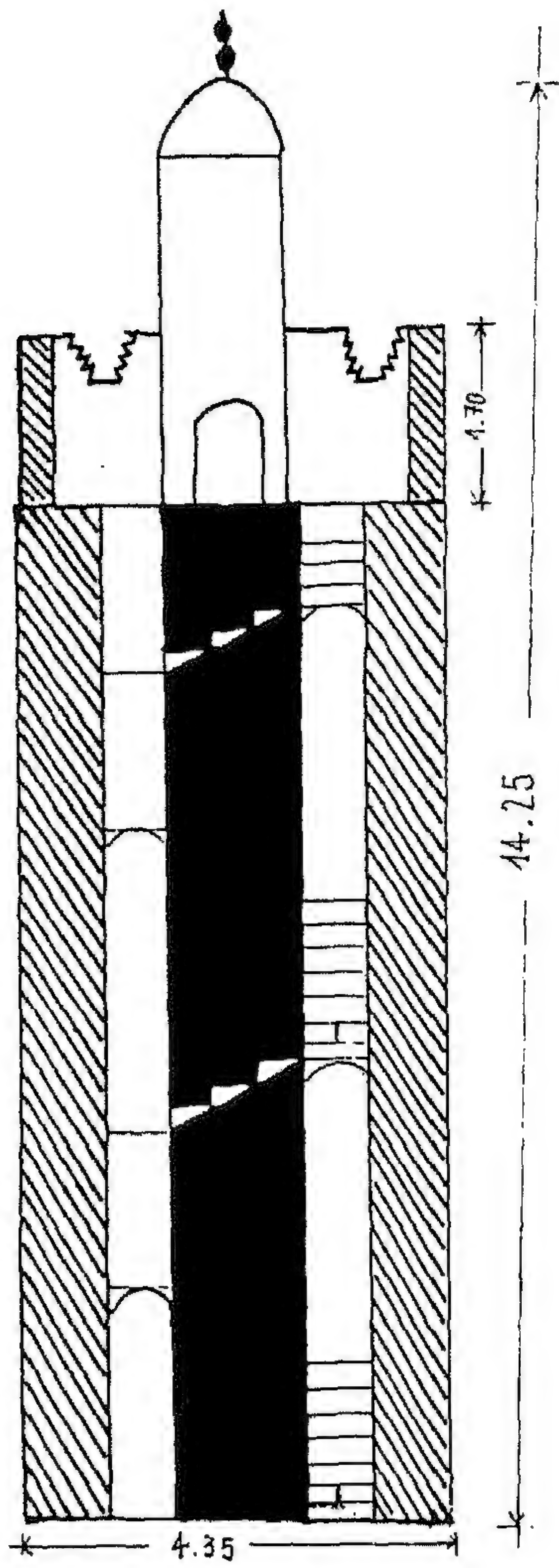
شكل (١٤) : مقطع طولى لمئذنة
المسجد الجامع بندرومة

شكل (١٣) : مقطع عرضى لمئذنة
المسجد الجامع بندرومة

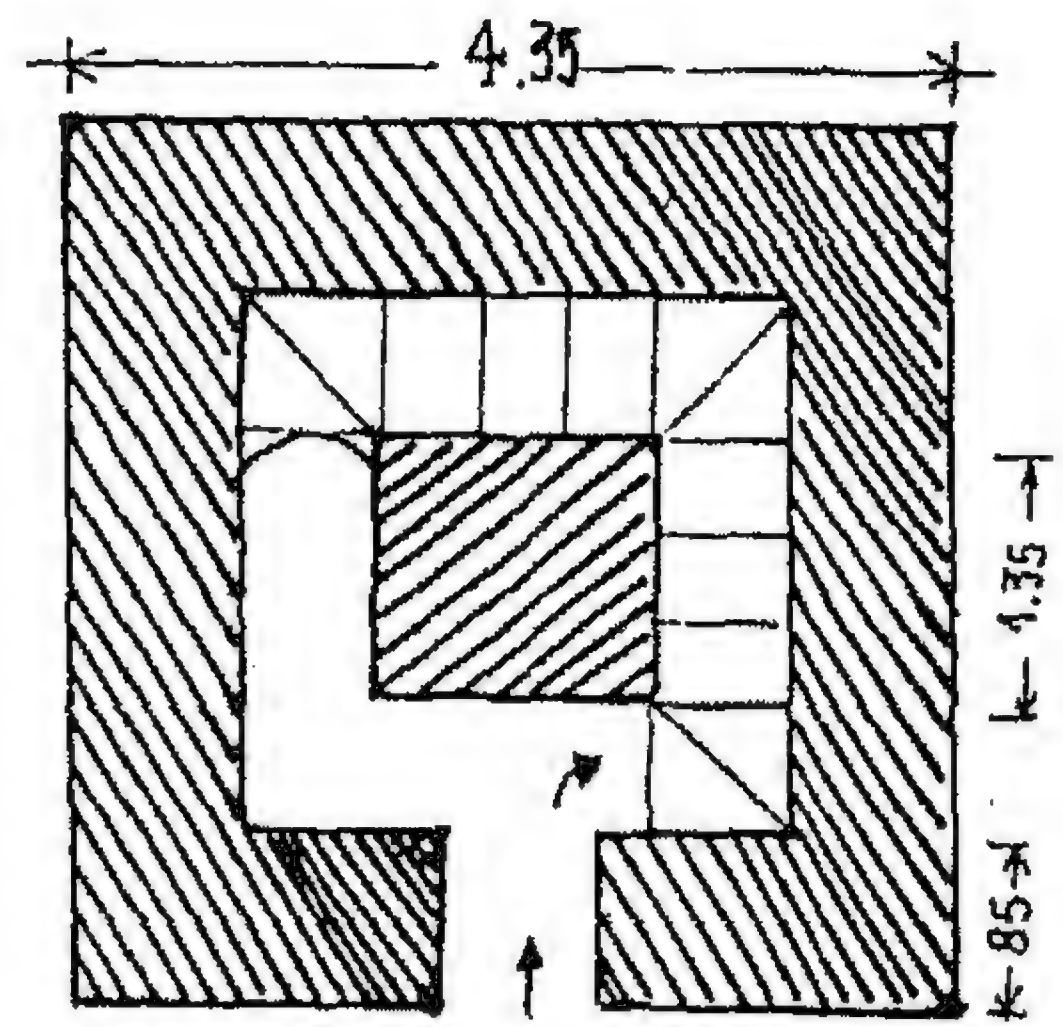
مقياس ١ : ١٢٥



شكل (١٥) : جامع أبي الحسن بتلمسان
(عن بورويبة)

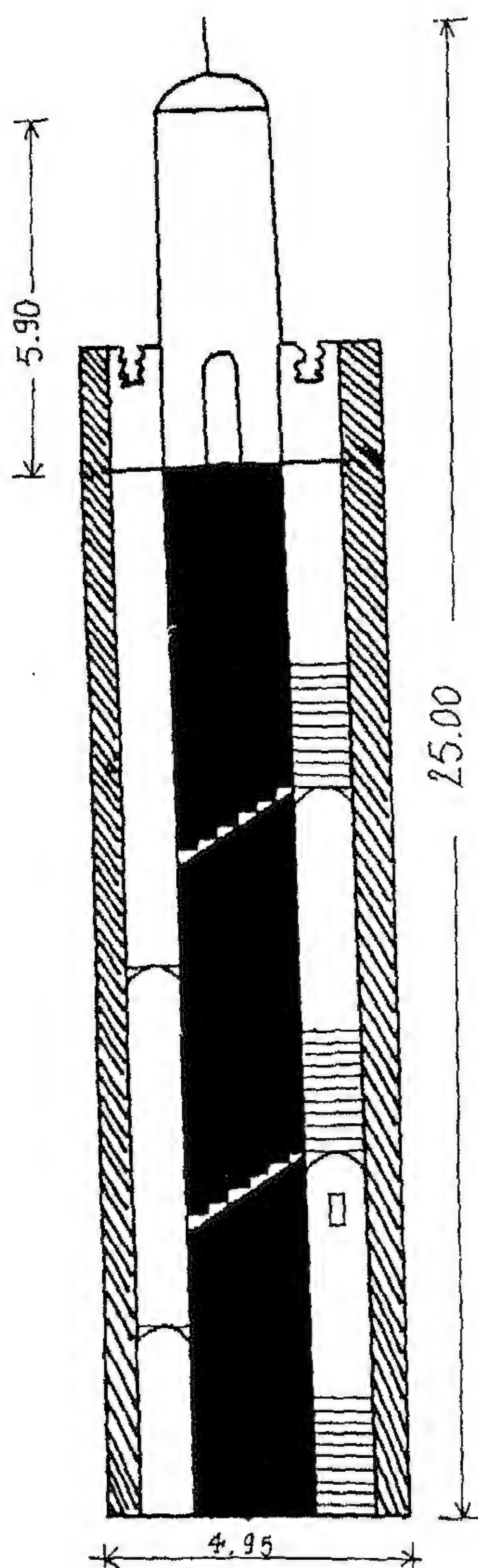


شكل (١٧) : مقطع طولى لمئذنة
جامع أبي الحسن بتلمسان

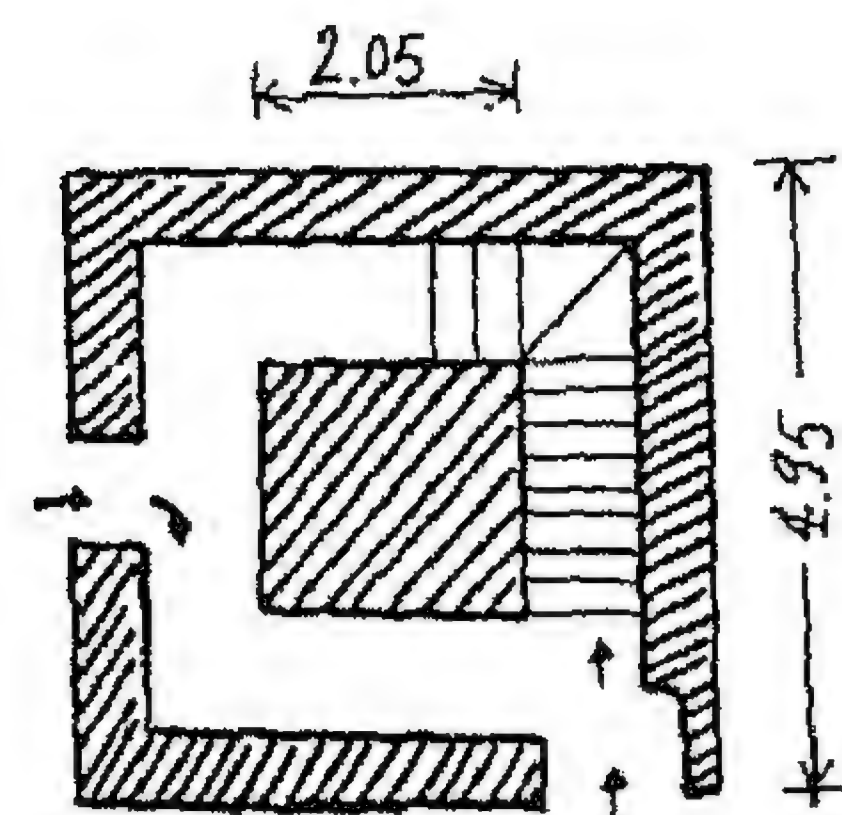


شكل (١٦) : مقطع عرضى لمئذنة
جامع أبي الحسن بتلمسان

مقياس ١ : ٧٥



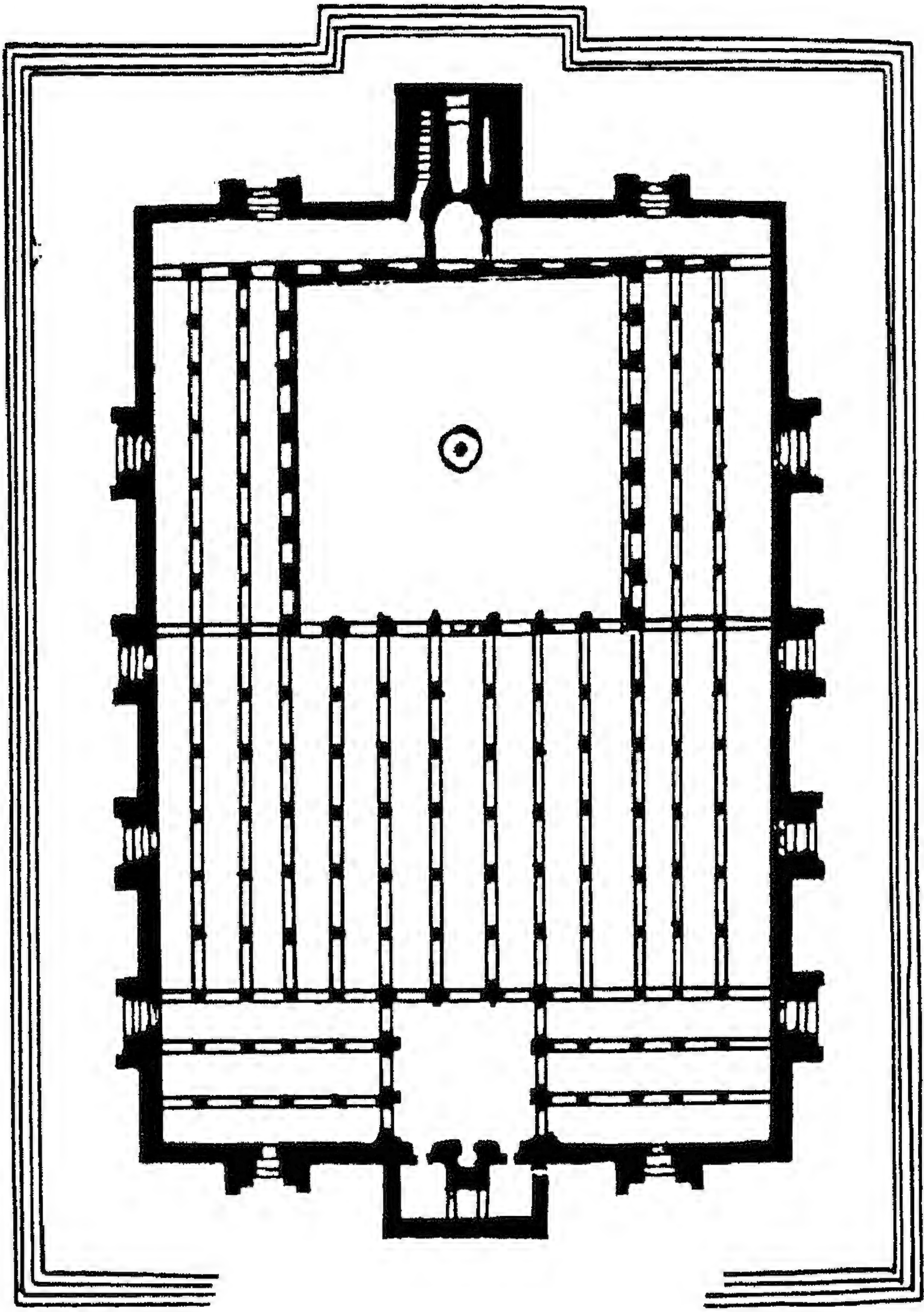
شكل (١٩) مقطع طولى لمئذنة
جامع المشور (تلمسان)



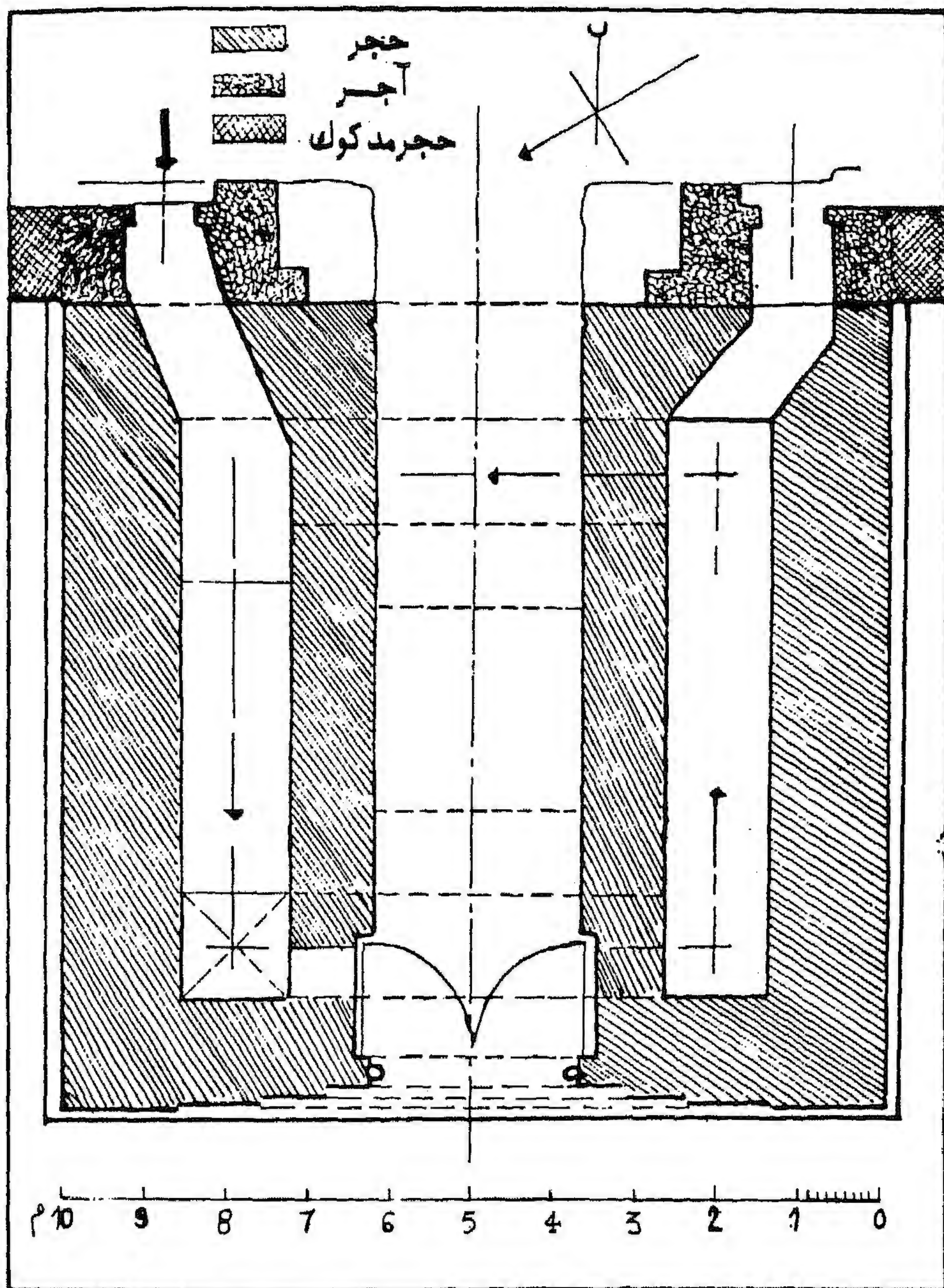
باب مؤدي للخارج
باب مؤدي للمسجد

شكل (١٨) مقطع عرضى لمئذنة
جامع المشور (تلمسان)

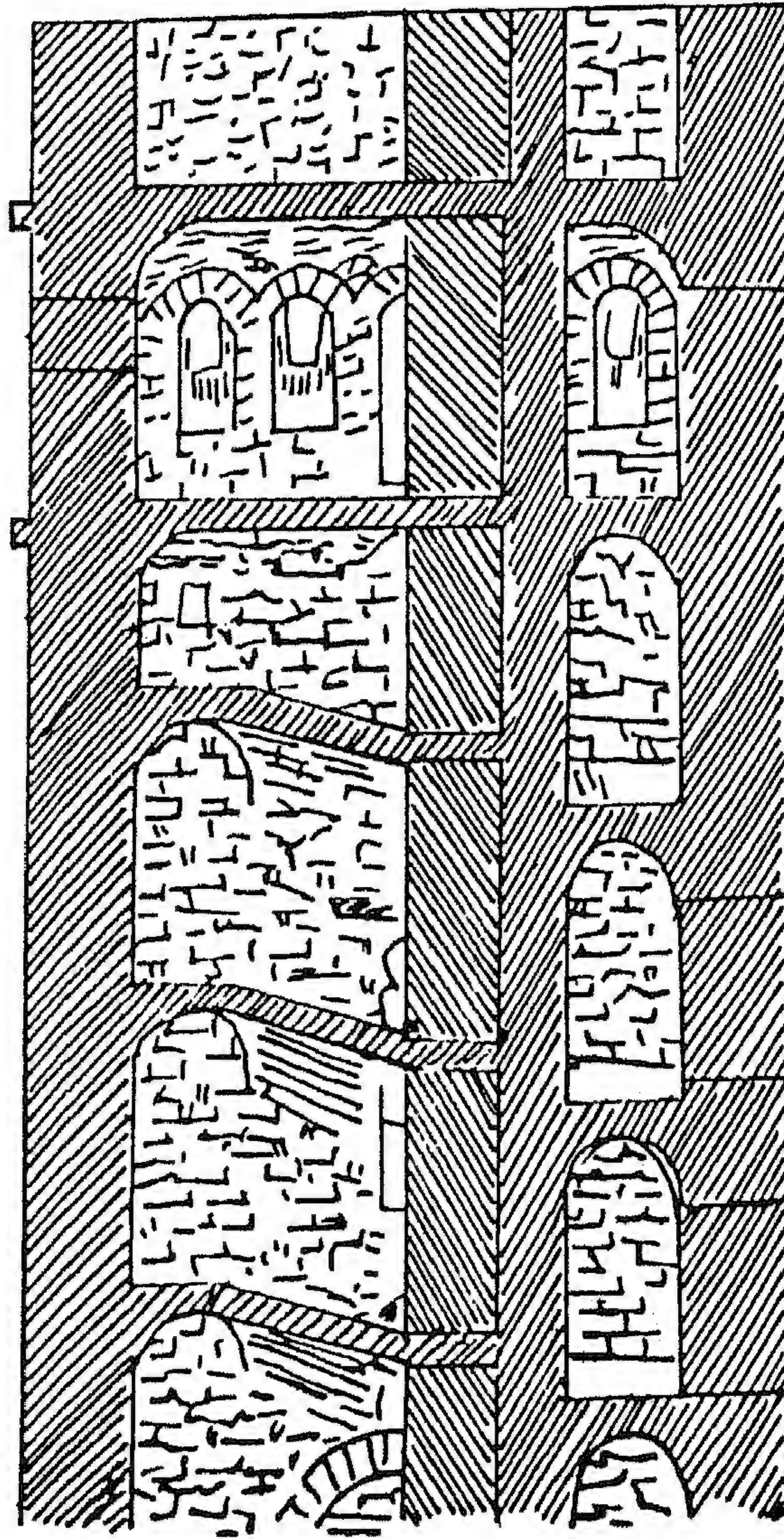
مقياس ١ : ١٢٥



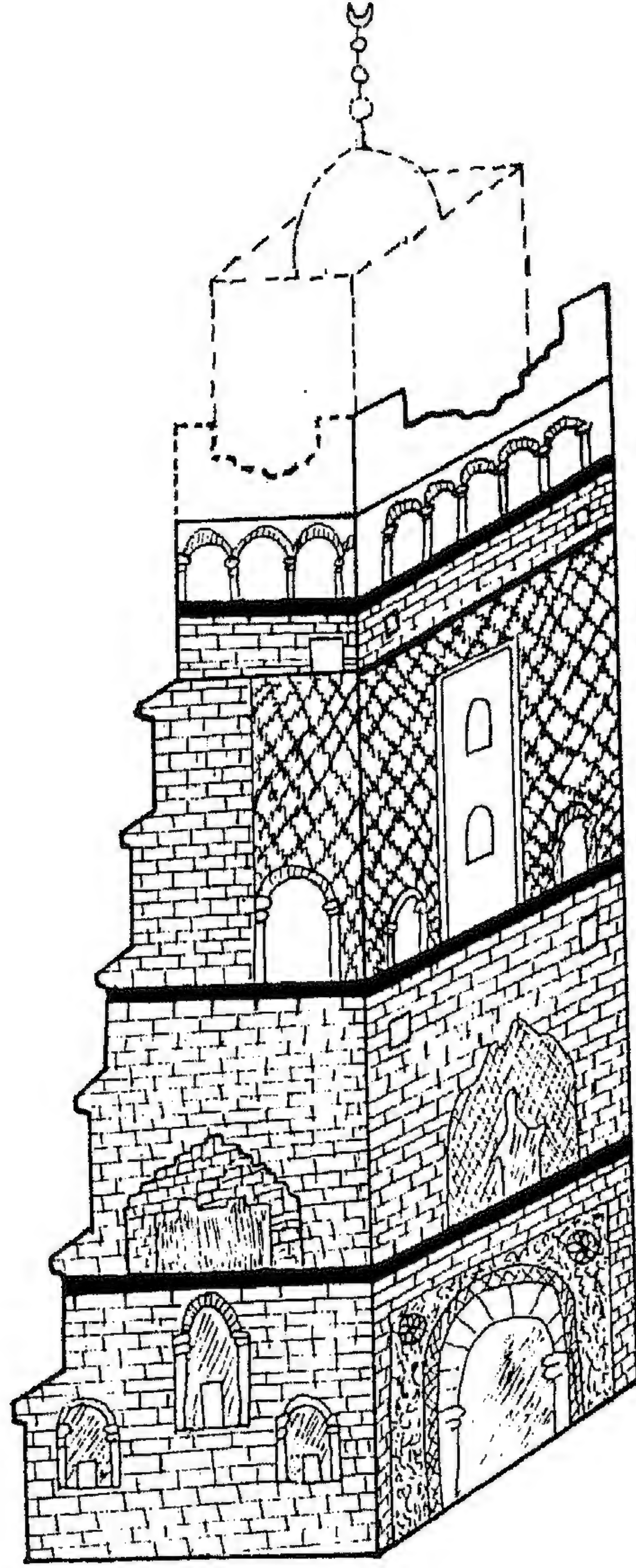
شكل (٢٠) : جامع المنصورة بتمسان (عن مارسية) .



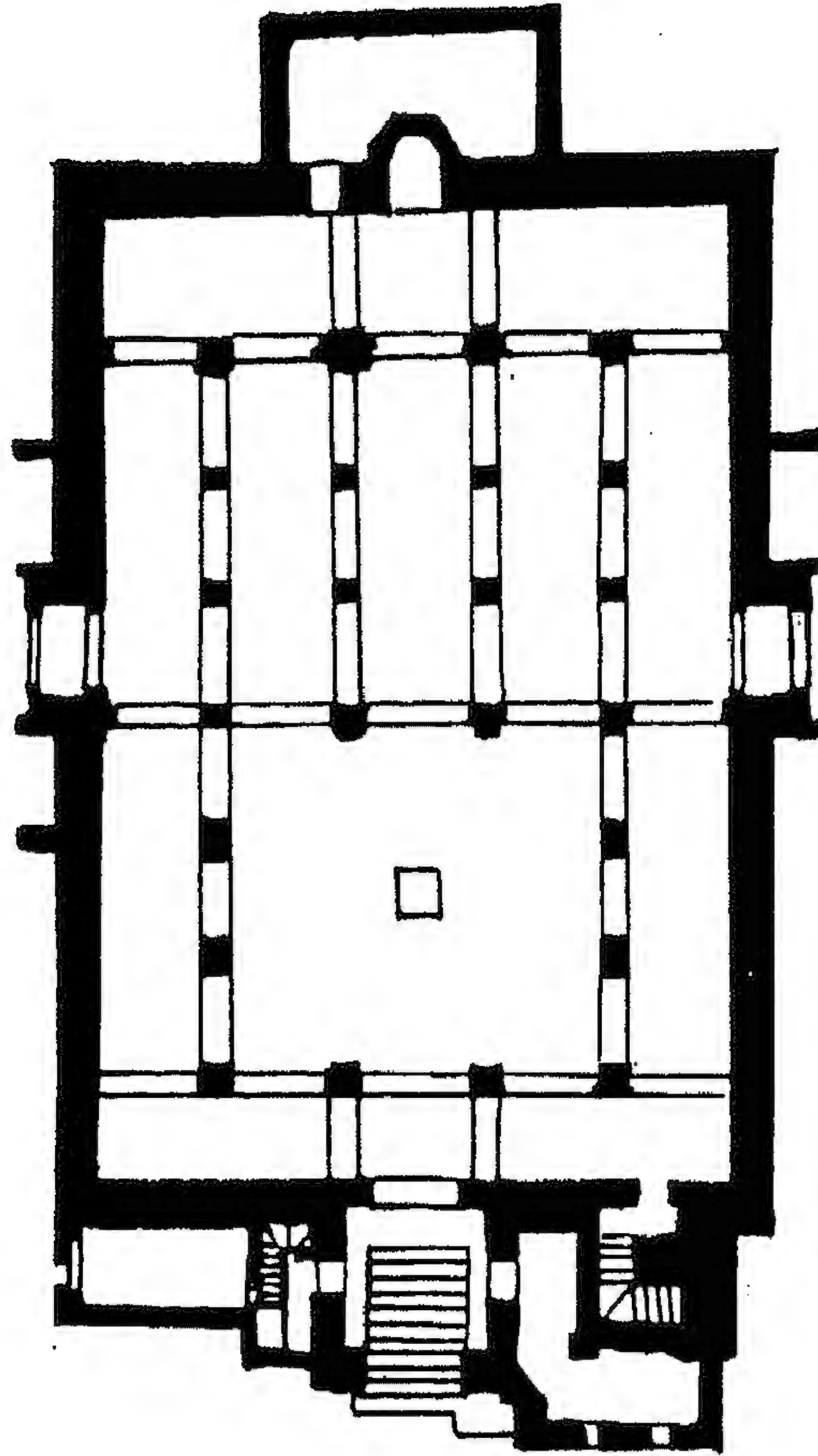
شكل (٢١) : مقطع عرضي لمئذنة جامع المنصورة بتلسمان
 (عن ليزين) بعد التحقيق
 مقياس ١ : ١٠٠



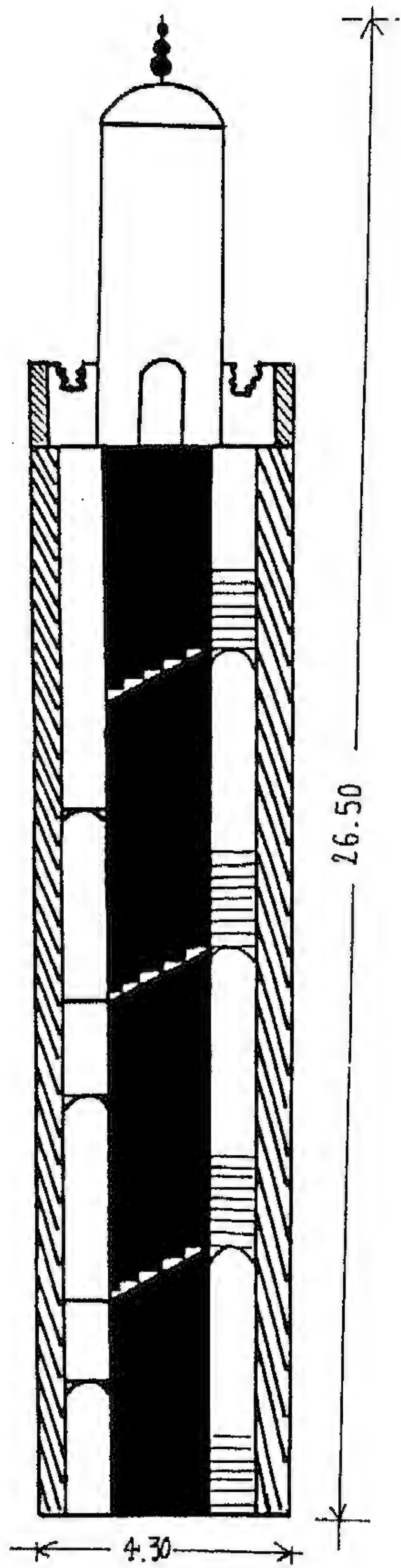
شكل (٢٢) : مقطع طولي لمئذنة جامع المنصورة بتلمسان
(عن مارسيليه)



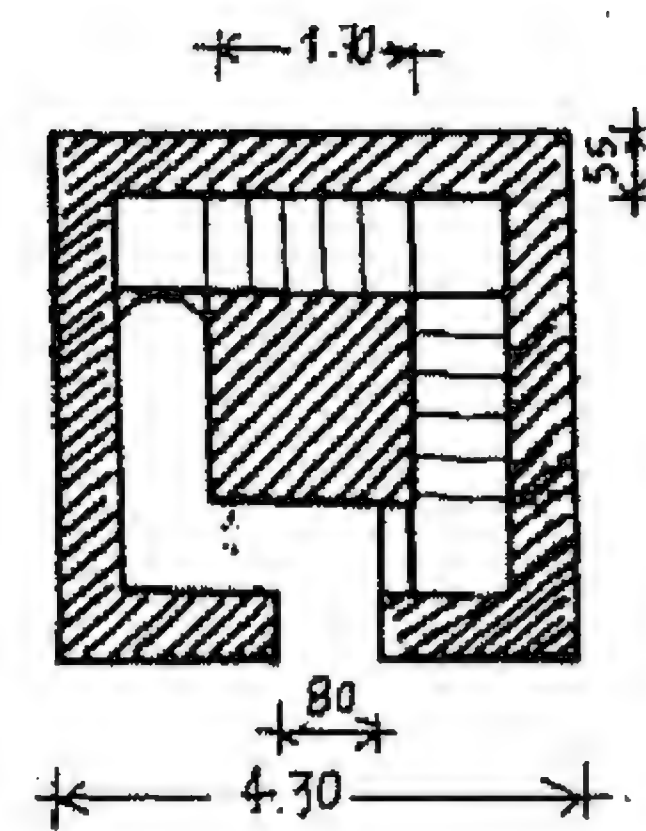
شكل (٢٣) : رسم تخطيطي لمئذنة جامع المنصورة بتلمسان مع إعادة تصور للجوسق من تخيل الباحث .



شكل (٢٤) : جامع سيدى أبى مدين بتلمسان (عن بورويبة) .

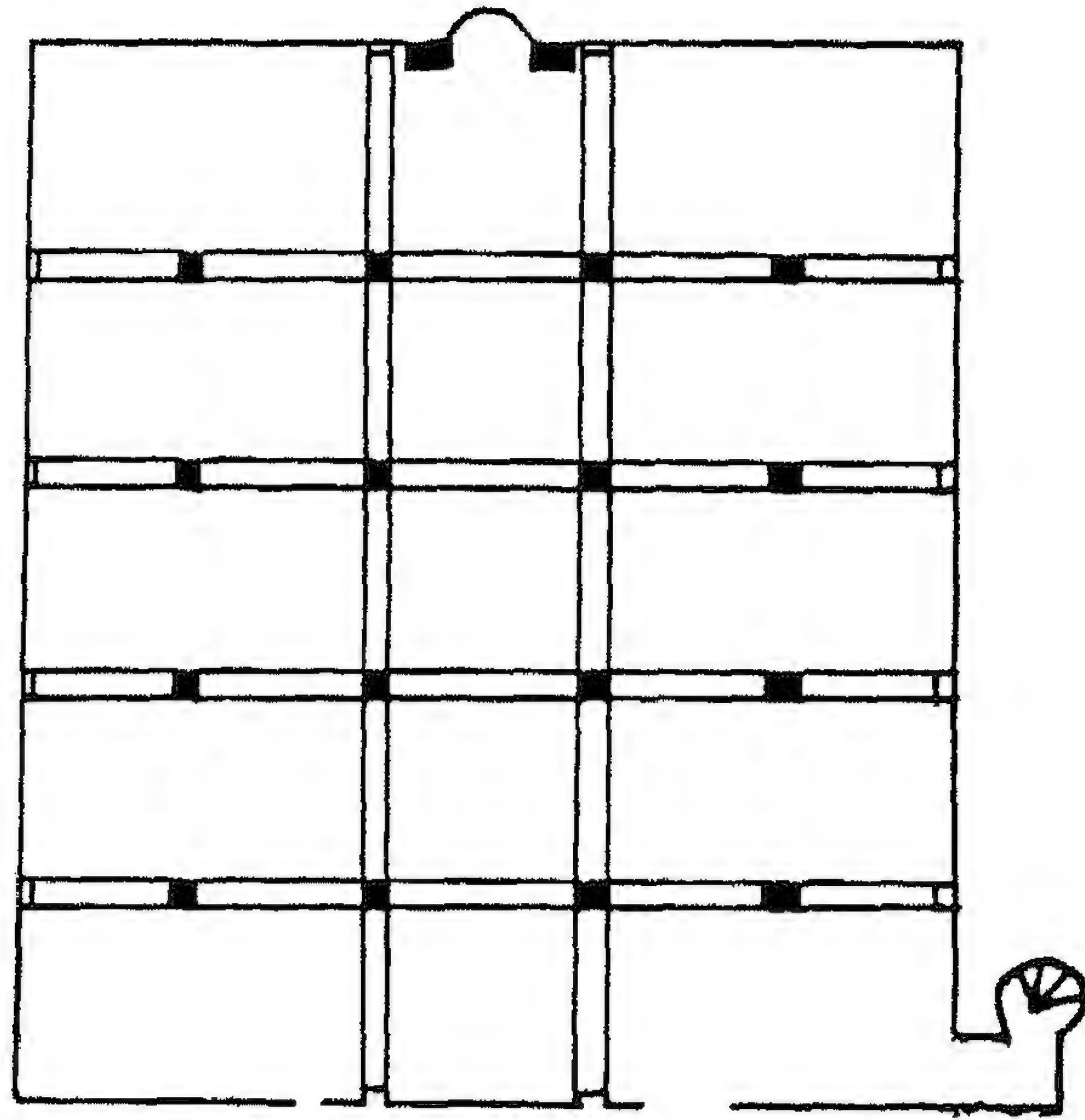


شكل (٢٦) : مقطع طولى لمئذنة
مسجد سيدى ابى مدين بتلمسان

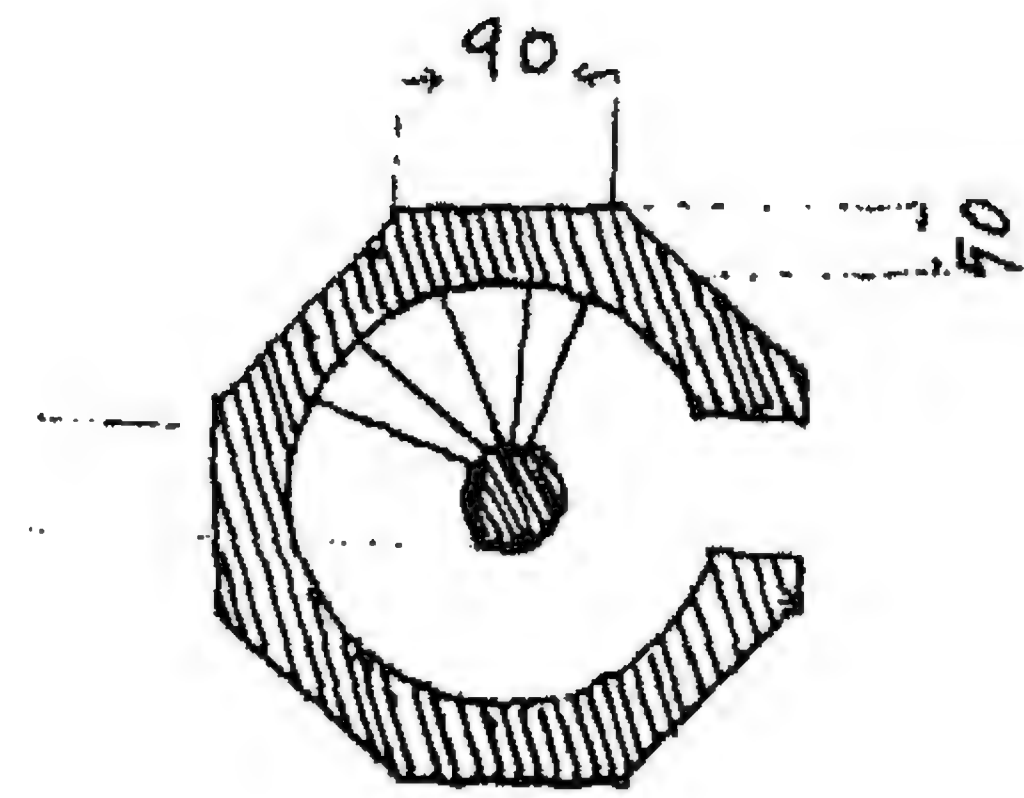
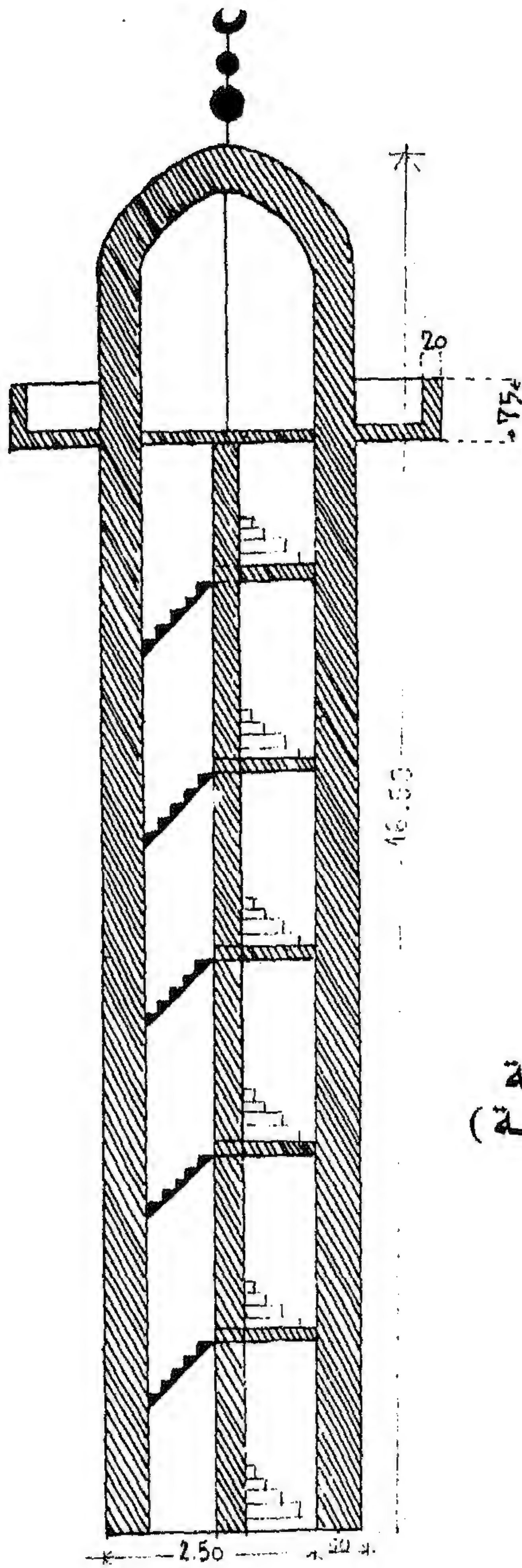


شكل (٢٥) : مقطع عرضى لمئذنة
مسجد سيدى ابى مدين بتلمسان

مقياس : ١ : ١٢٥

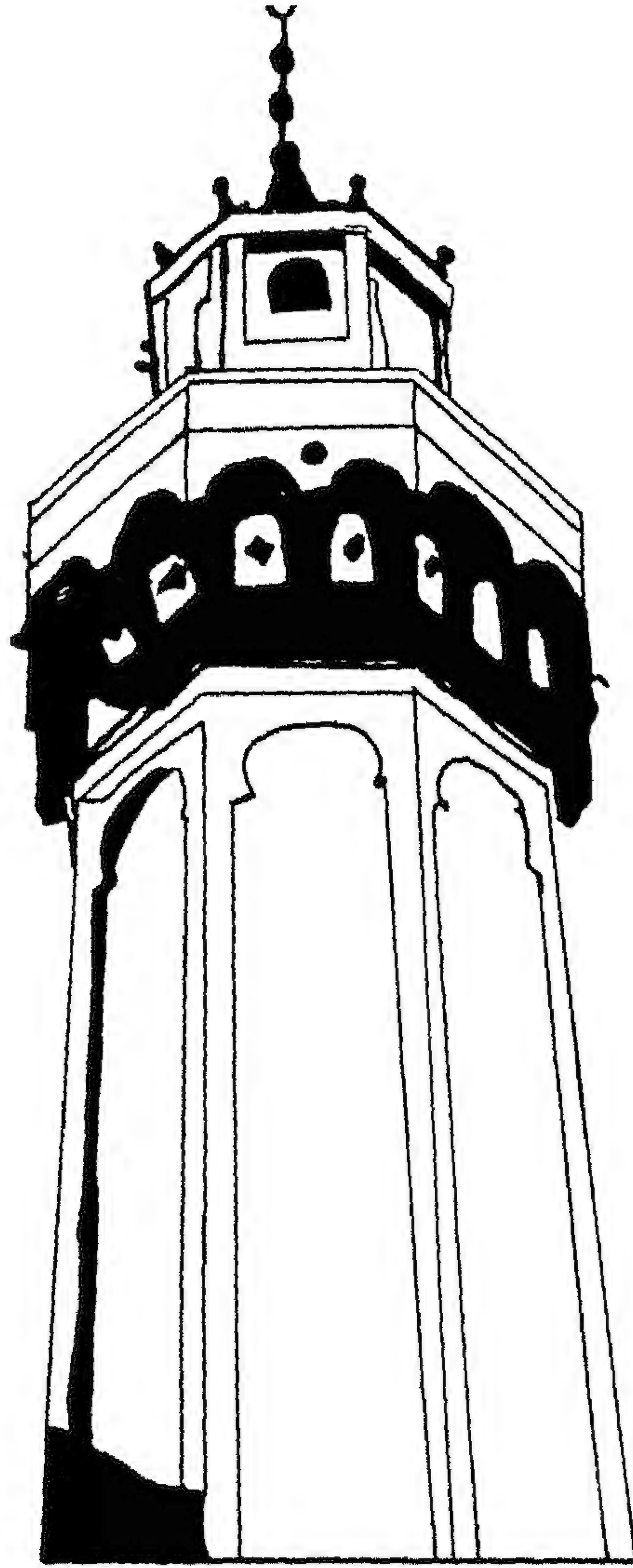


شكل (٢٧) : جامع سيدي لخضر بقسنطينة
(عن بورويبة)

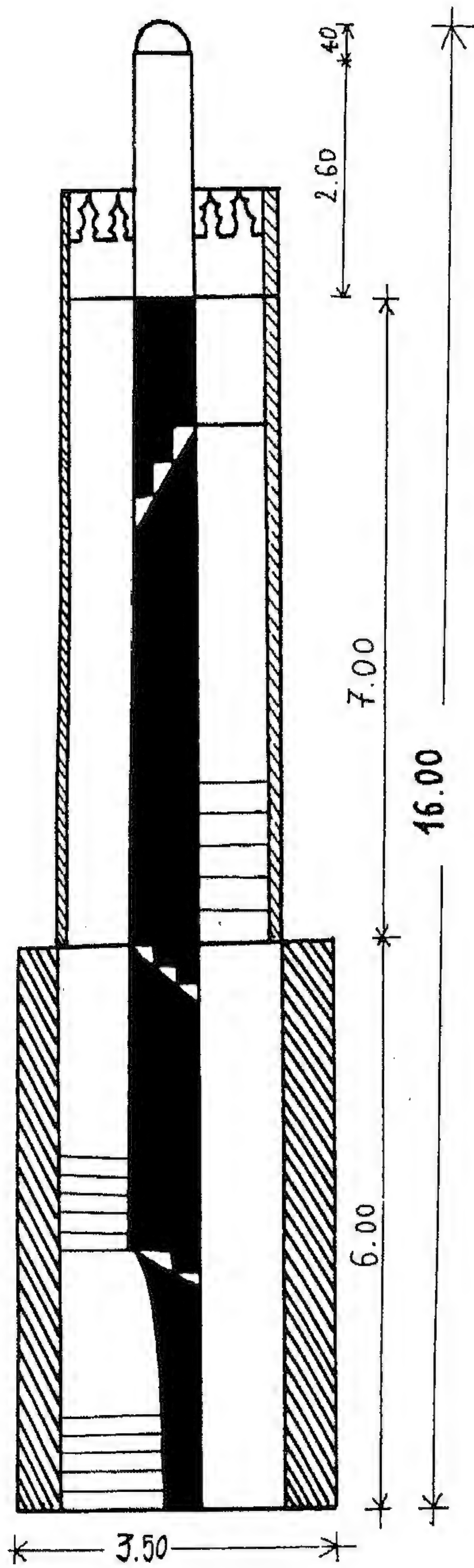


شكل (٢٨) : مقطع عرضي لمئذنة
مسجد سيدي لخضر (قسنطينة)
مقياس : ١ : ٧٥

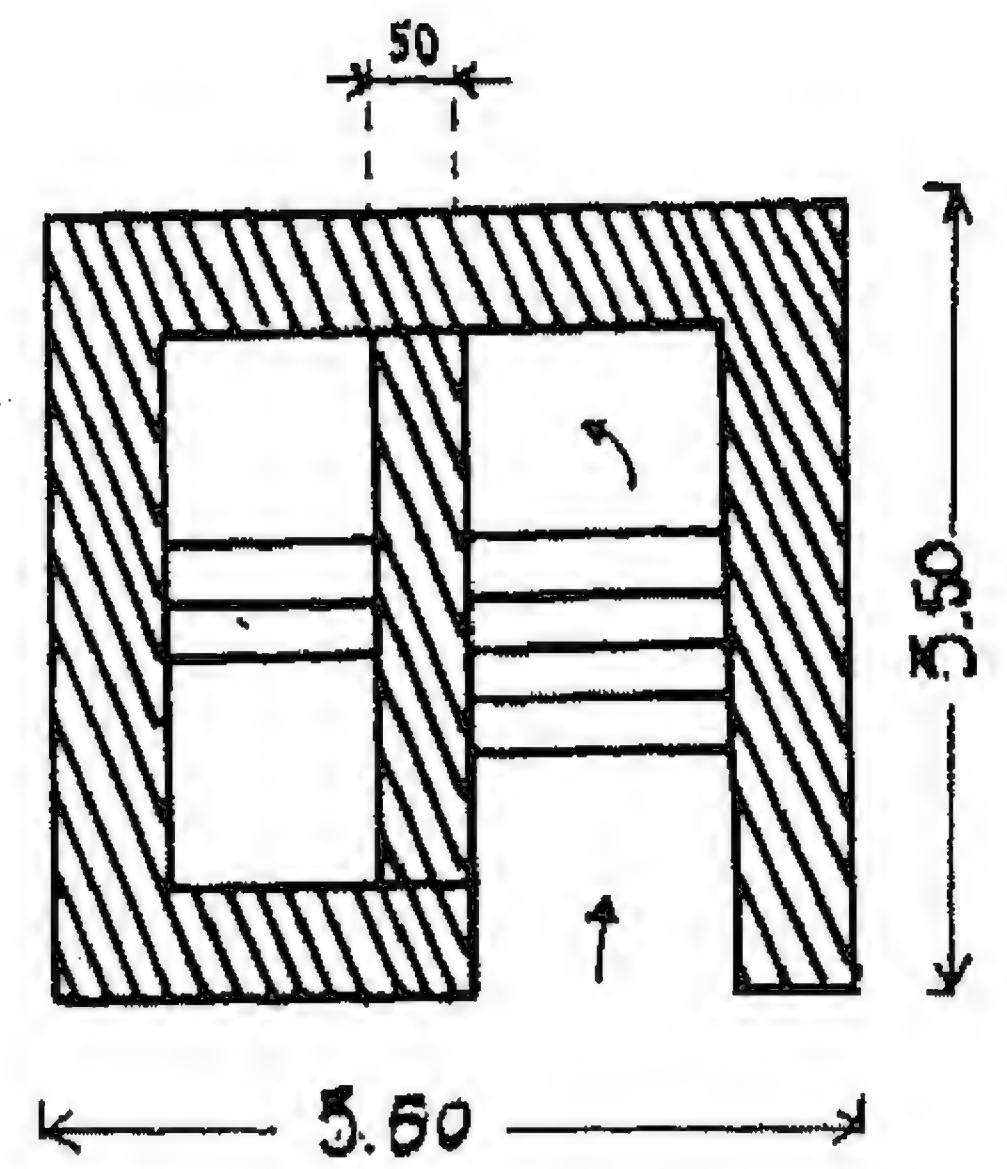
شكل (٣٠) : مقطع طولي لمئذنة
مسجد سيدي لخضر (قسنطينة)
مقياس : ١ : ٧٥



شكل (٢٩) : واجهة مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة
(عن بورويبة) .

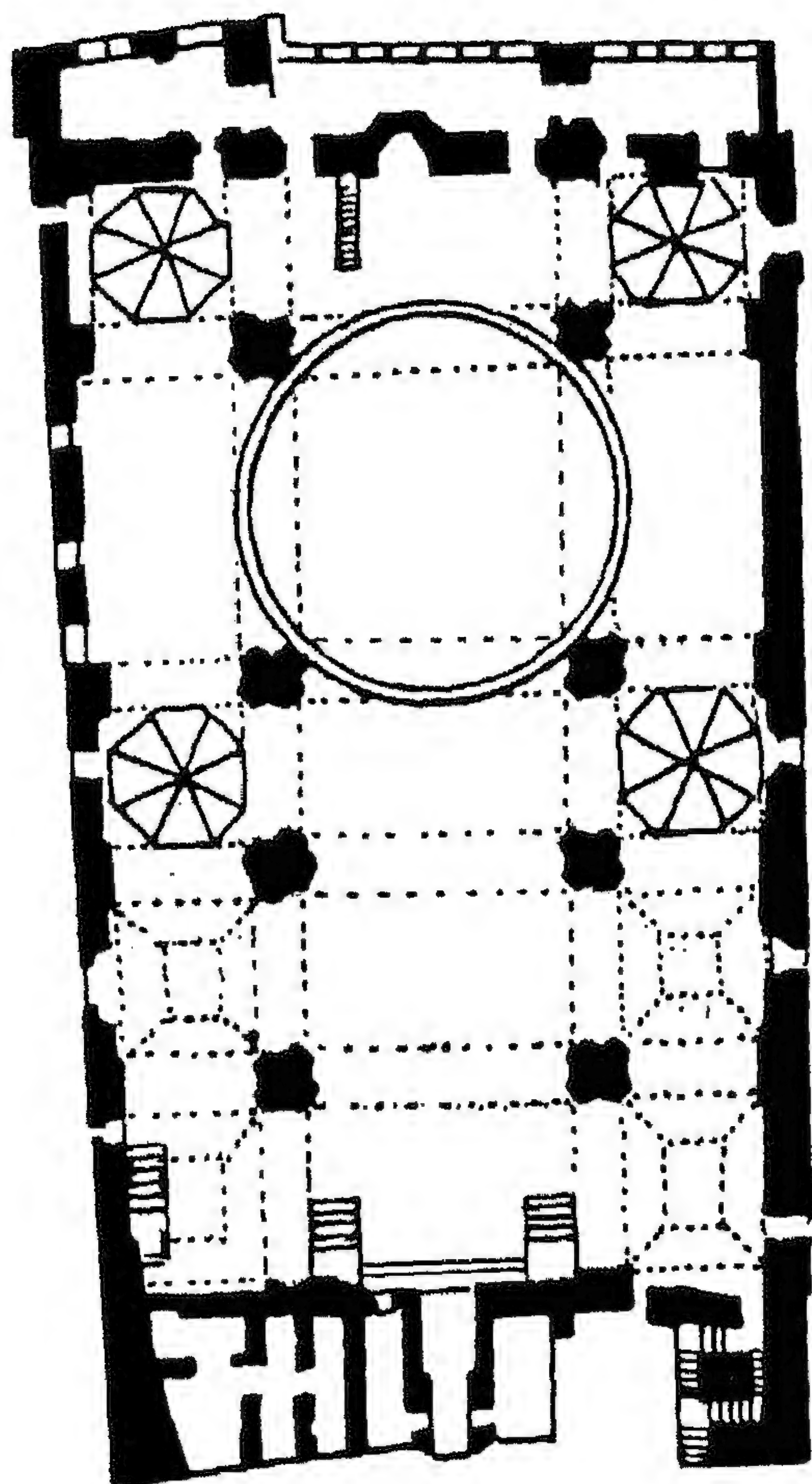


شكل (٣٢) :
مقطع طولى لمنئذنة جامع الجيش
(الجزائر العاصمة)

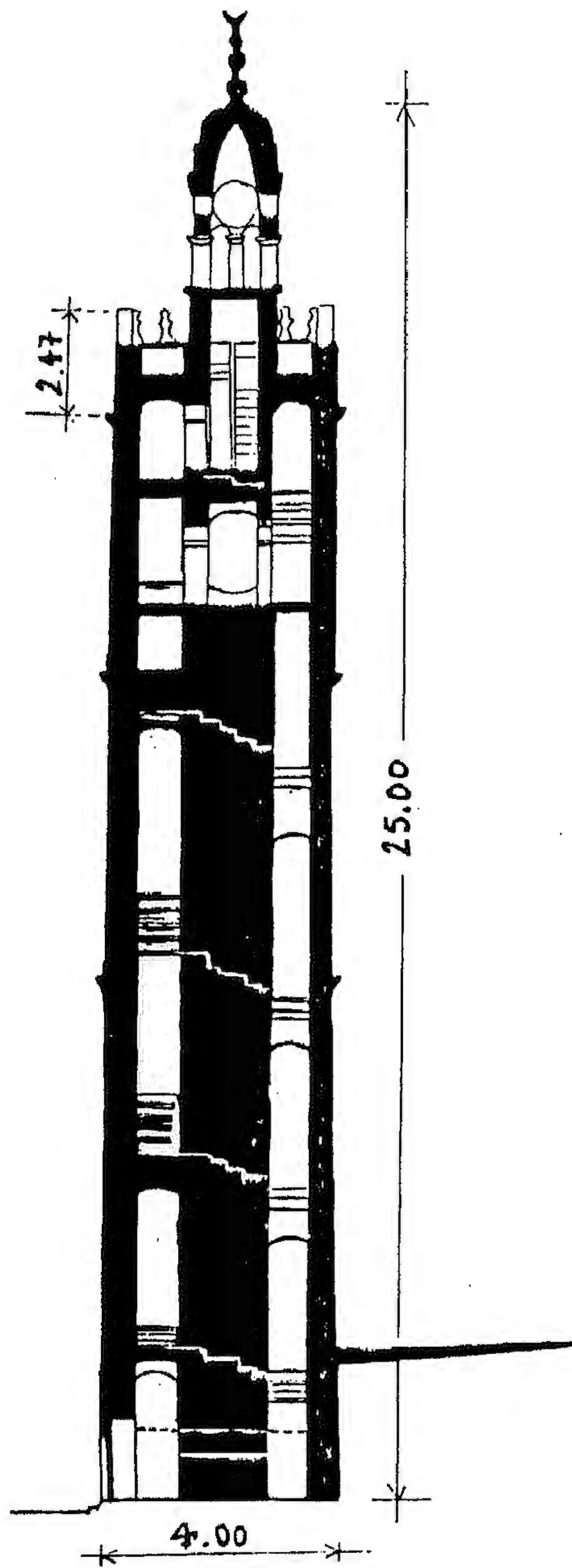


شكل (٣١) : مقطع عرضى لمنئذنة
جامع الجيش (الجزائر العاصمة)

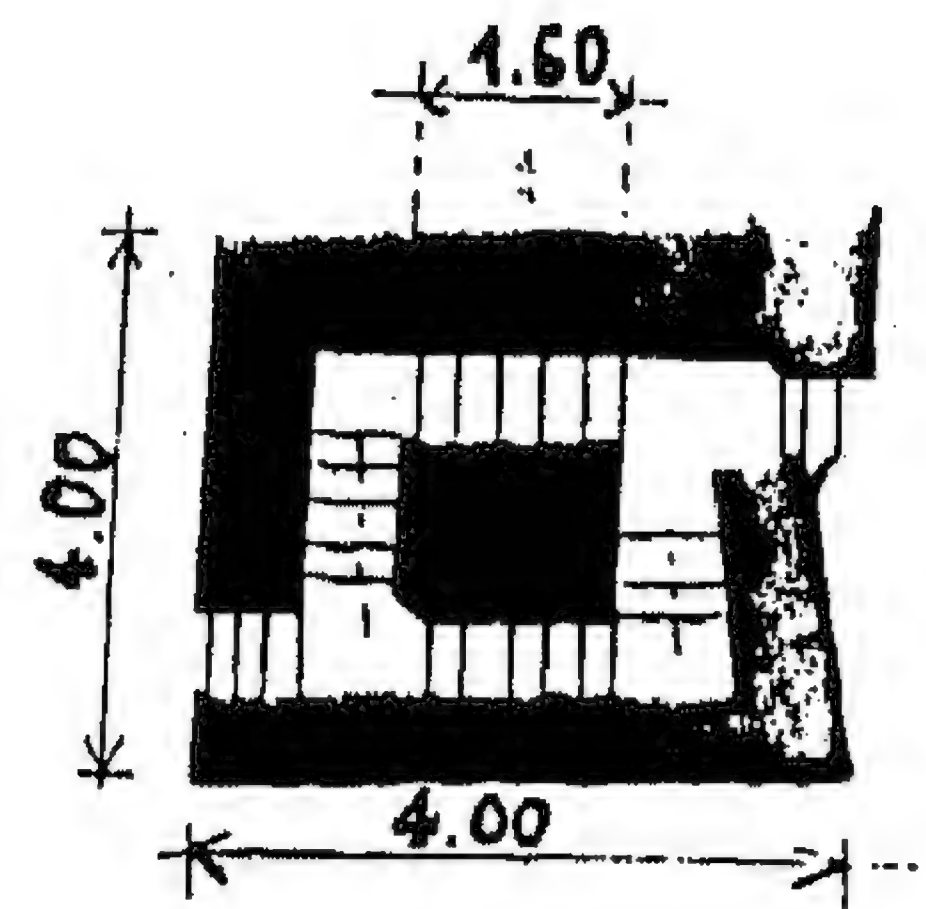
مقياس ١ : ٧٥



شكل (٣٣) : الجامع الجديد (الحواتين) بالجزائر العاصمة
(عن دوكالي)

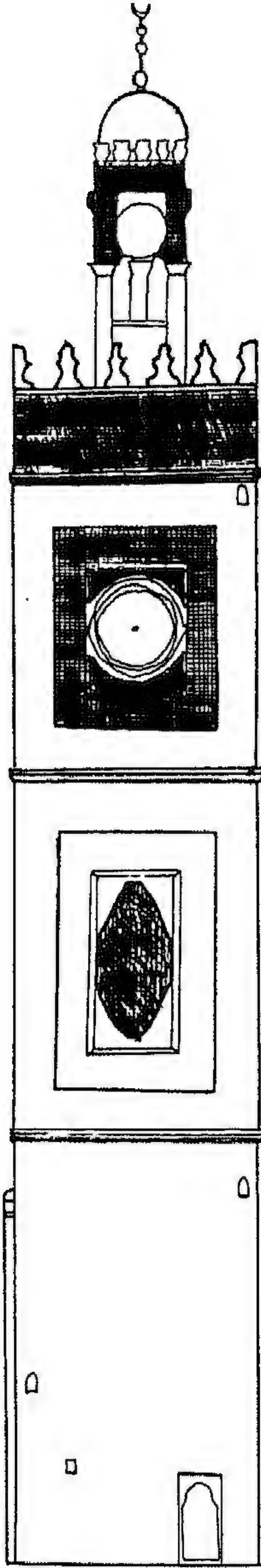


شكل (٣٥) : مقطع طولى لمئذنة جامع
(الحواتين) بالجزائر العاصمة
عن (دوكالى) بعد التحقيق .

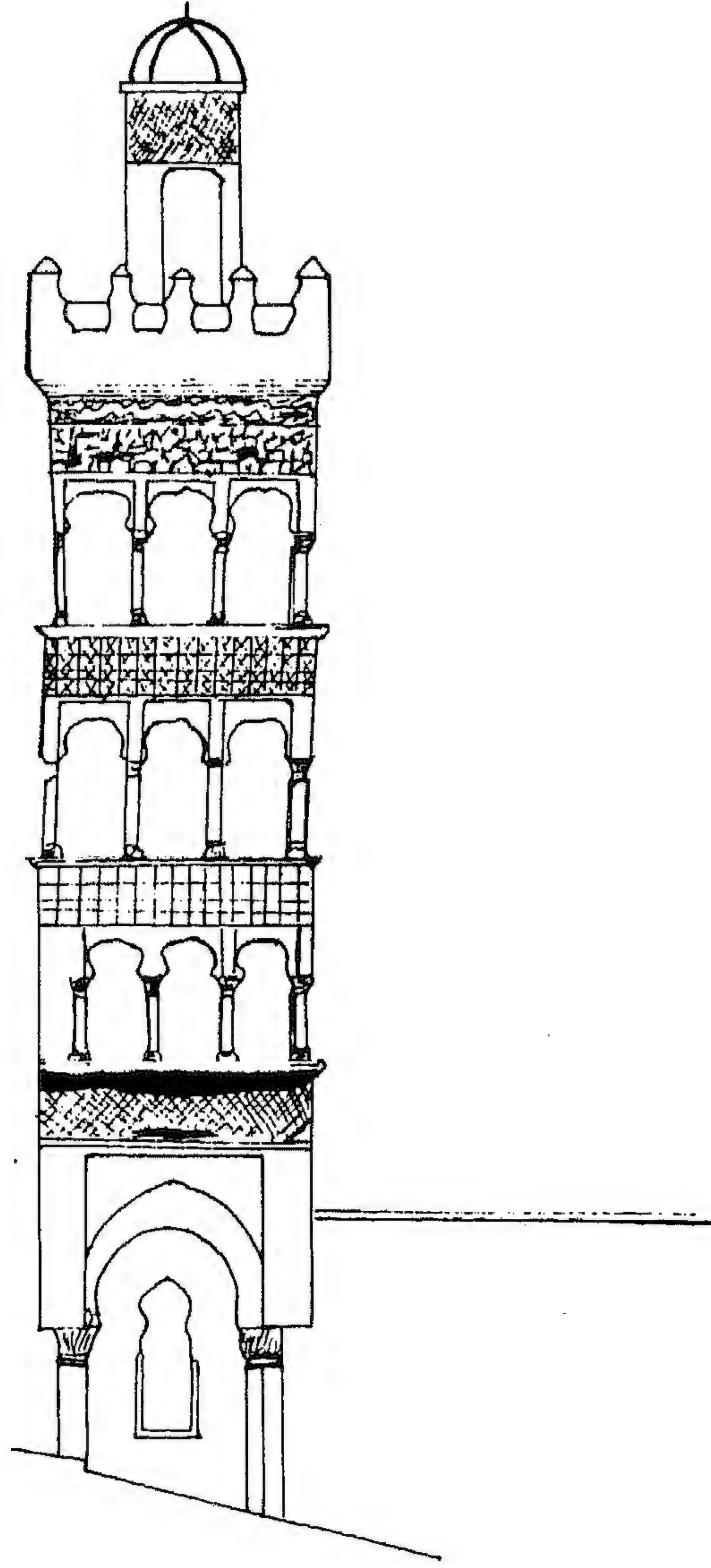


شكل (٣٤) : مقطع عرضى لمئذنة جامع
(الحواتين) بالجزائر العاصمة
عن (دوكالى) بعد التحقيق .

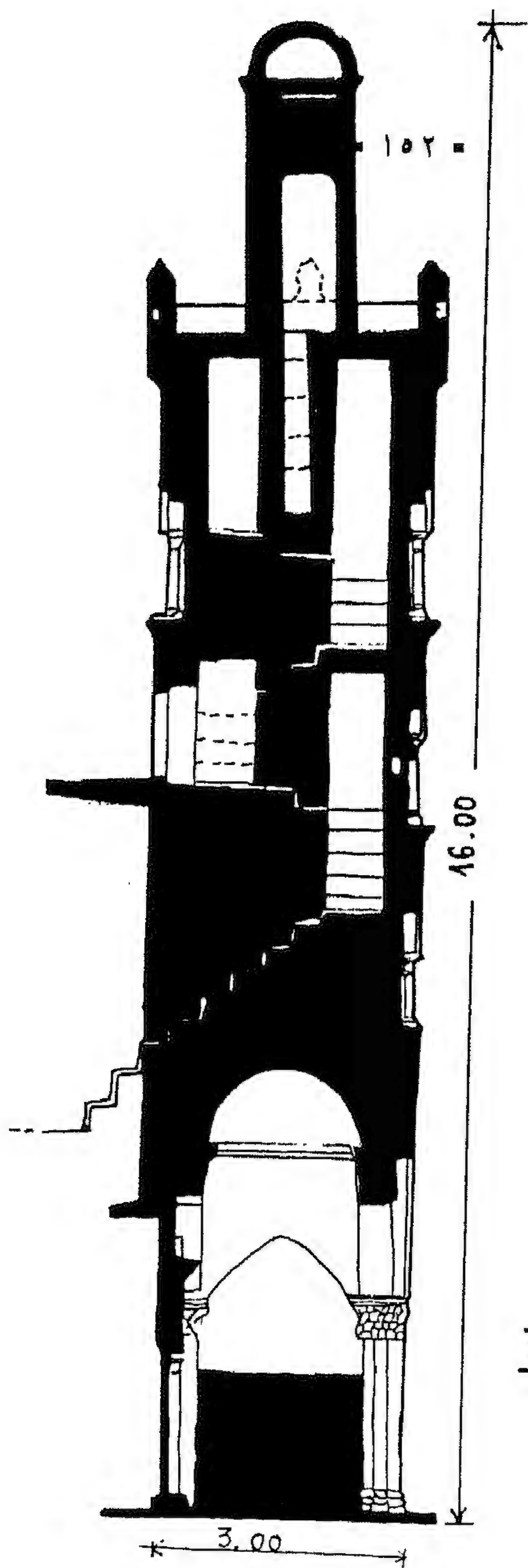
مقياس : ١ : ١٢٥



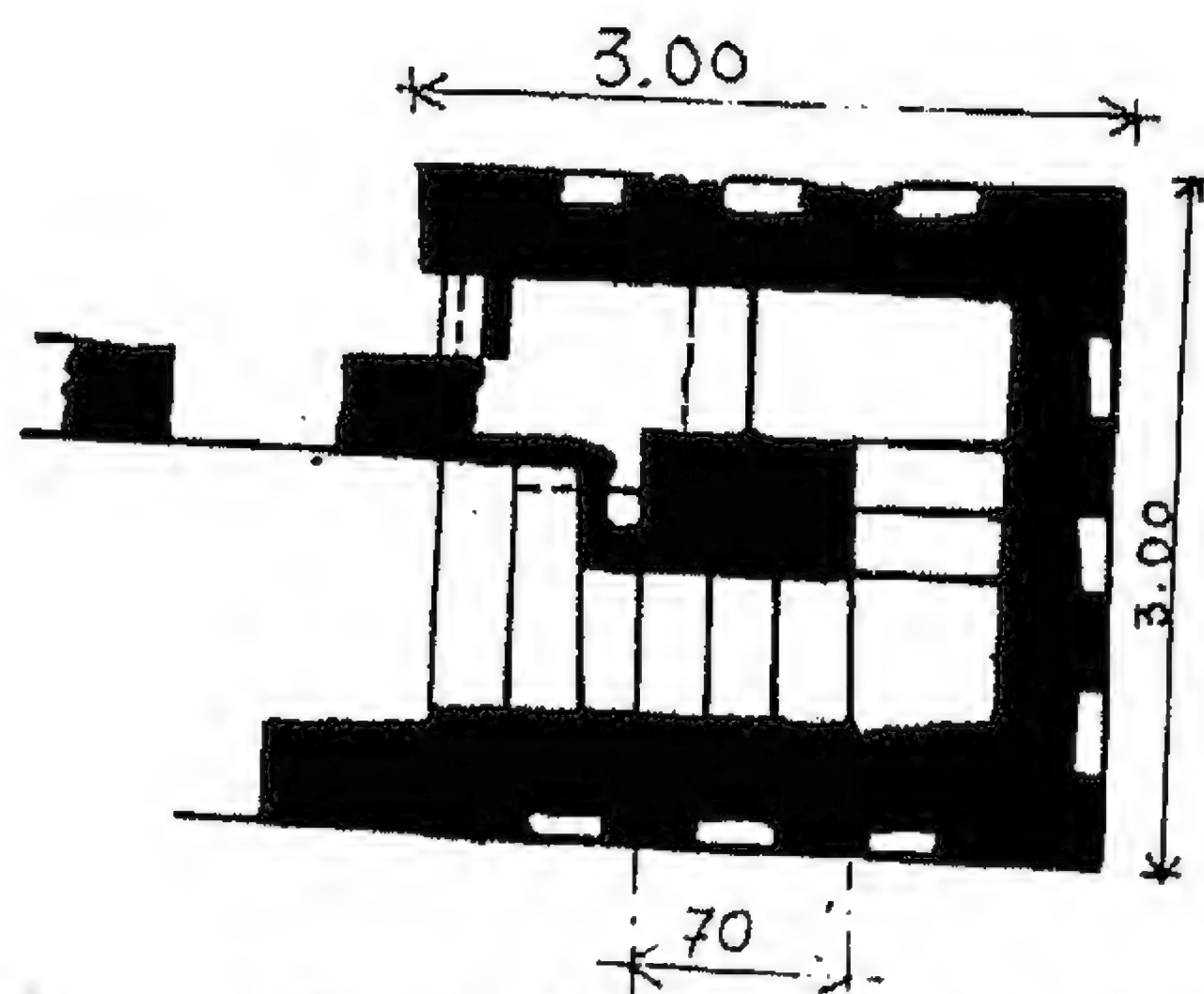
شكل (٣٦) : واجهة مئذنة جامع (الحواتين) بالجزائر (عن دوكالي)



شكل (٣٧) : واجهة مئذنة مسجد سيدى عبد الرحمن الثعالبي (الجزائر)
عن (دوكالى)

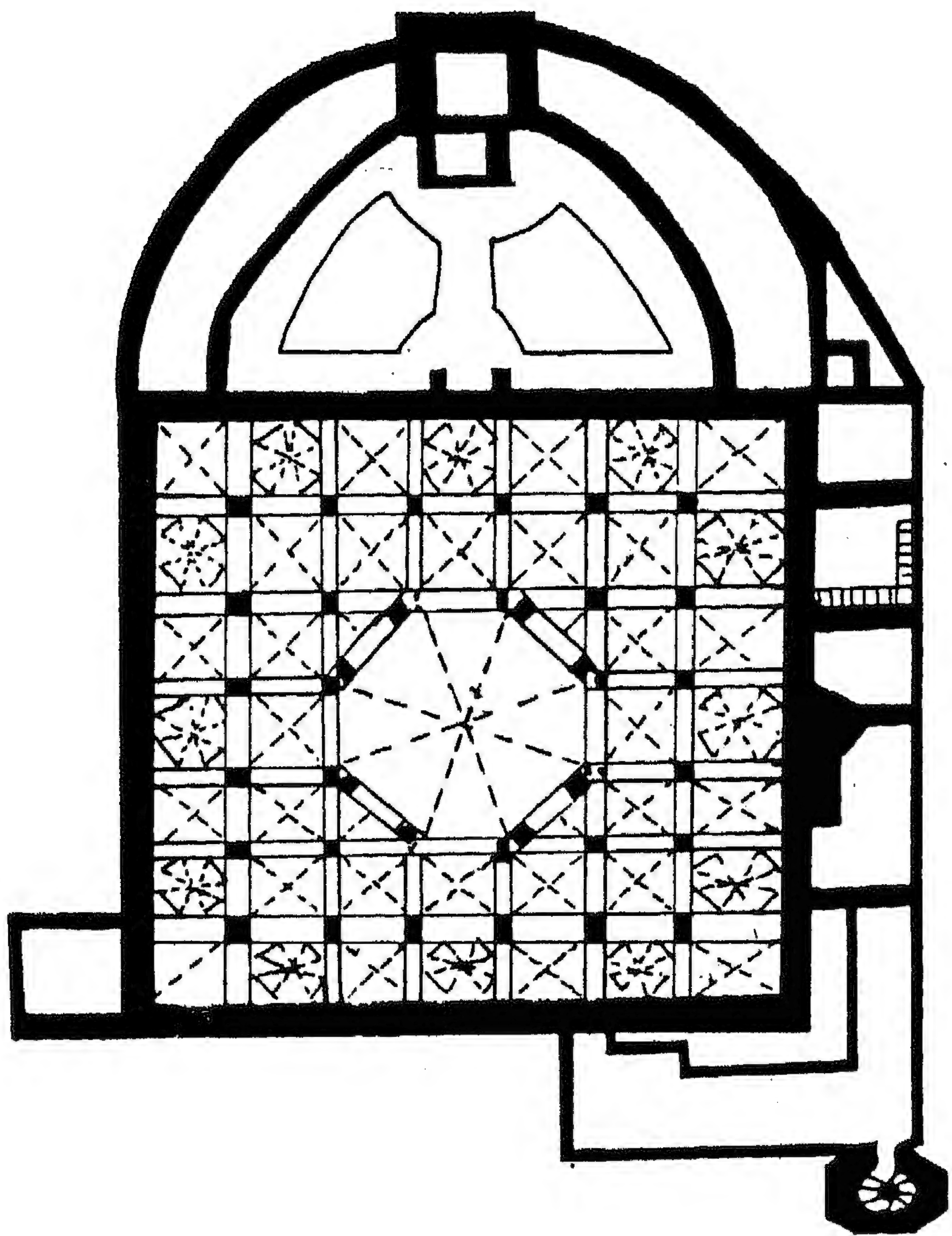


شكل (٣٩) : مقطع طولى لمئذنة مسجد
سیدی عبدالرحمن الثعالبی - الجزائر
عن (دوکالی) بعد التحقیق .

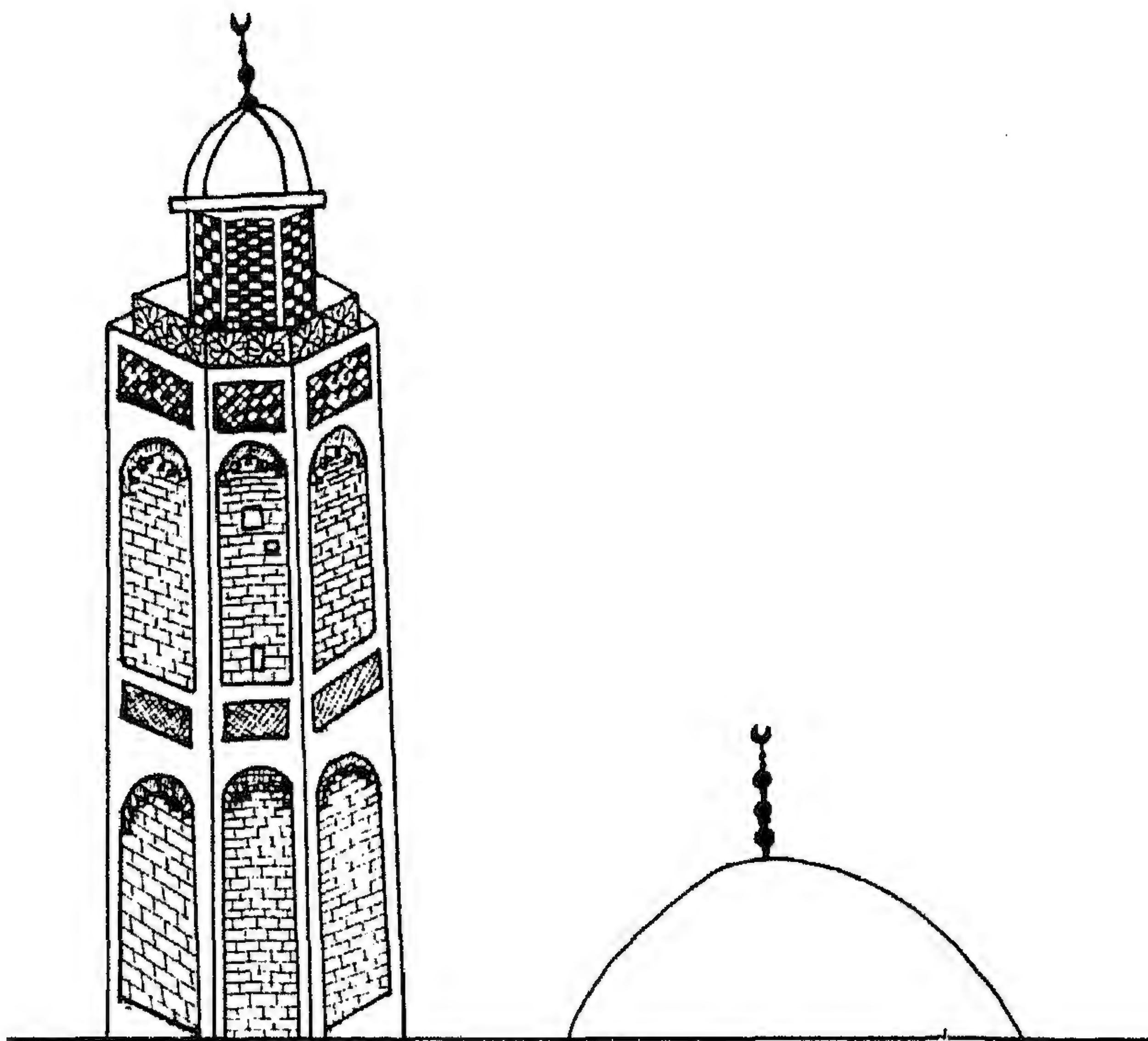


شكل (٣٨) : مقطع عرضی لمئذنة مسجد
سیدی عبدالرحمن الثعالبی - الجزائر
عن (دوکالی) بعد التحقیق .

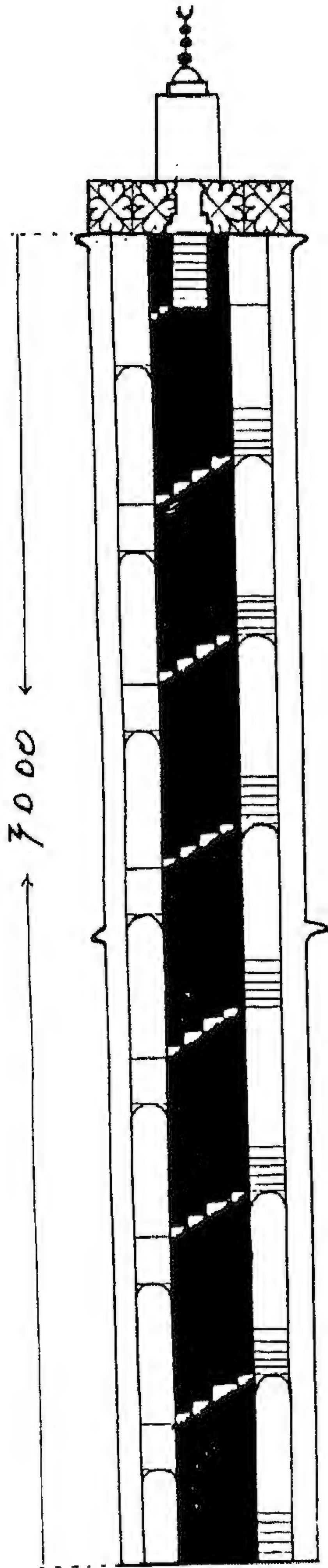
مقیاس ١ : ٧٥



شكل (٤٠) : جامع الباشا بوهـران (عن مهيريـس)



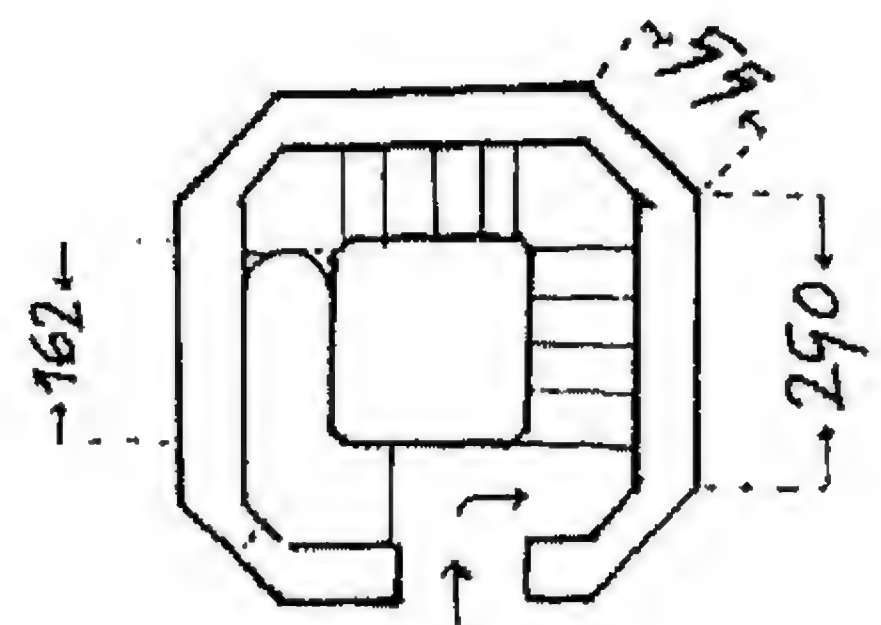
شکل (٤١) : رسم تخطيطی لمئذنة مسجد حسن باشا بوهـران

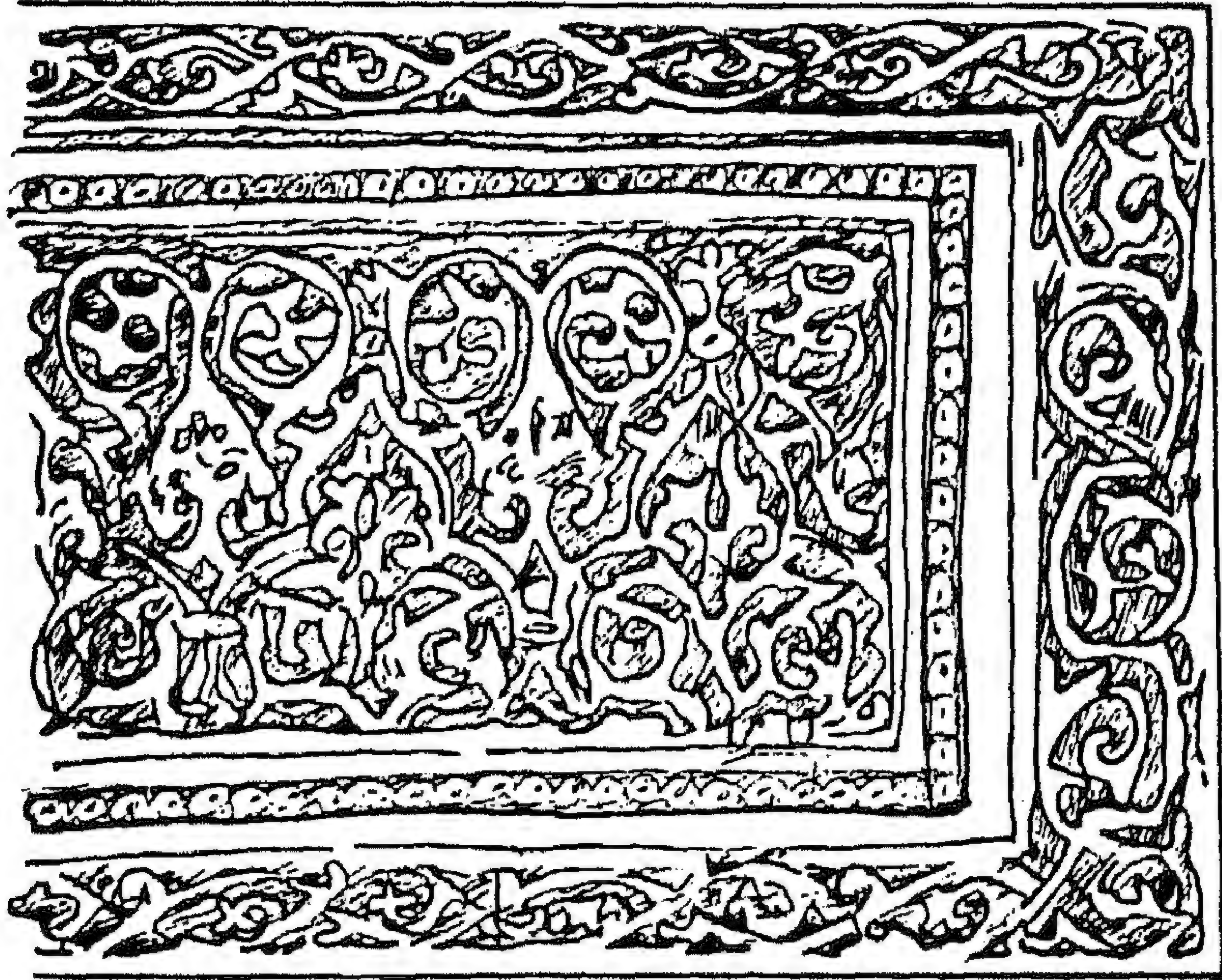


شكل (٤٣) : مقطع طولى لمئذنة
مسجد حسن باشا (وهران) .

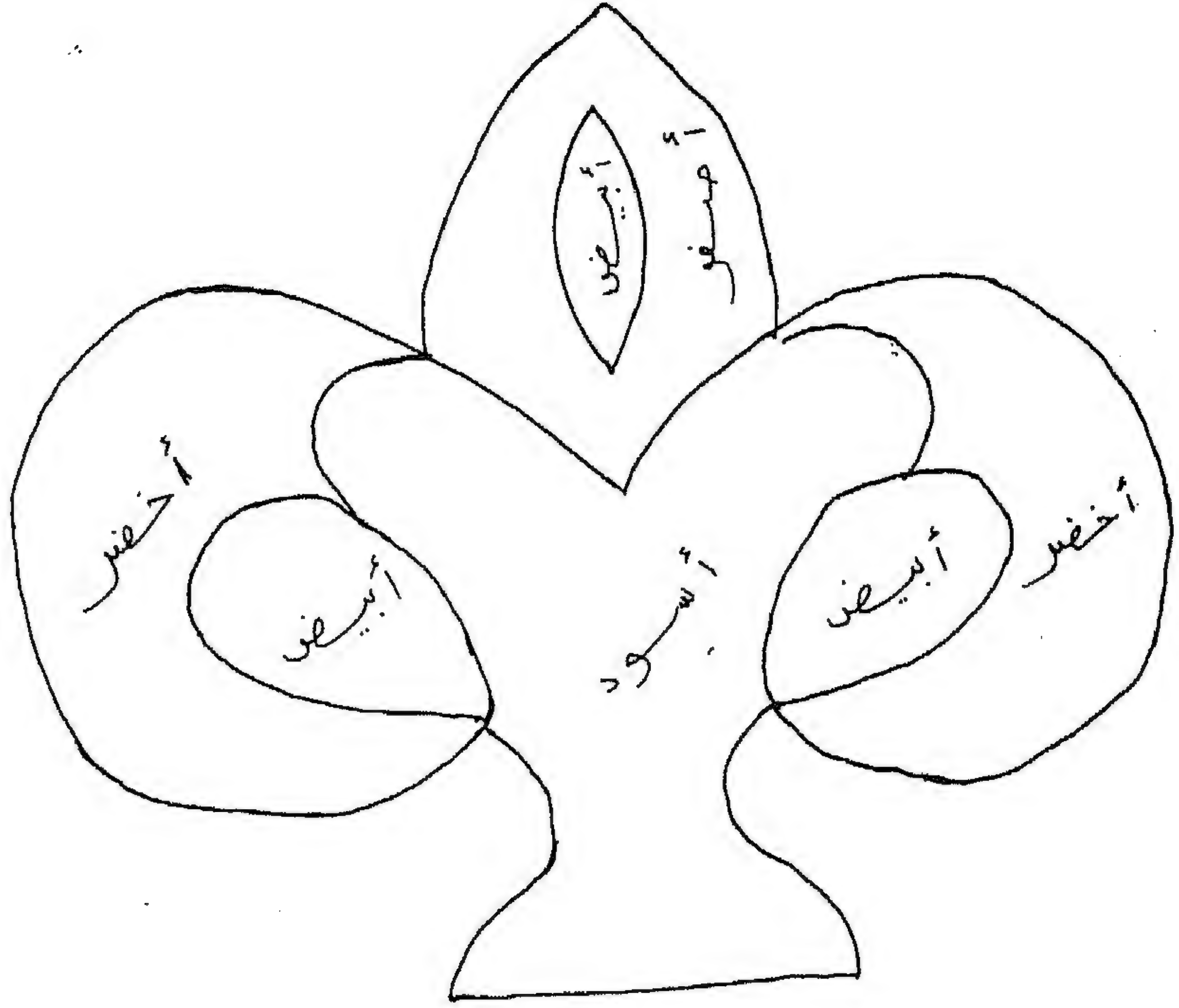
شكل (٤٢) : مقطع عرضى لمئذنة
مسجد حسن باشا (وهران) .

مقياس : ١ : ١٢٥

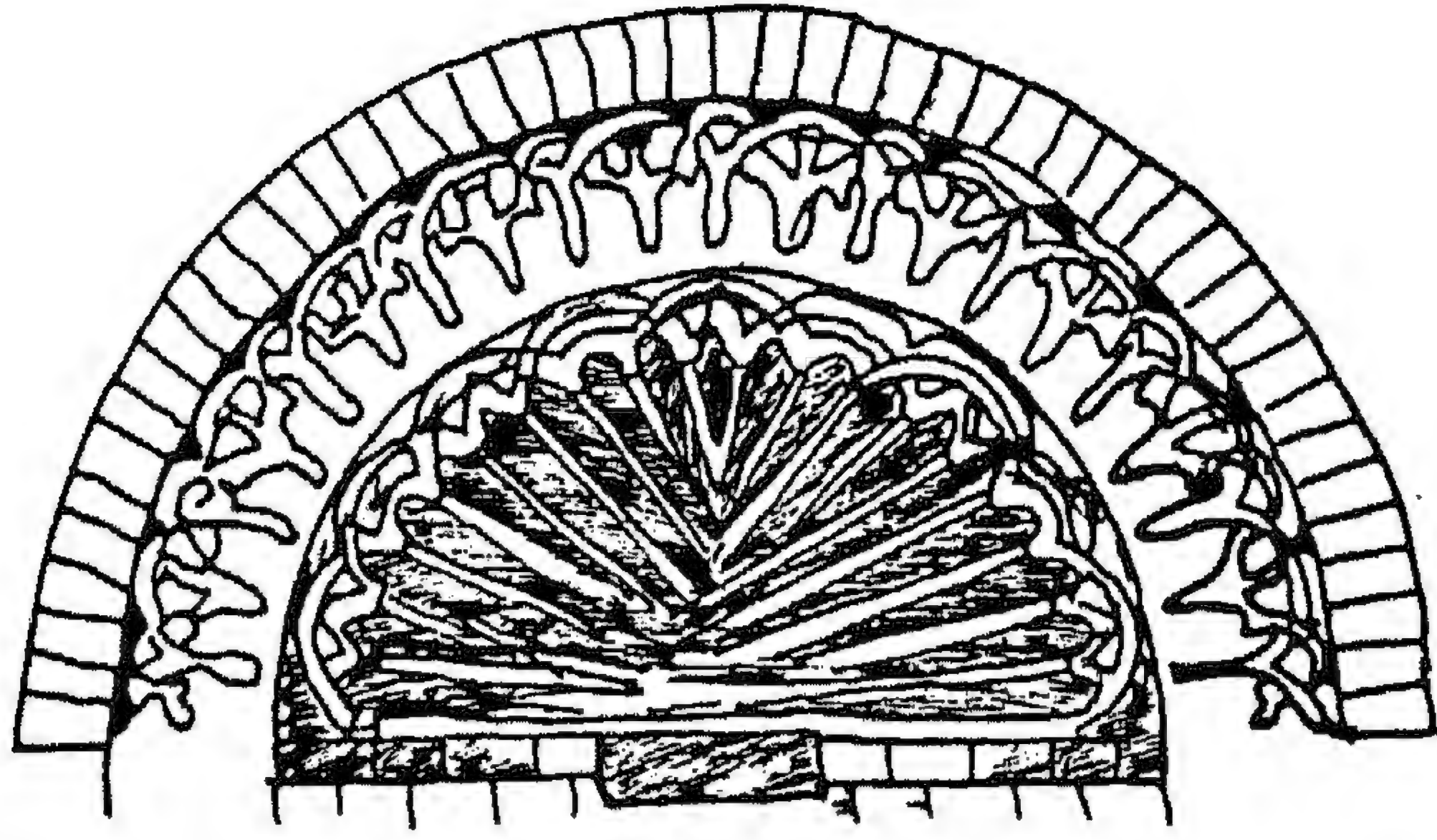




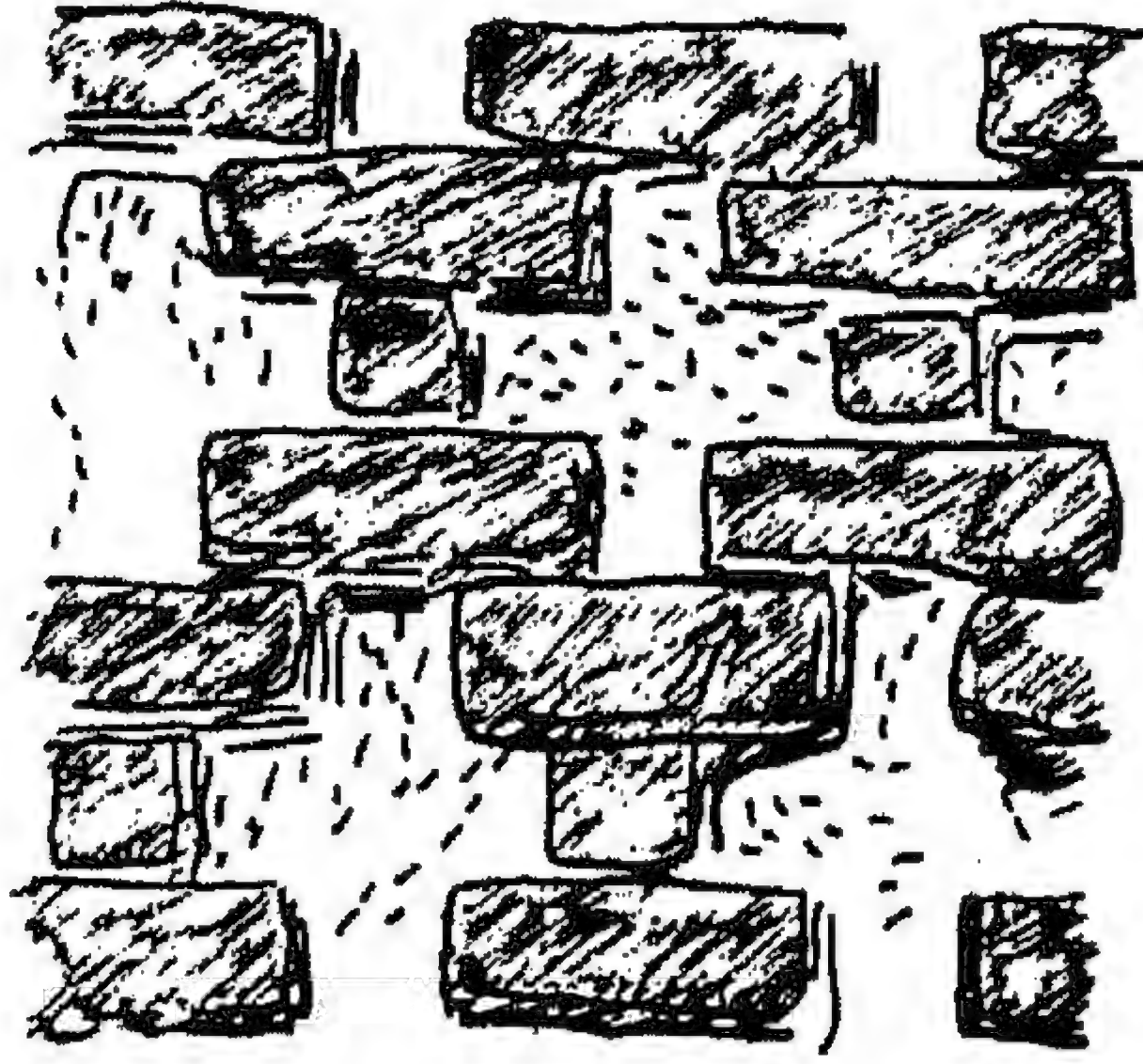
شكل (٤٤) : حشوة من الحجر المنحوت تعلو باب مئذنة مسجد قلعة بني حماد . (عن دوبييلى) .



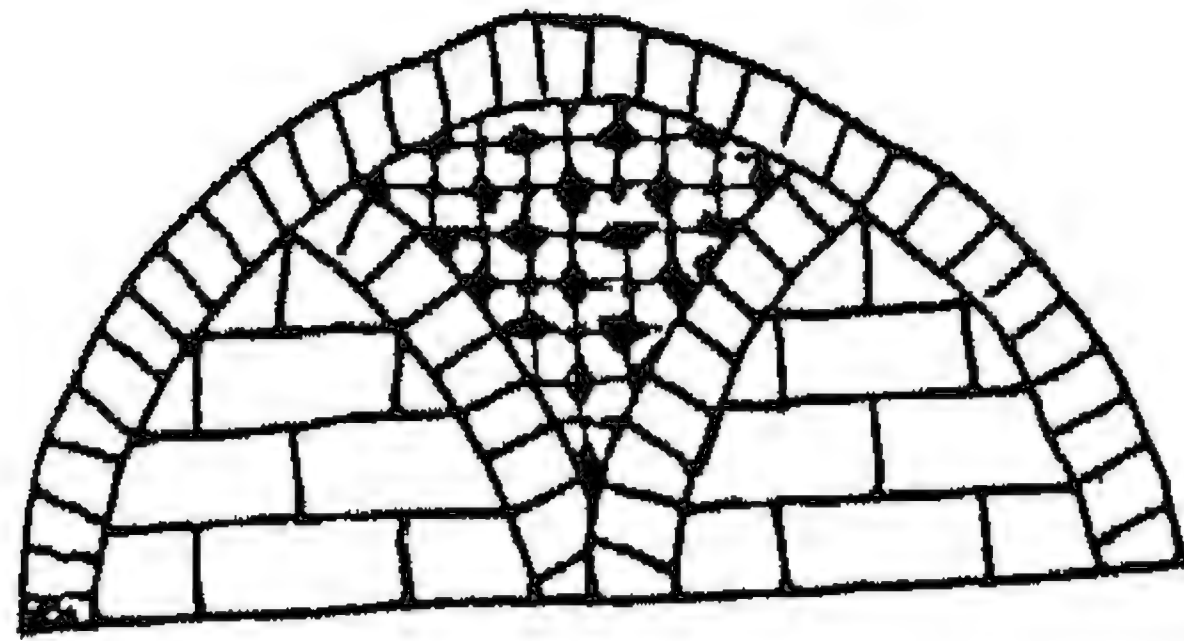
شكل (٤٥) : زخرفة نباتية في جامع سيدى ابي مدين .



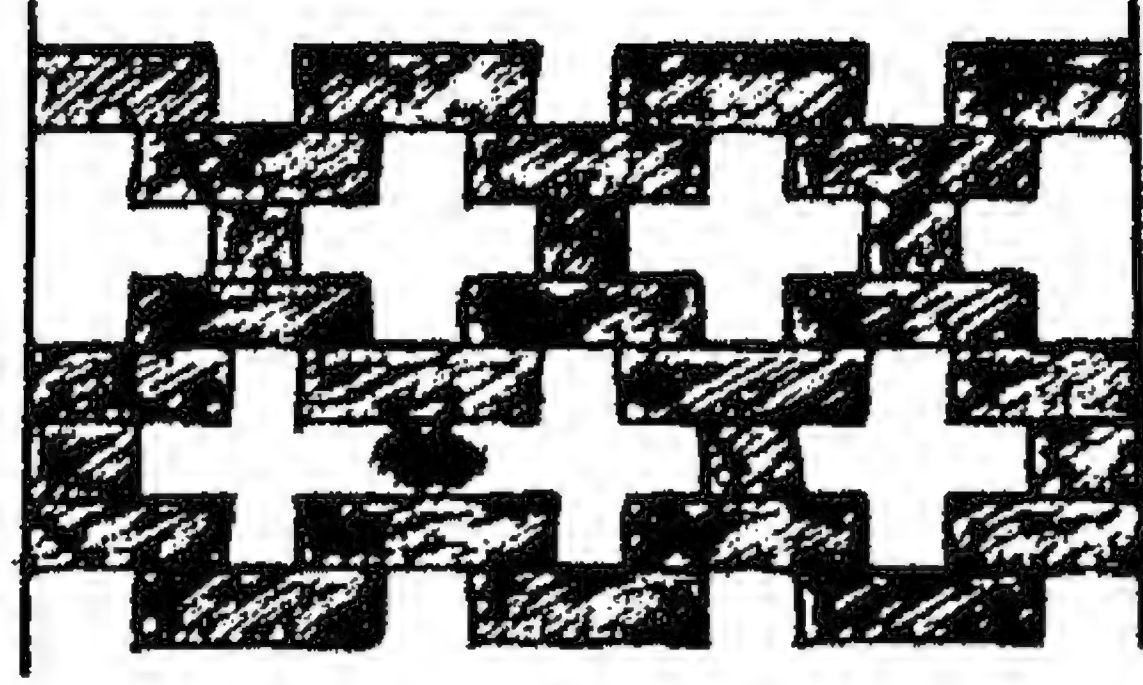
شكل (٤٦) : صدفة مطلية بالجص فى الحنايا الجانبية لمئذنة جامع قلعة
بنى حماد (عن دويلى)



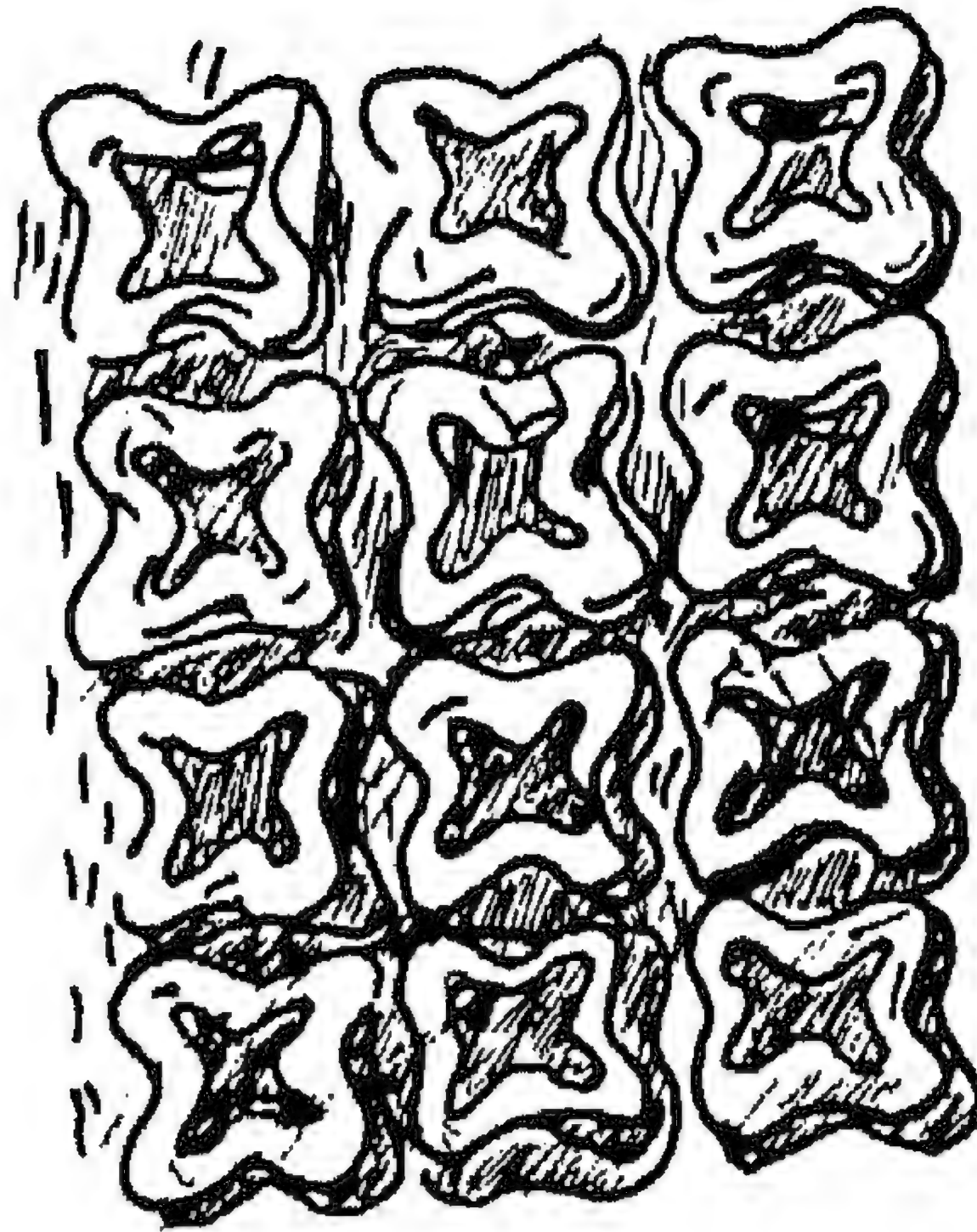
شكل (٤٧) : آجر مطلى بالميناء



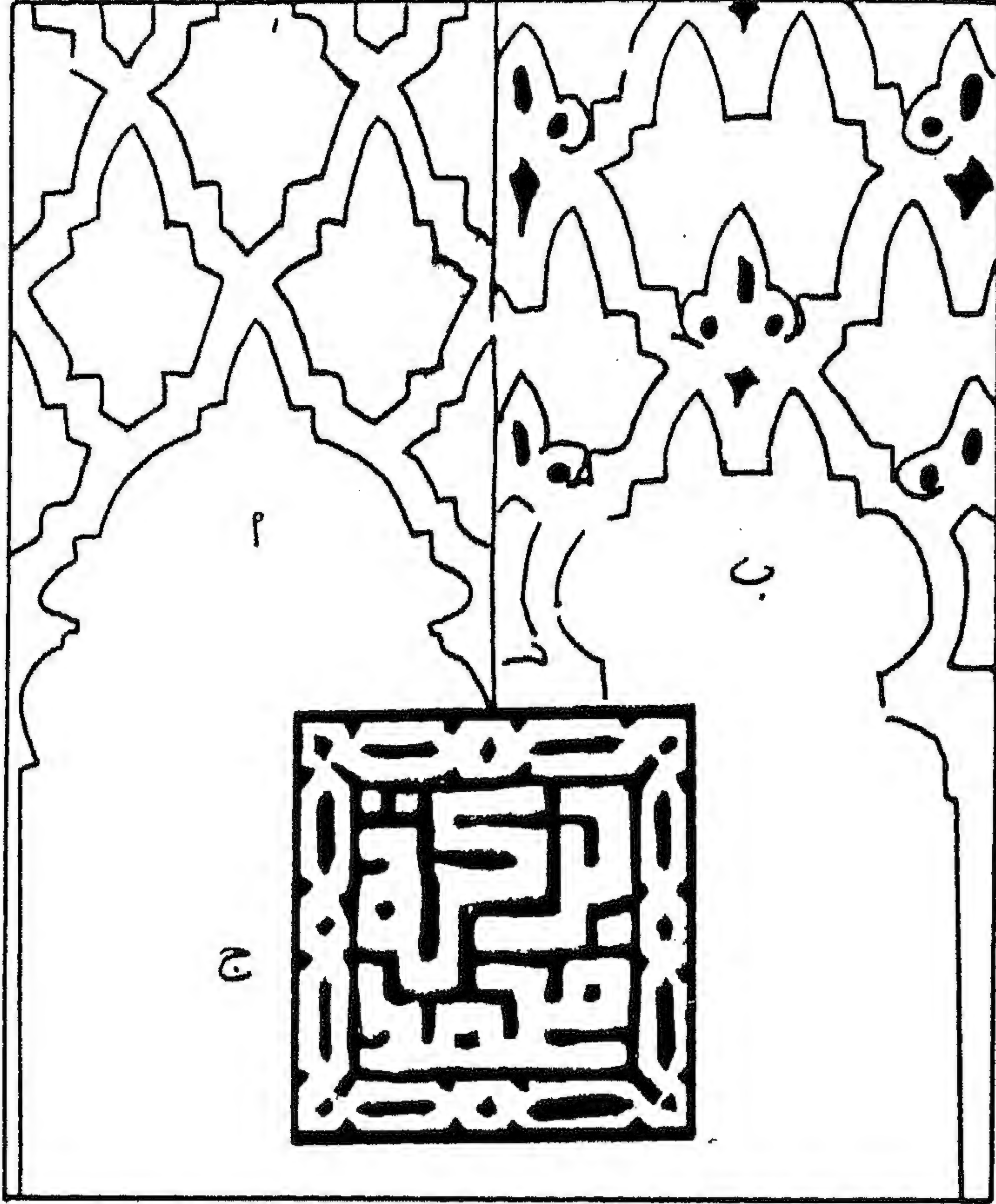
شكل (٤٨) : أطار النافذة الصماء فى الطابق الأخير (عن دويلى).



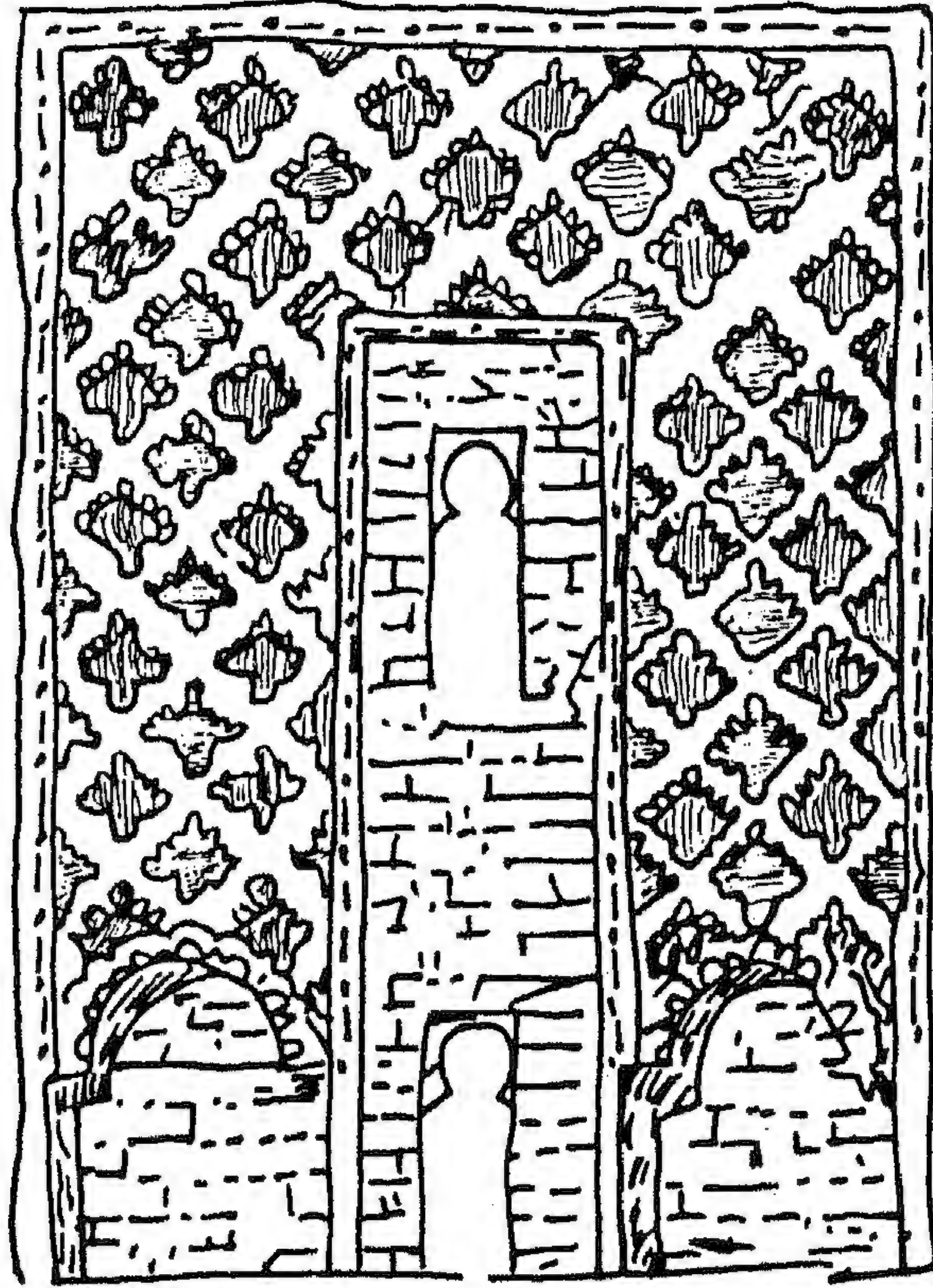
شكل (٤٩) : نوافذ صماء من الحجر في الطابق الثالث واجر مطلى
بالأخضر. (عن دوبيلس)



شكل (٥٠) : اشكال هندسية مرصعة

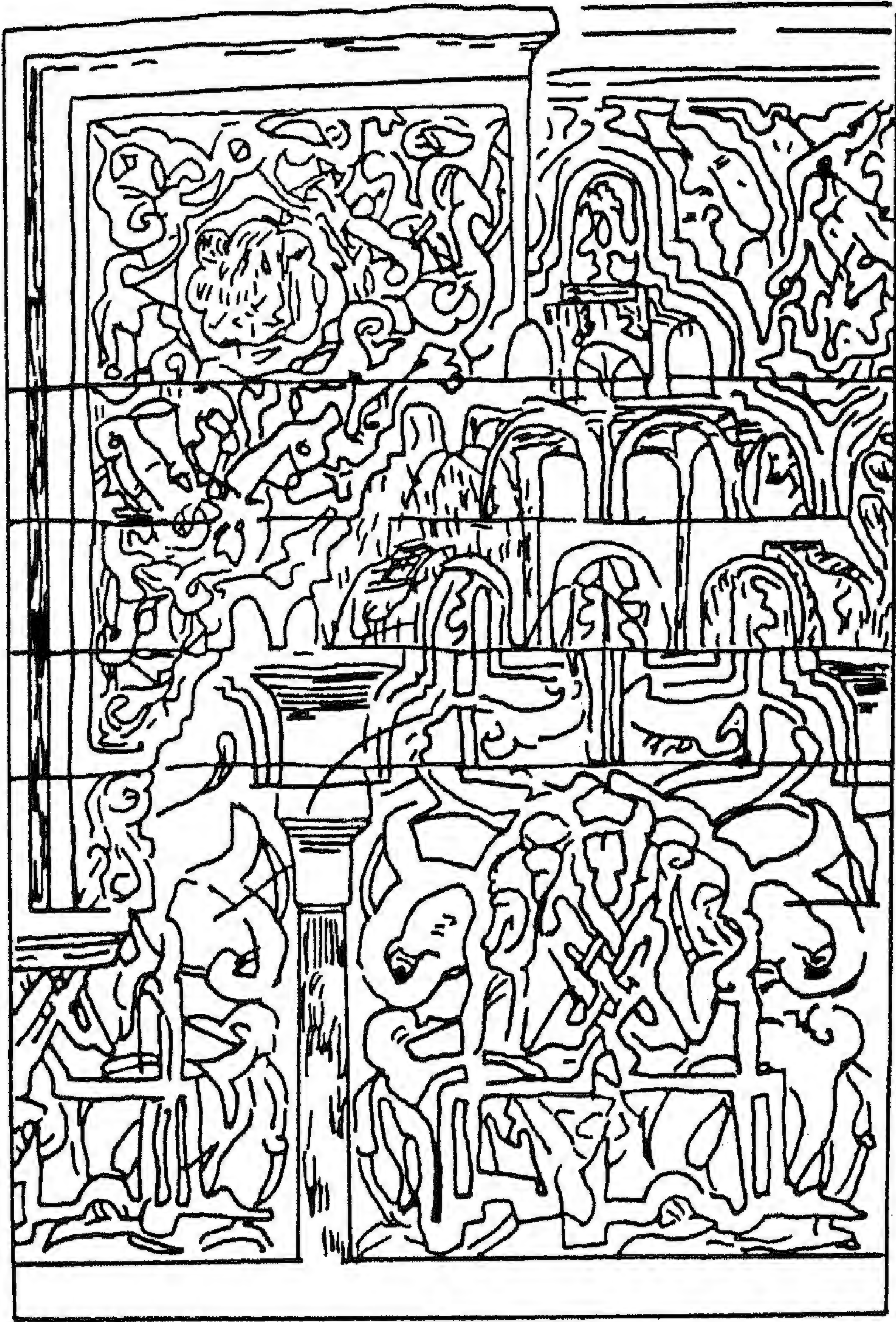


شكل (٥١) : أ - ب : نماذج تشبيكات زخرفية لجانب من المئذنة (سيدى أبى مدين)
 ج : كتابة بالخط الكوفى المربع الزوايا .
 (عن جورج ووليام مارسيليه) .



شكل (٥٢) : جانب من زخارف مئذنة المنصورة بتلمسان
عن مارسيليه

أخضر	
بنى	
ازرق	

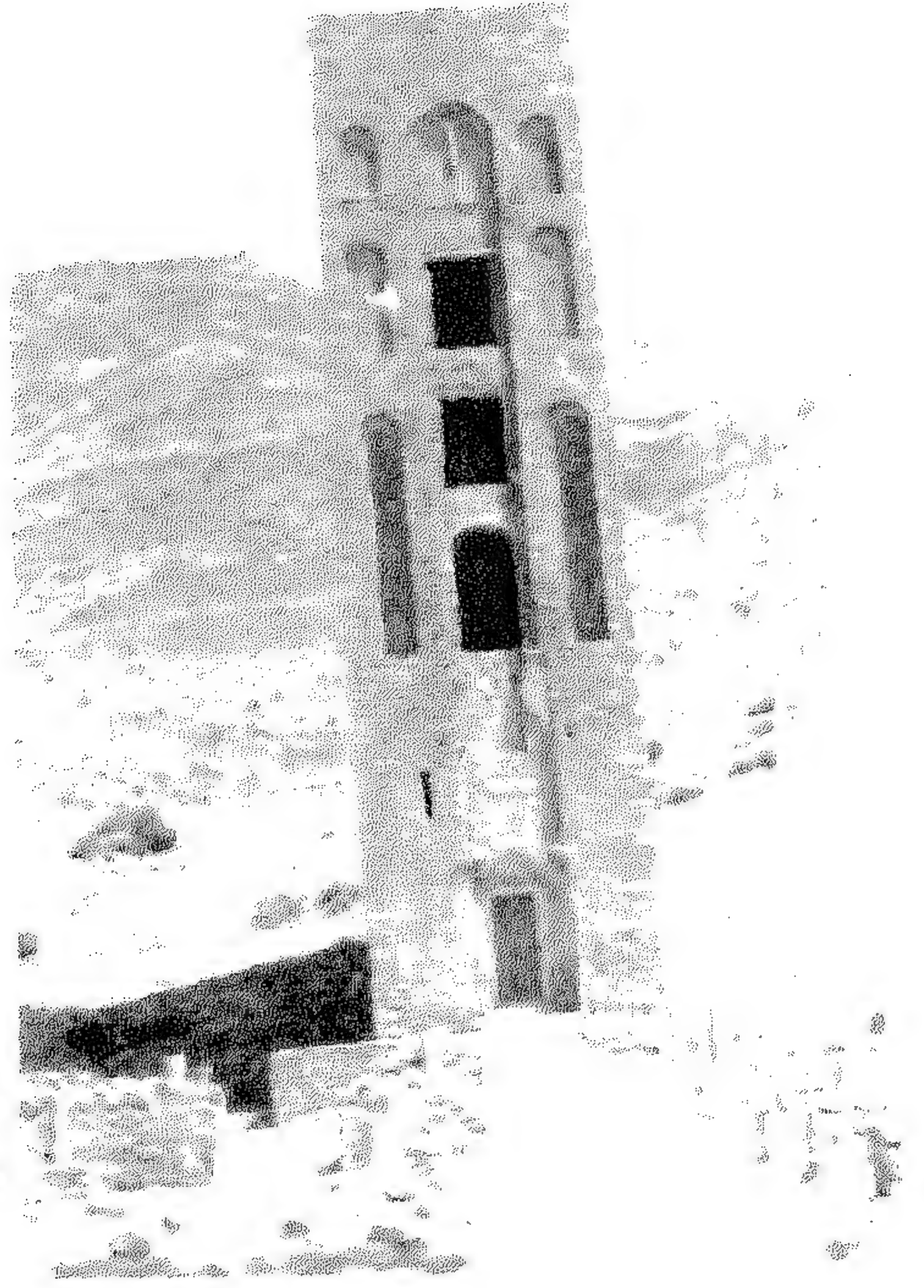


شكل (٥٣) : حشوات زخرفية لشرفة المئذنة ومنظر وجهى للمقرنصات
ومنظر جانبي للدعائم الجانبية (المنصورة) . عن جورج ووليام مارسيليه .

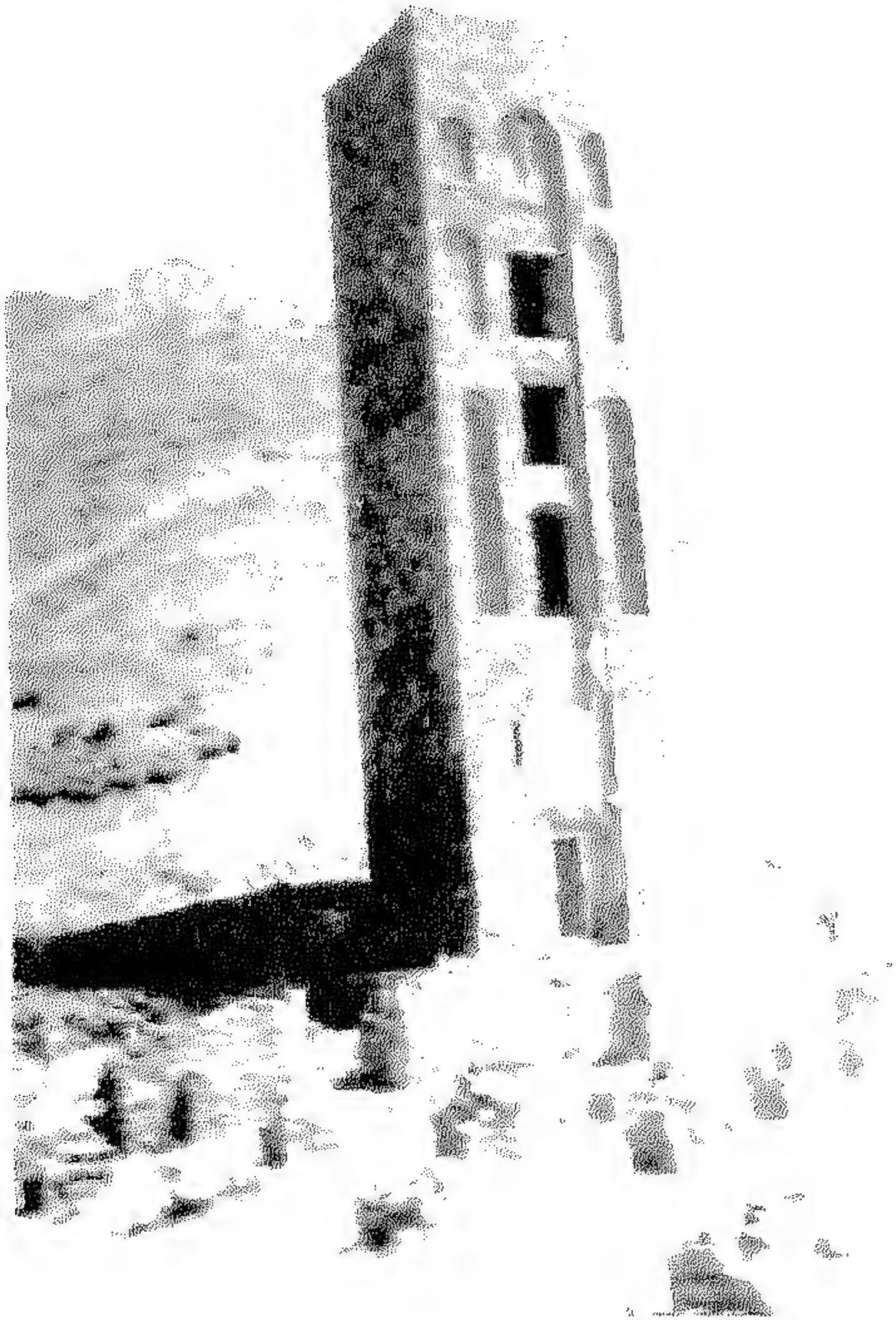


شكل (٥٤) : طوق نحاسى دائرى مجوف مزين بزخرفة كتابية كان يتوج مثذنة المسجد الجامع بتلمسان . (عن بورويبة) .

ثانياً: اللوحات



لوحة (١) : منظر لواجهة مئذنة قلعة
بنى حماد - أول مئذنة في الجزائر .



لوحة (٢) : منظر جانبي لمئذنة
قلعة بنى حماد .



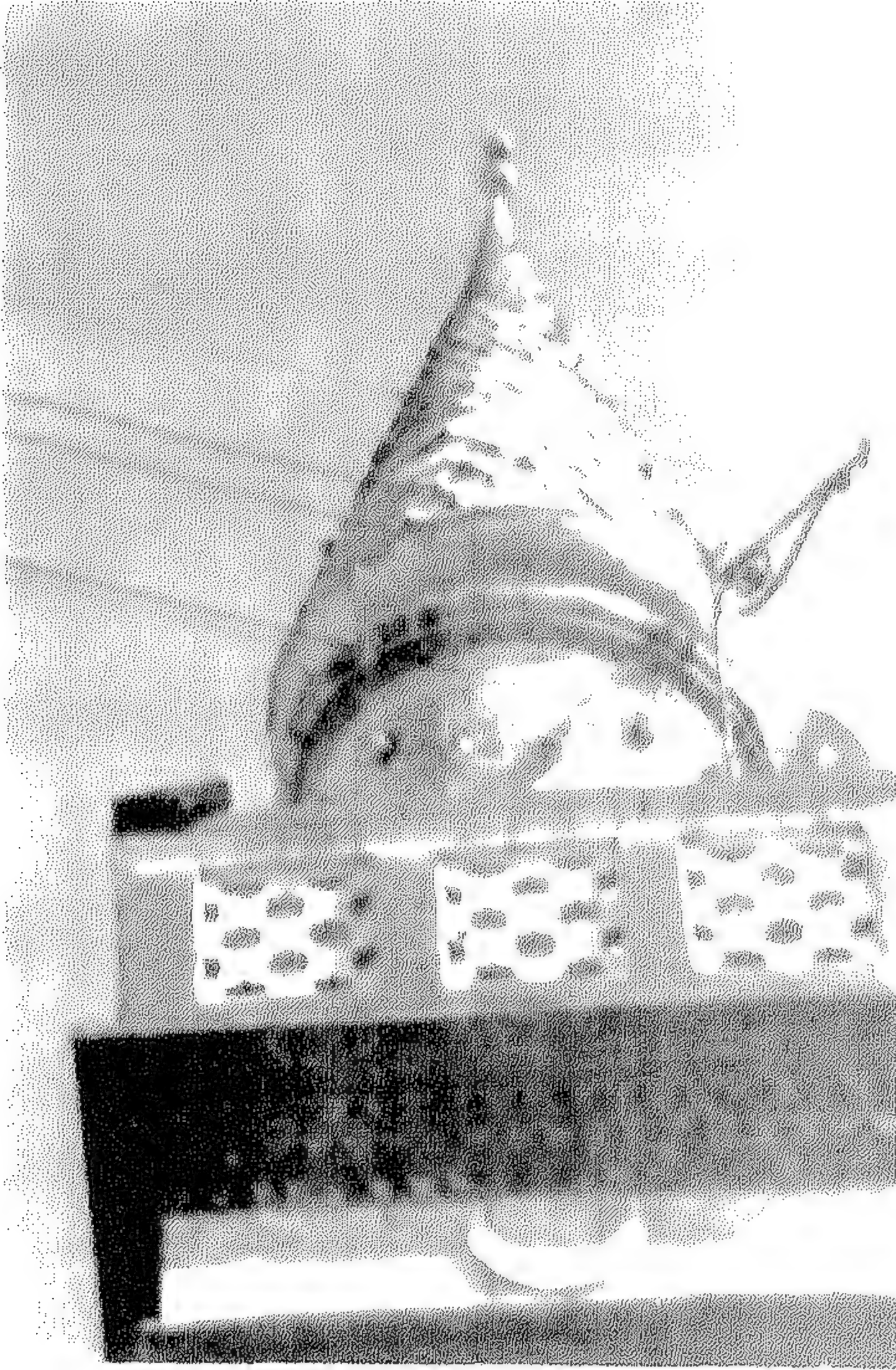
لوحة (٣) : فتحة على شكل مزغل
للاضاءة والتهوية والمراقبة.
(مئذنة قلعة بنى حماد)



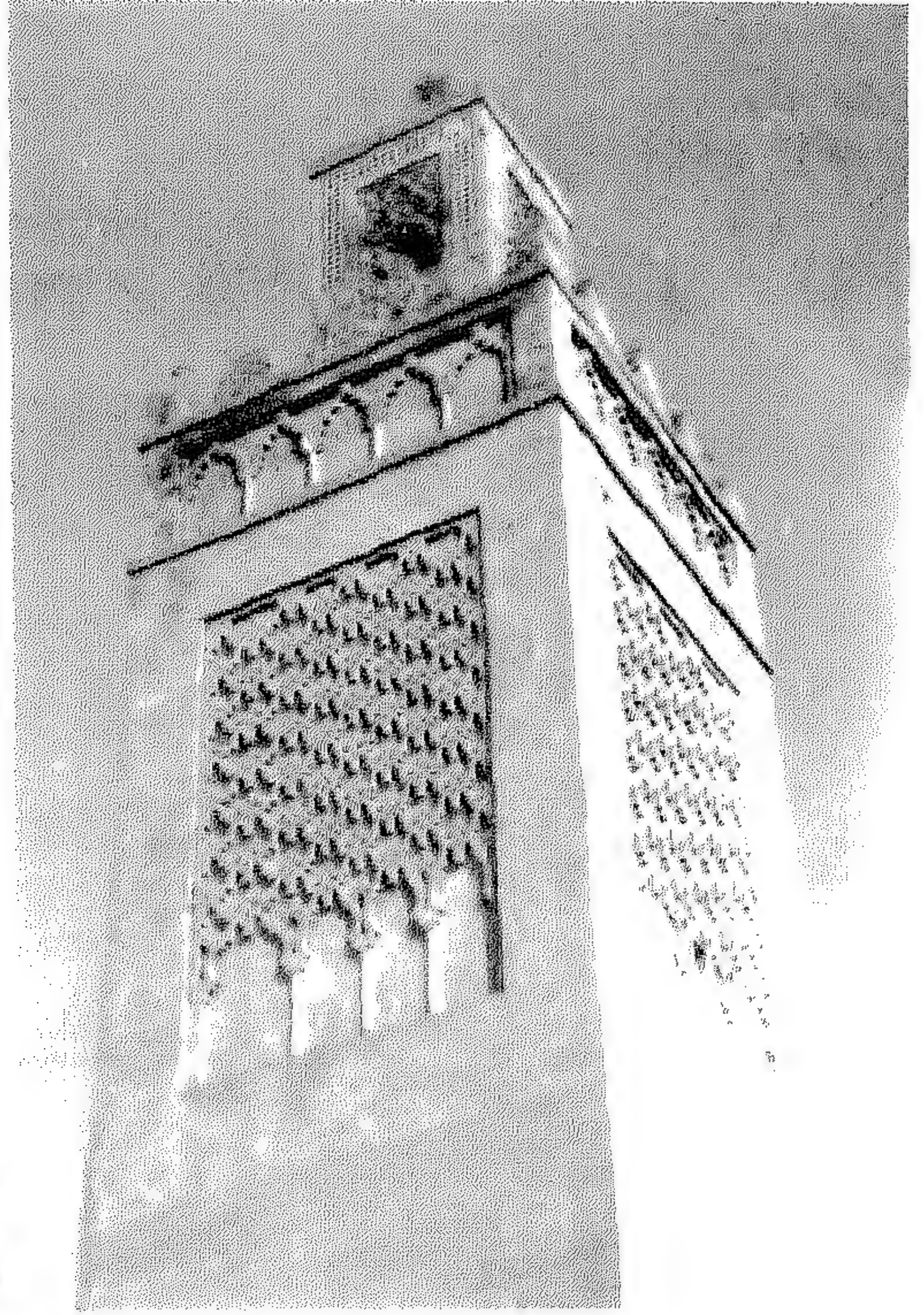
لوحة (٤) : قبو متقاطع يغطي سلم
مئذنة قلعة بنى حماد من الداخل .



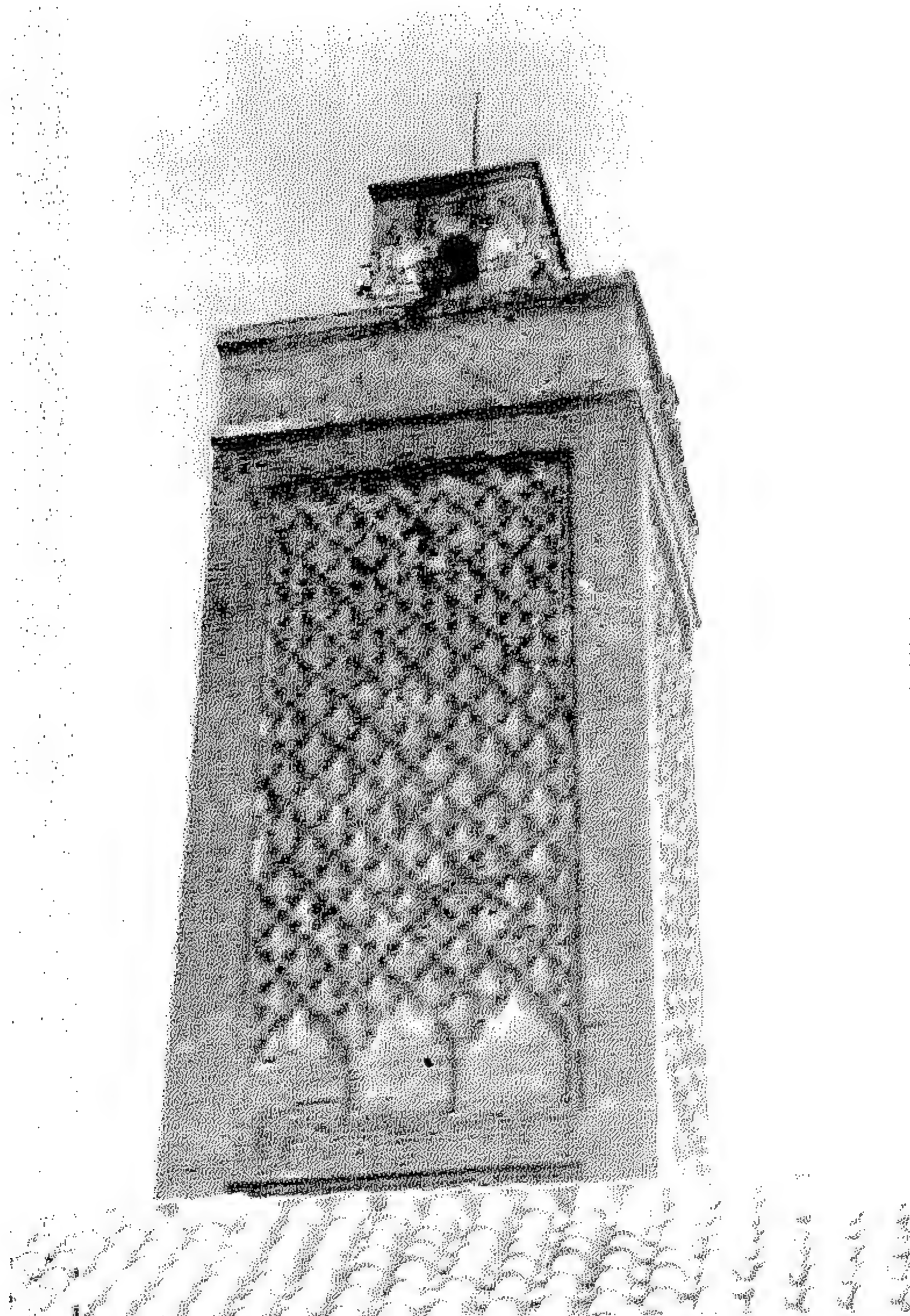
لوحة (٥) : منظر عام لمئذنة
المسجد الجامع بقسطنطينة .



لوحة (٦) : جوسق مئذنة المسجد
الجامع بقسطنطينة .



لوحة (٧) : مئذنة المسجد الجامع
بتلمسان .



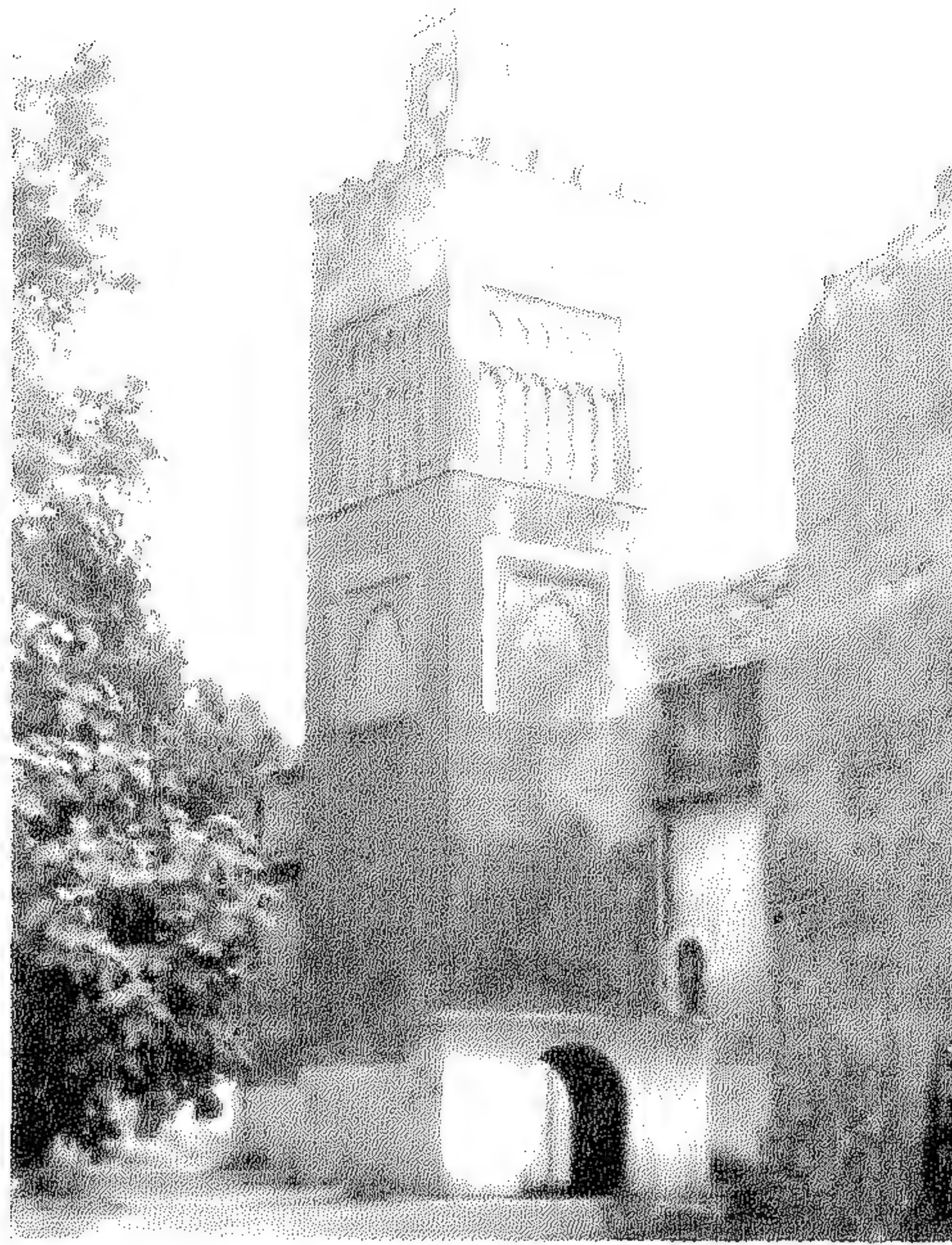
لوحة (٨) : مئذنة جامع ندروم



لوحة (٩) : مئذنة جامع سيدي ابي الحسن بتلمسان .



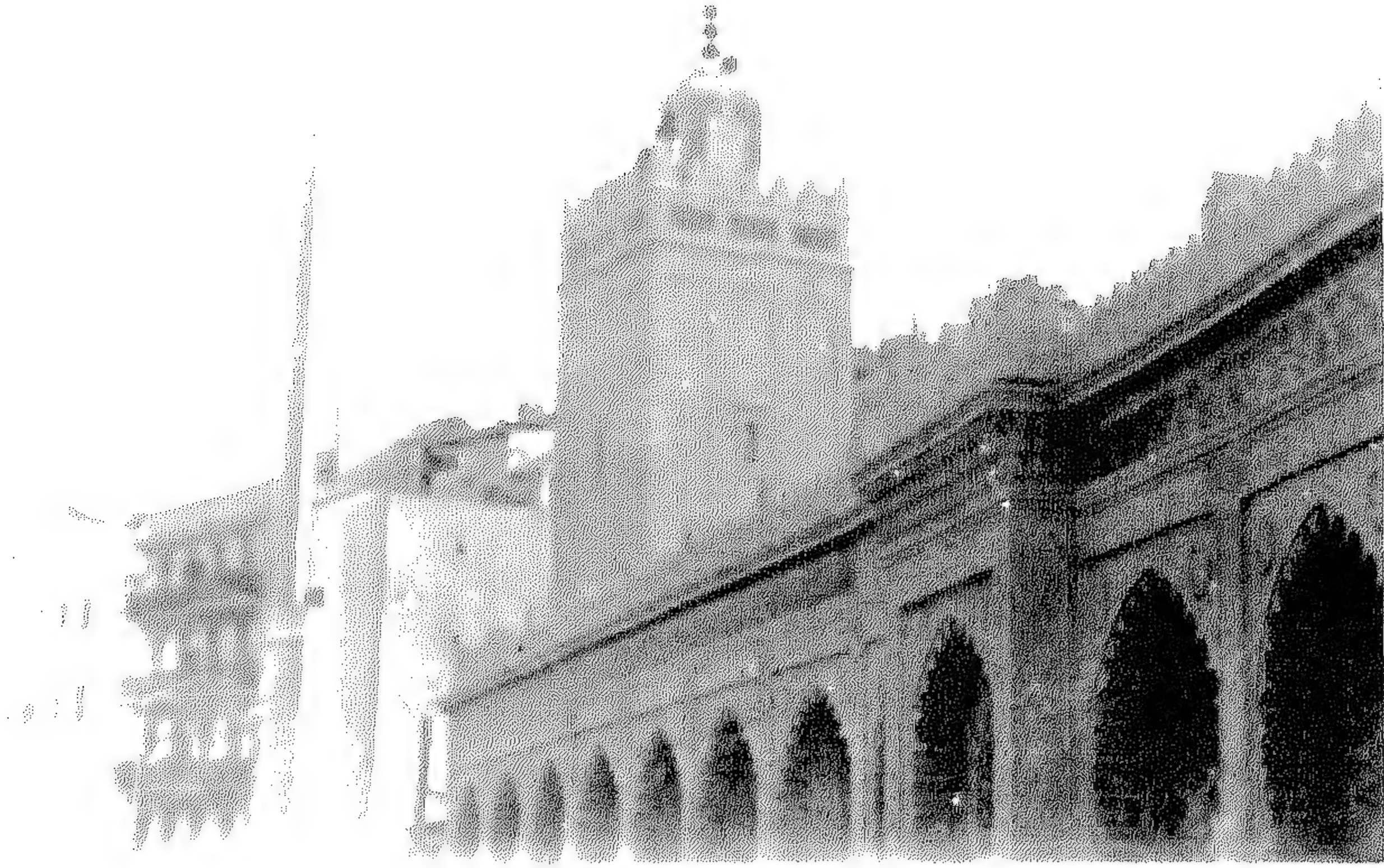
لوحة (١٠) : الجزء العلوي لمئذنة جامع سيدي ابي الحسن (قلمسان)



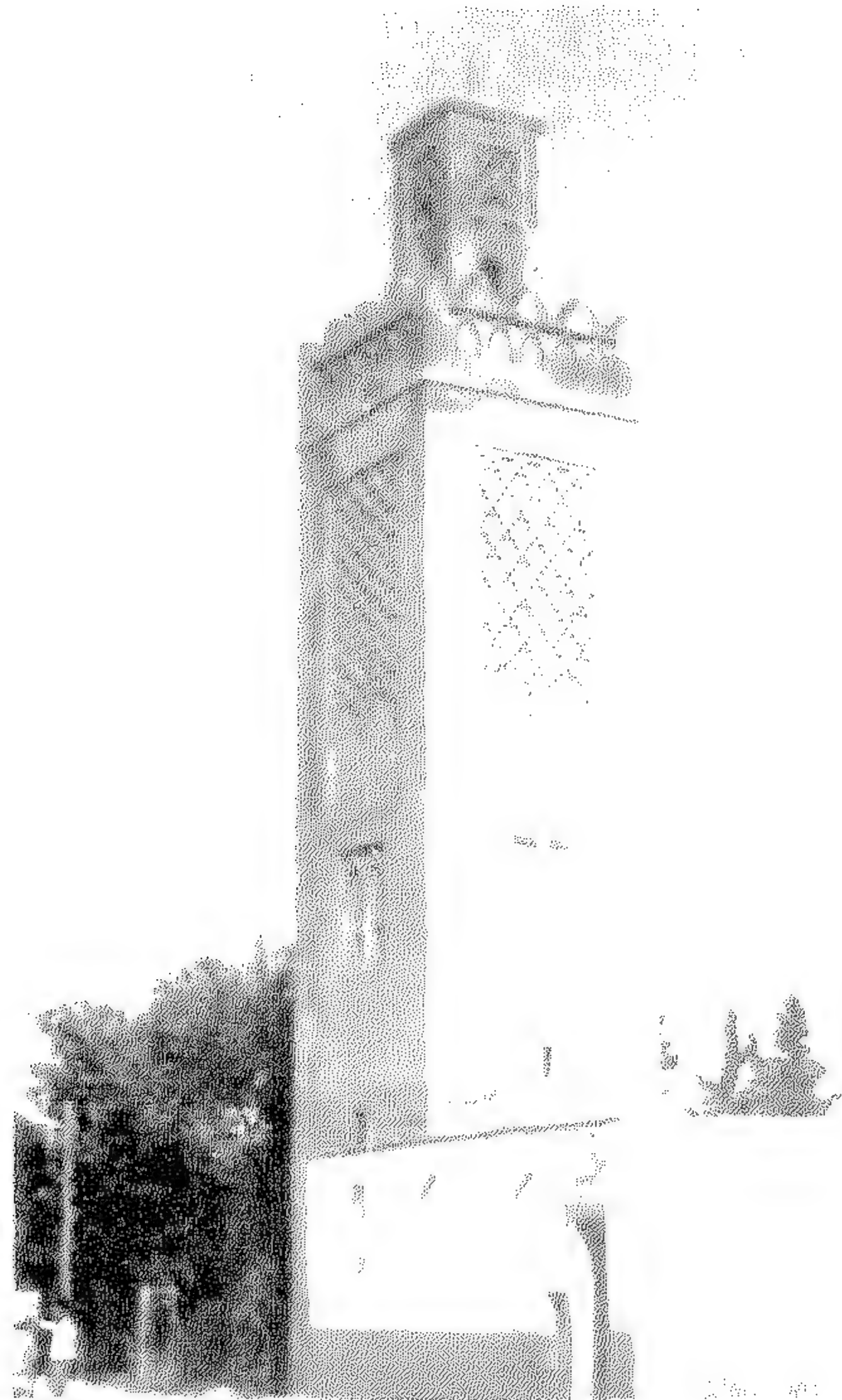
لوحة (١١) : منظر عام لمئذنة جامع المشور . (تلمسان)



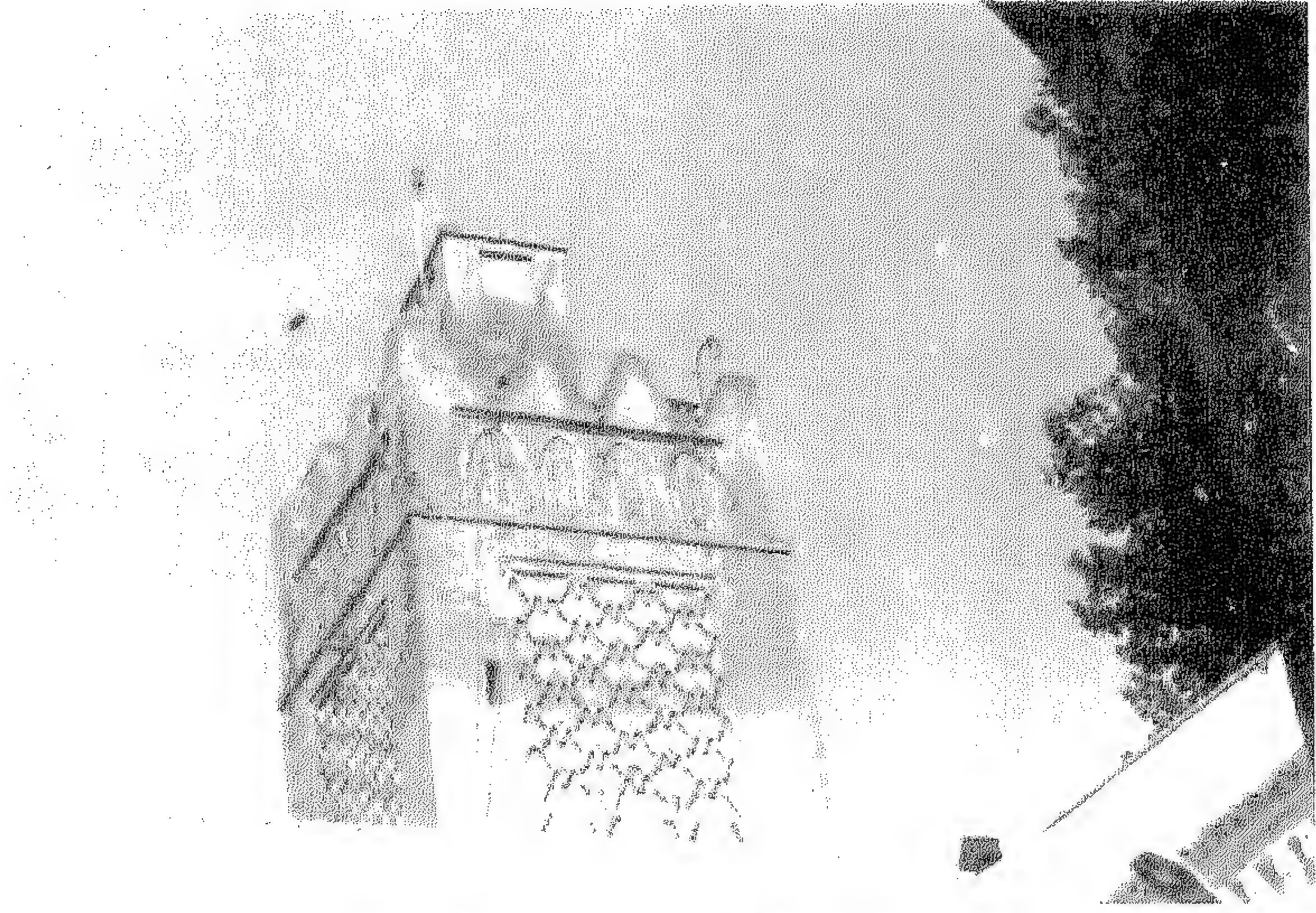
لوحة (١٢) : الجزء العلوى لمئذنة جامع المشور . (تلمسان) .



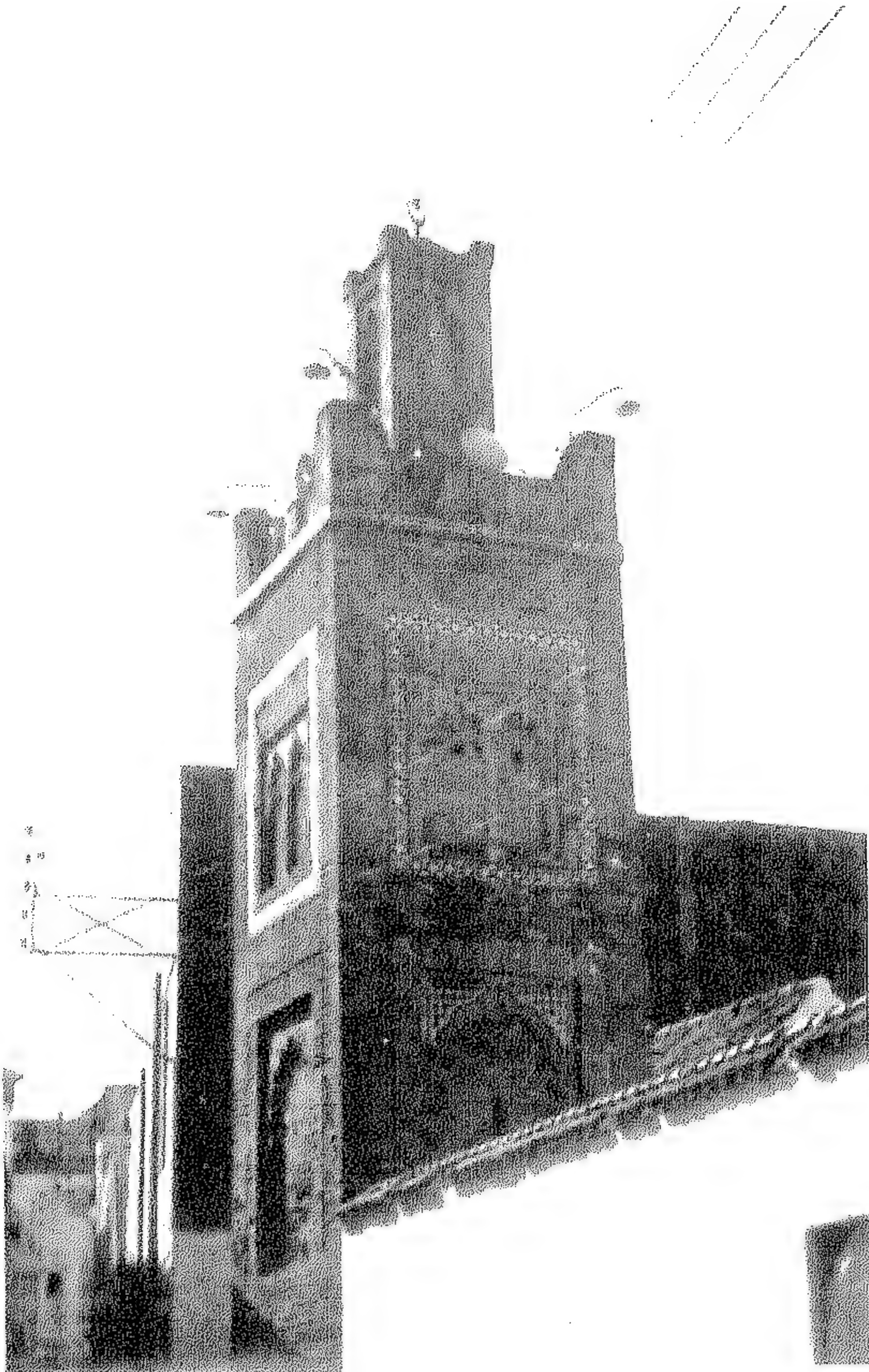
لوحة (١٣) : مئذنة جامع الجزائر العاصمة .



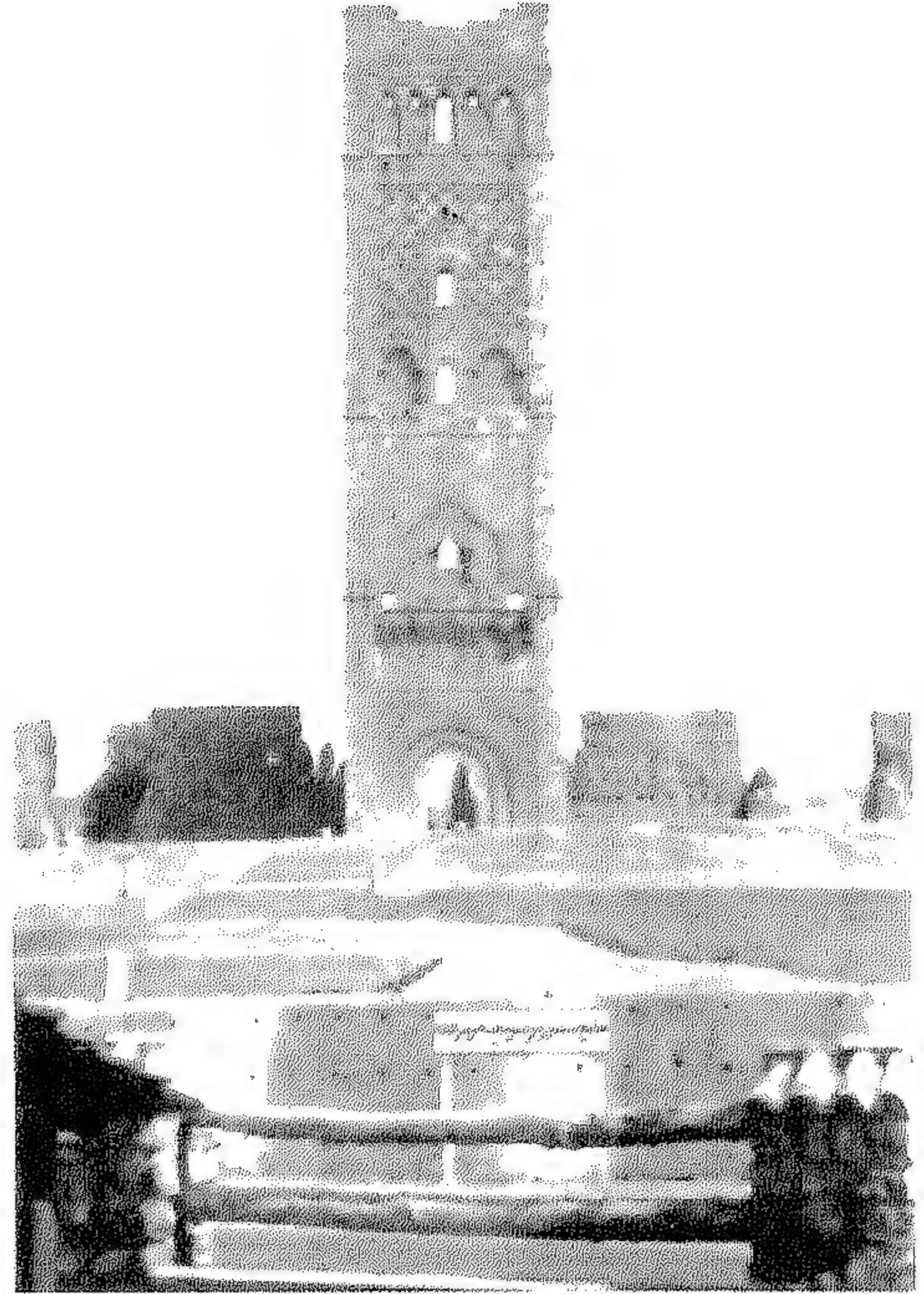
لوحة (١٤) : مئذنة جامع أغادير (تلمسان) .



لوحة (١٥) : مئذنة جامع سيدي ابراهيم (تلمسان) .



لوحة (١٦) : مئذنة جامع
اولاد الامام .
(تلمسان)



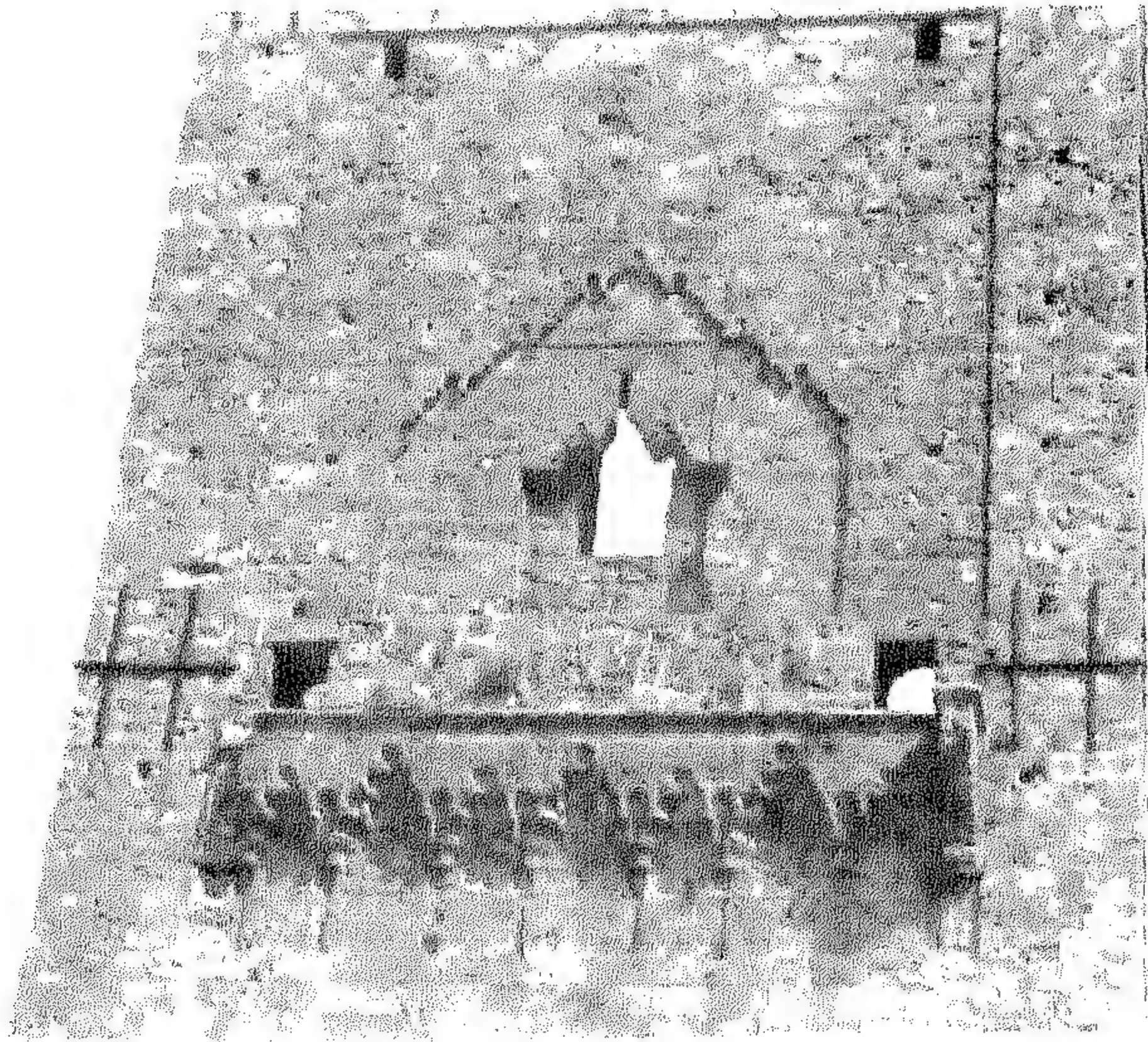
لوحة (١٧) : مئذنة جامع المنصورة،
منظر للواجهة .



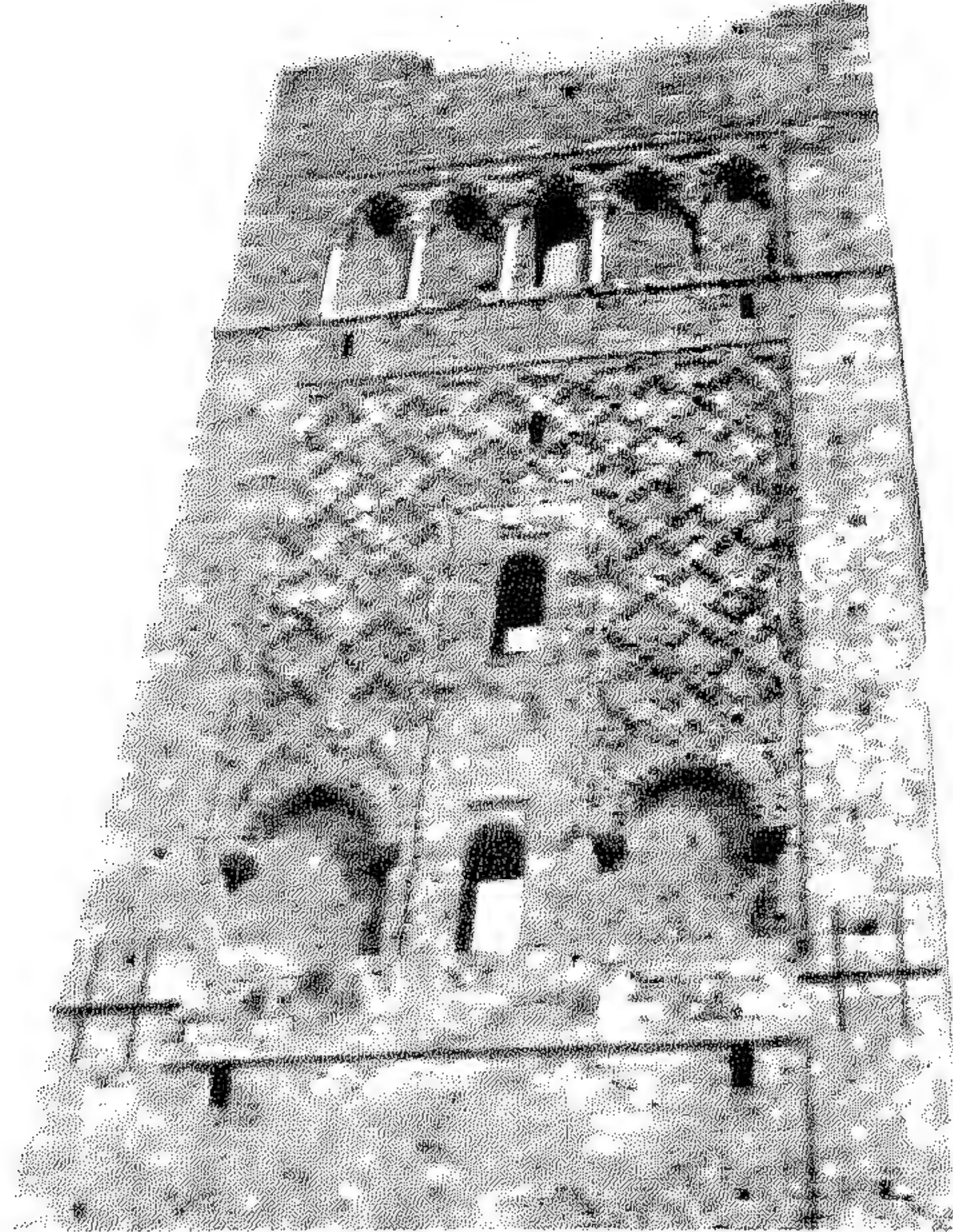
لوحة (١٨) : مدخل مئذنة جامع
المنصورة والزخارف التي تعلوه.



لوحة (١٩) : الاطار الزخرفى الذى يعلو مدخل المئذنة (المتصورة) .



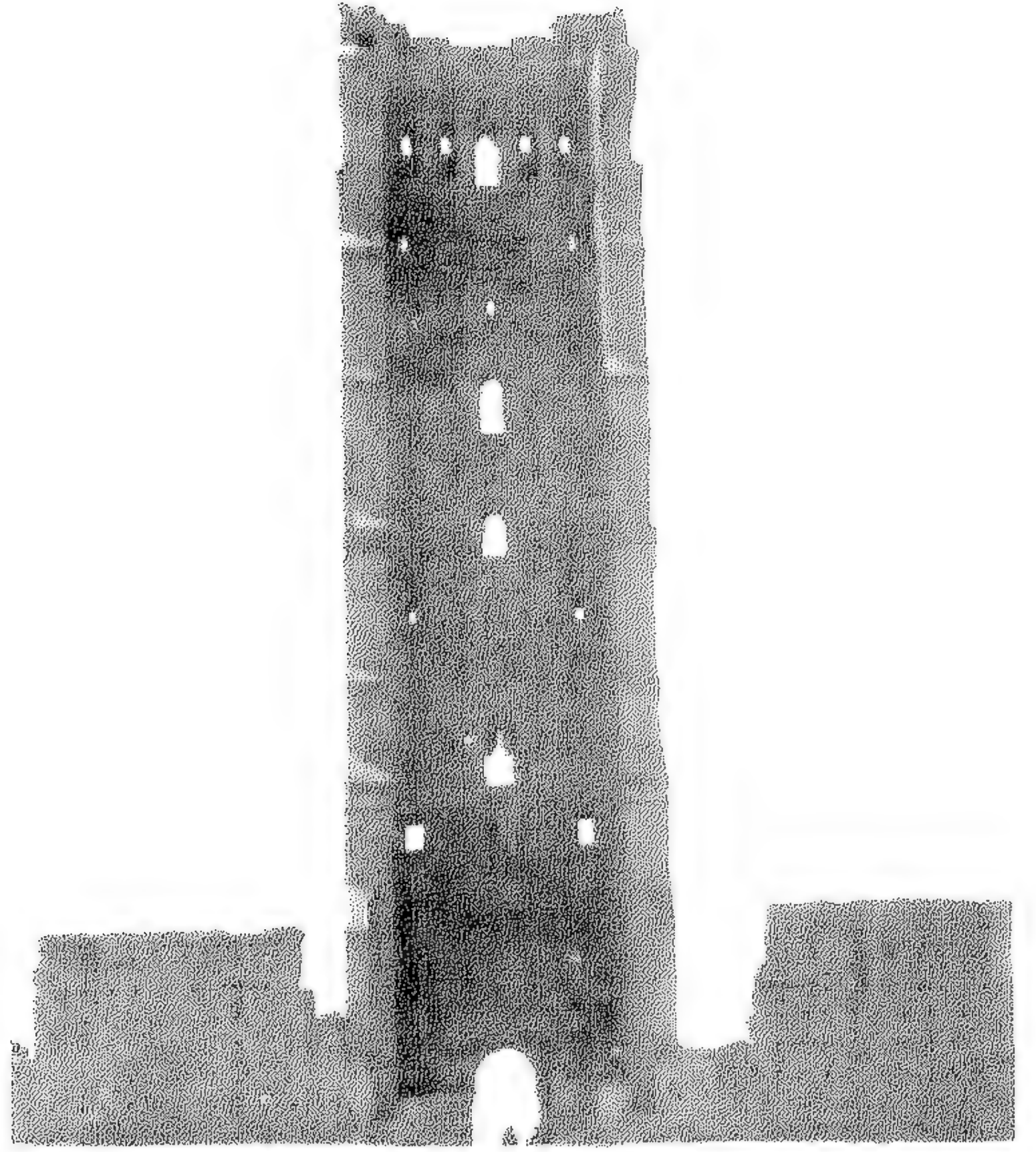
لوحة (٢٠) : الحشوة الثالثة التى تزخرف واجهة مئذنة المتصورة .



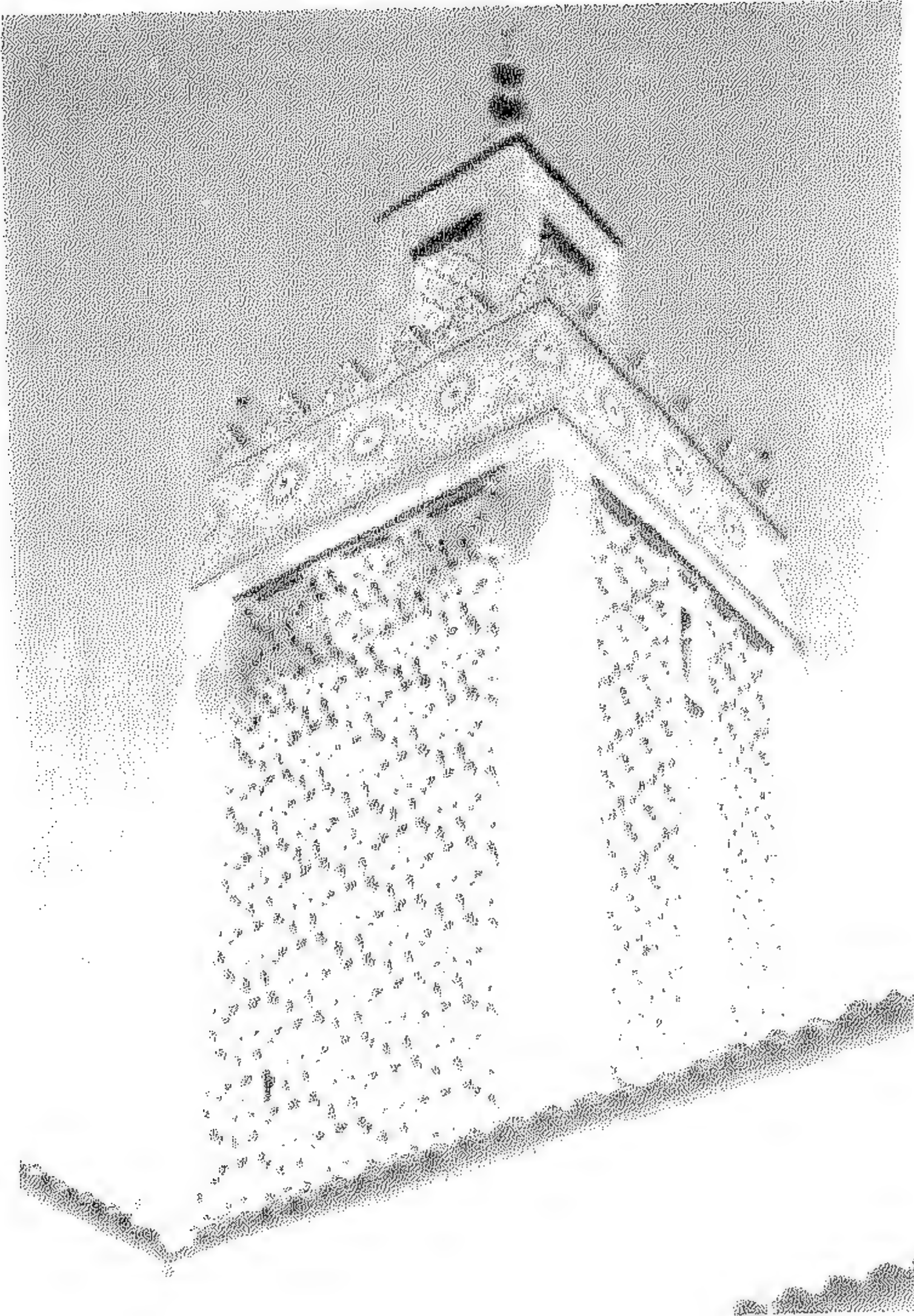
لوحة (٢١) : الجزء العلوي لمئذنة
جامع المنصورة .



لوحة (٢٢) : منظر جانبي لمئذنة
جامع المنصورة .

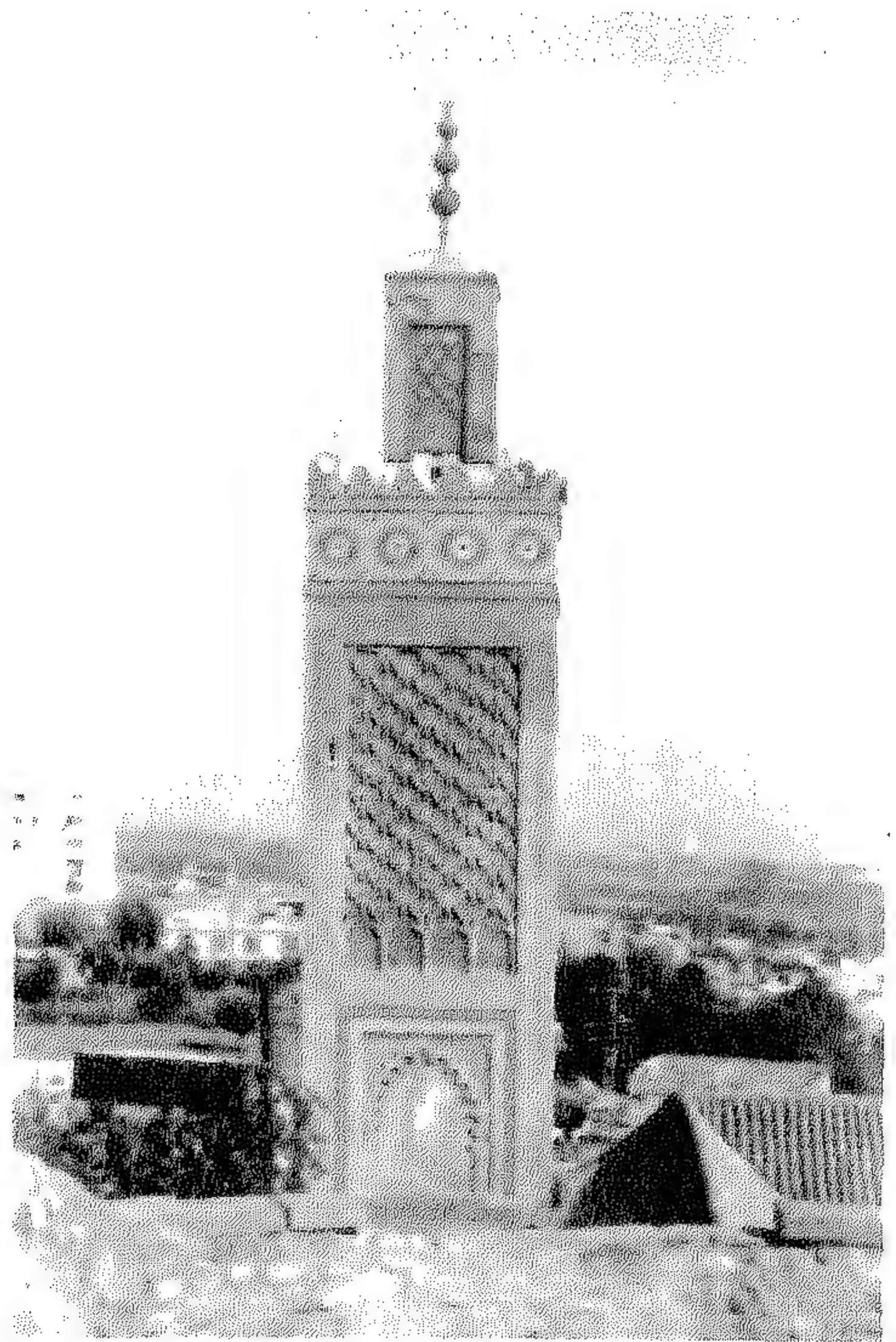


لوحة (٢٣) : منظر يبين تفاصيل
المئذنة من الداخل (المنصورة) .



لوحة (٢٤) : مئذنة جامع سيدي
ابى مدين (تلمسان) .

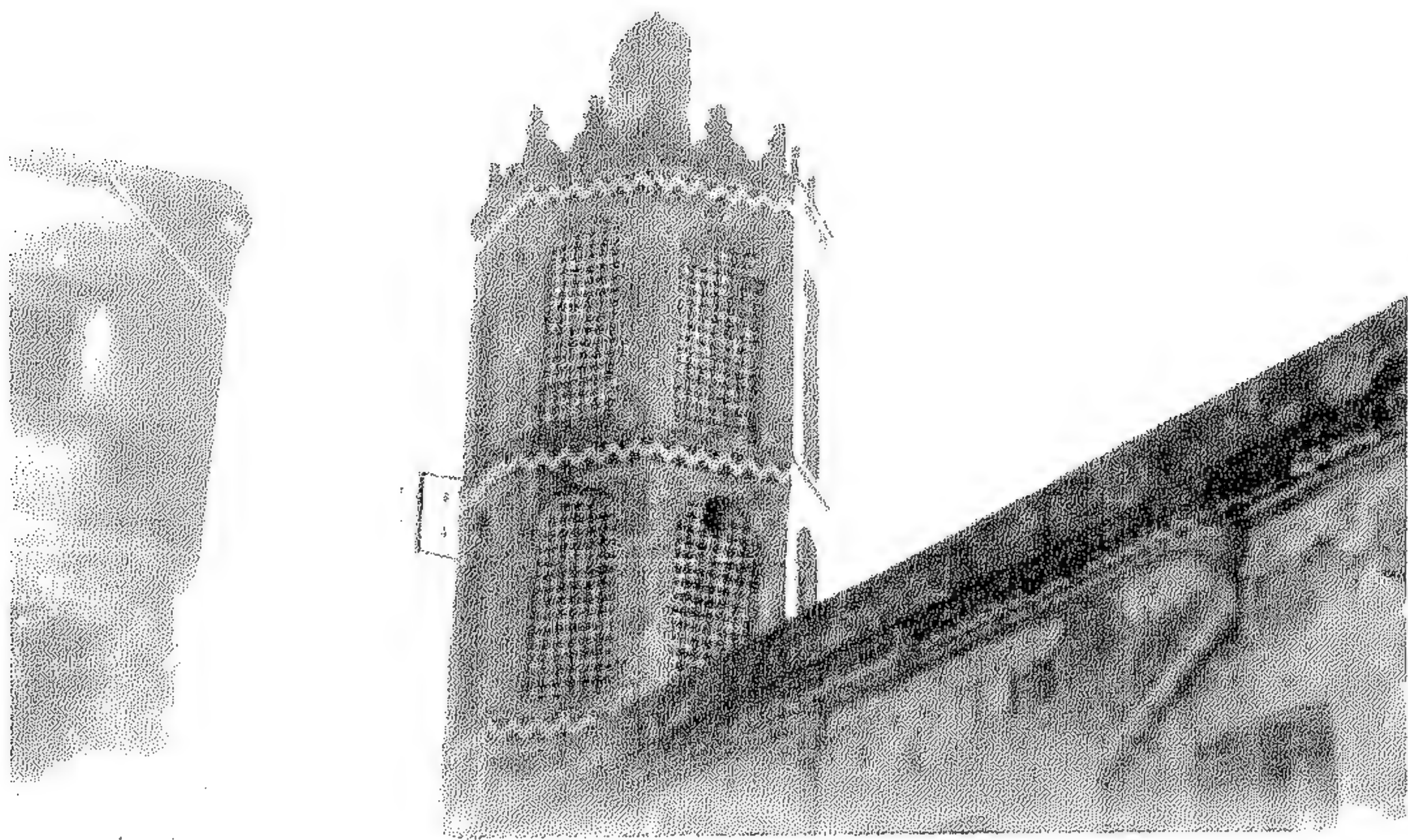
لوحة (٢٥) : مئذنة جامع سيدي
الكلوي (تلمسان) .



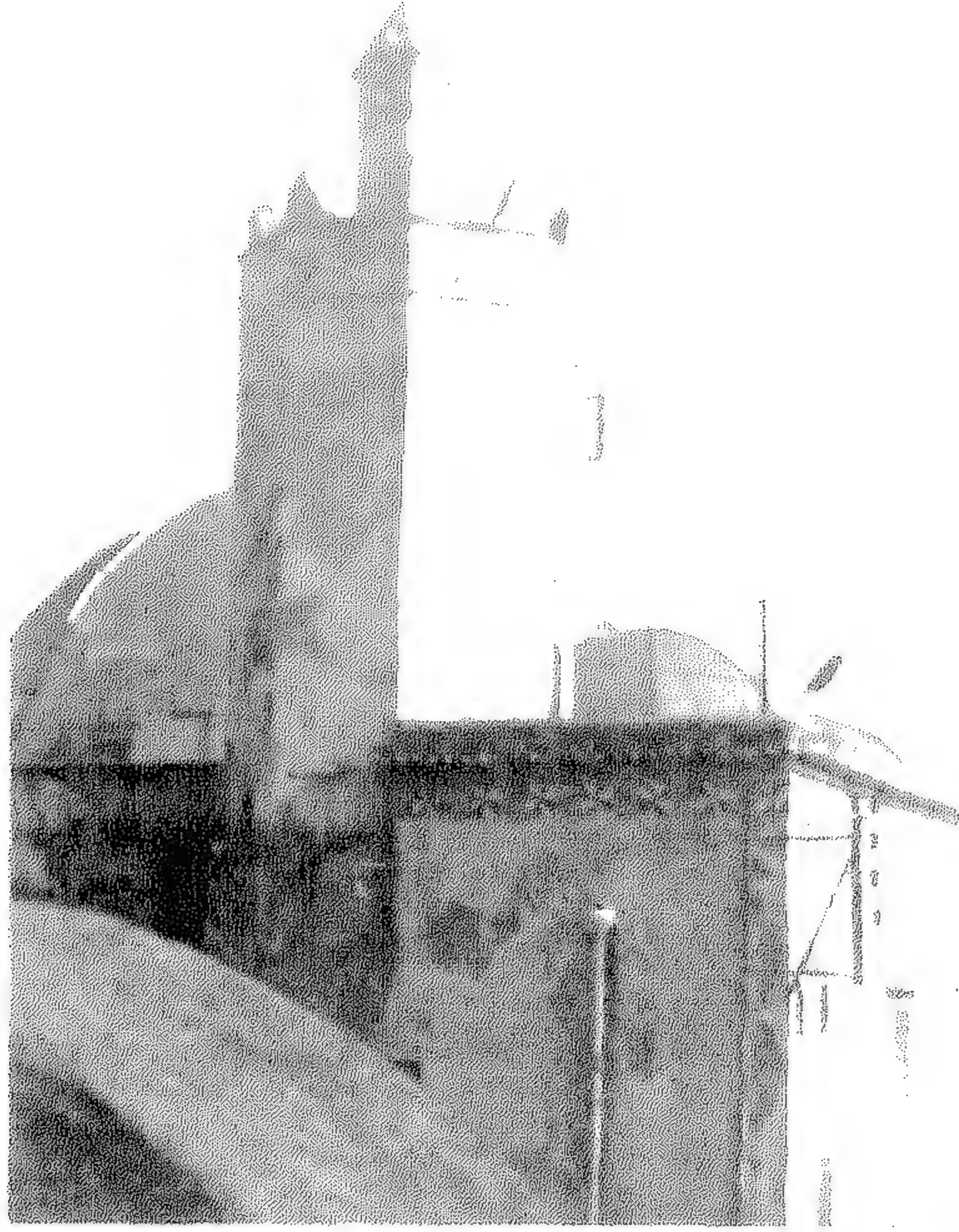
لوحة (٢٦) : منظر جانبي لمئذنة
جامع سيدي الكلوي .



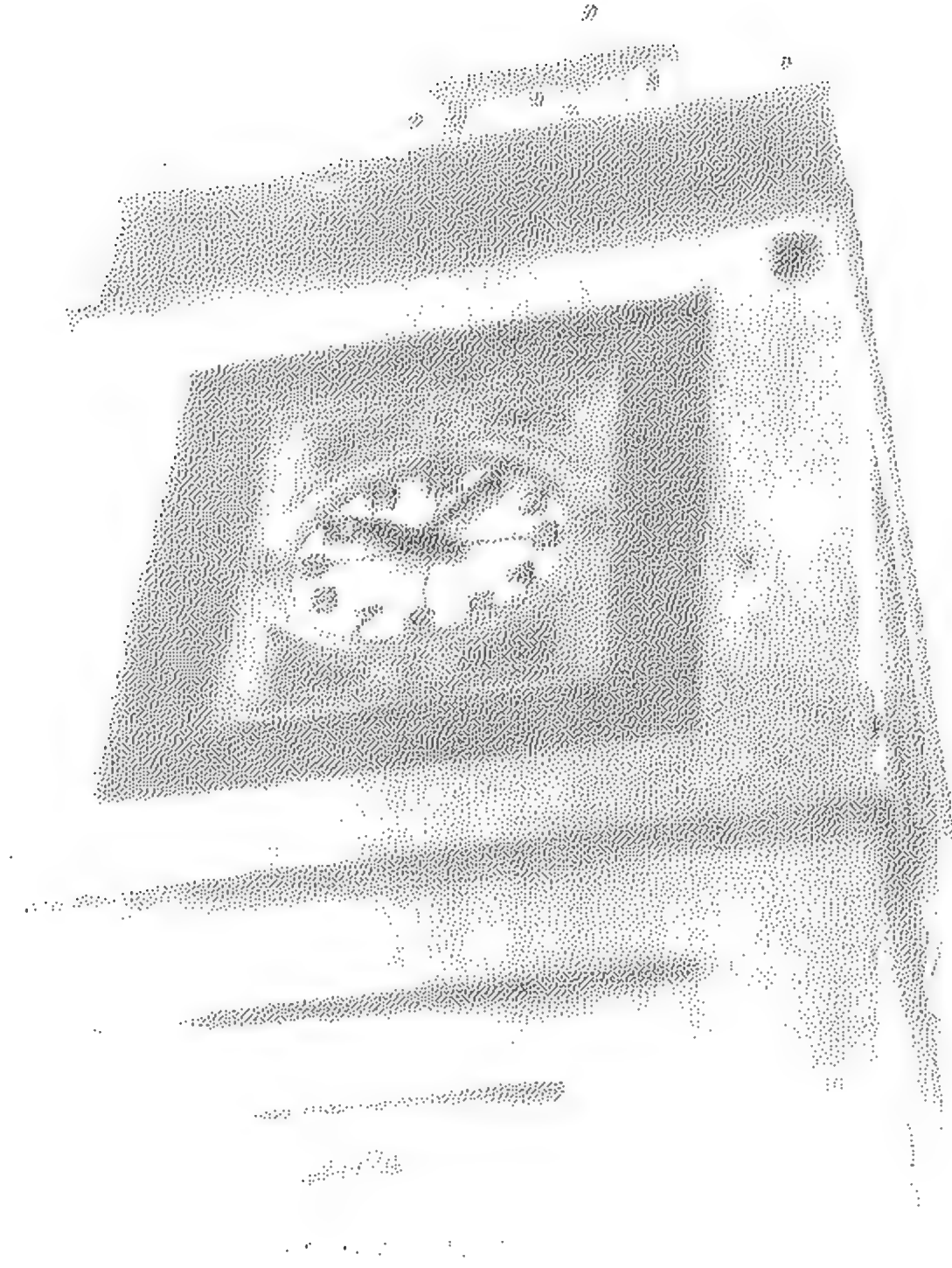
لوحة (٢٧) : مئذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة



لوحة (٢٨) : مئذنة جامع الجيش بالجزائر العاصمة .



لوحة (٢٩) : مئذنة جامع الداى بالجزائر العاصمة .

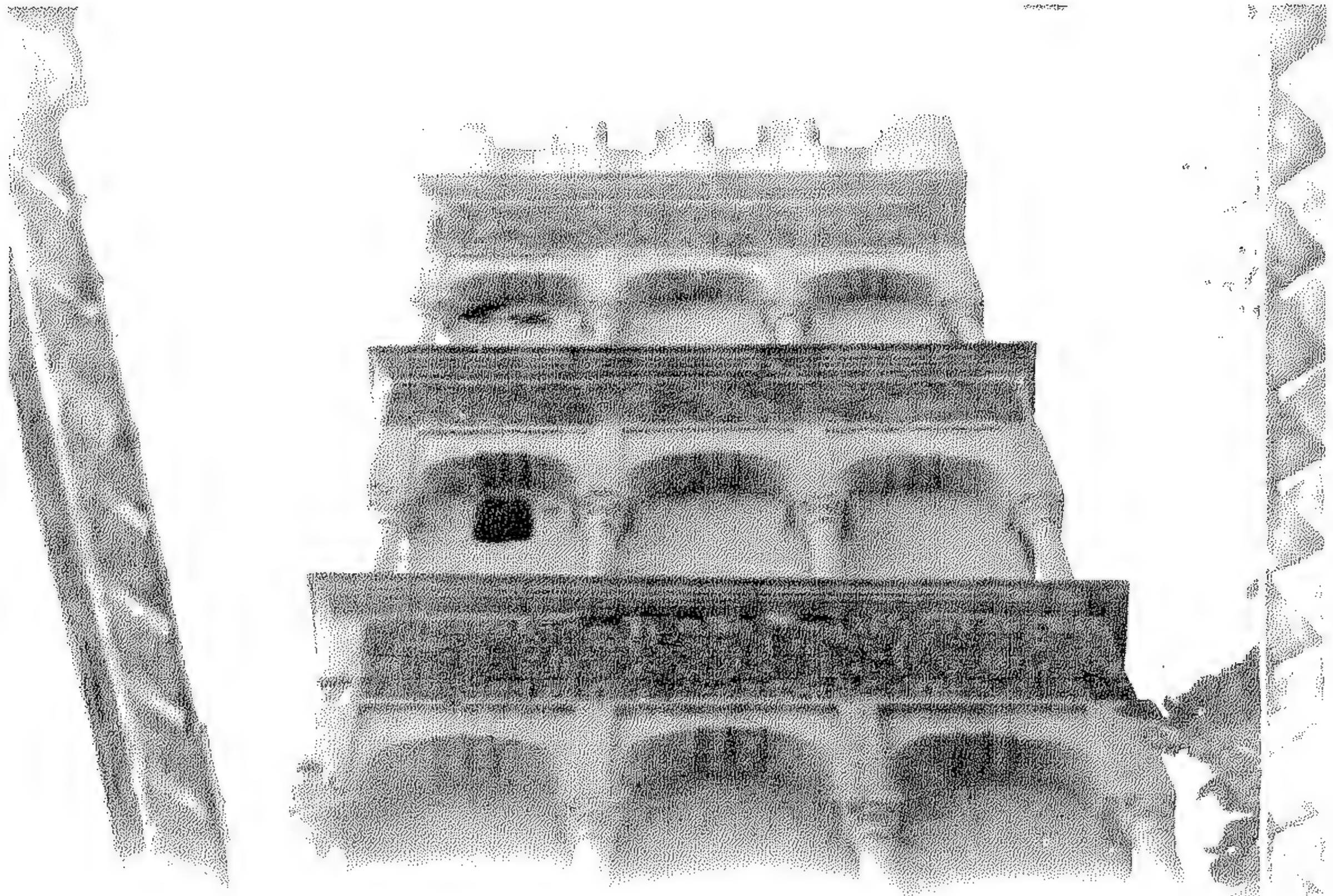


لوحة (٣٠) : الجزء العلوي لمئذنة الجامع الجديد بالجزائر العاصمة .

الجزء العلوي لمئذنة الجامع الجديد بالجزائر العاصمة .
 الجزء العلوي لمئذنة الجامع الجديد بالجزائر العاصمة .
 الجزء العلوي لمئذنة الجامع الجديد بالجزائر العاصمة .



لوحة (٣١) : منظر جانبي لمئذنة الجامع الجديد بالجزائر العاصمة .



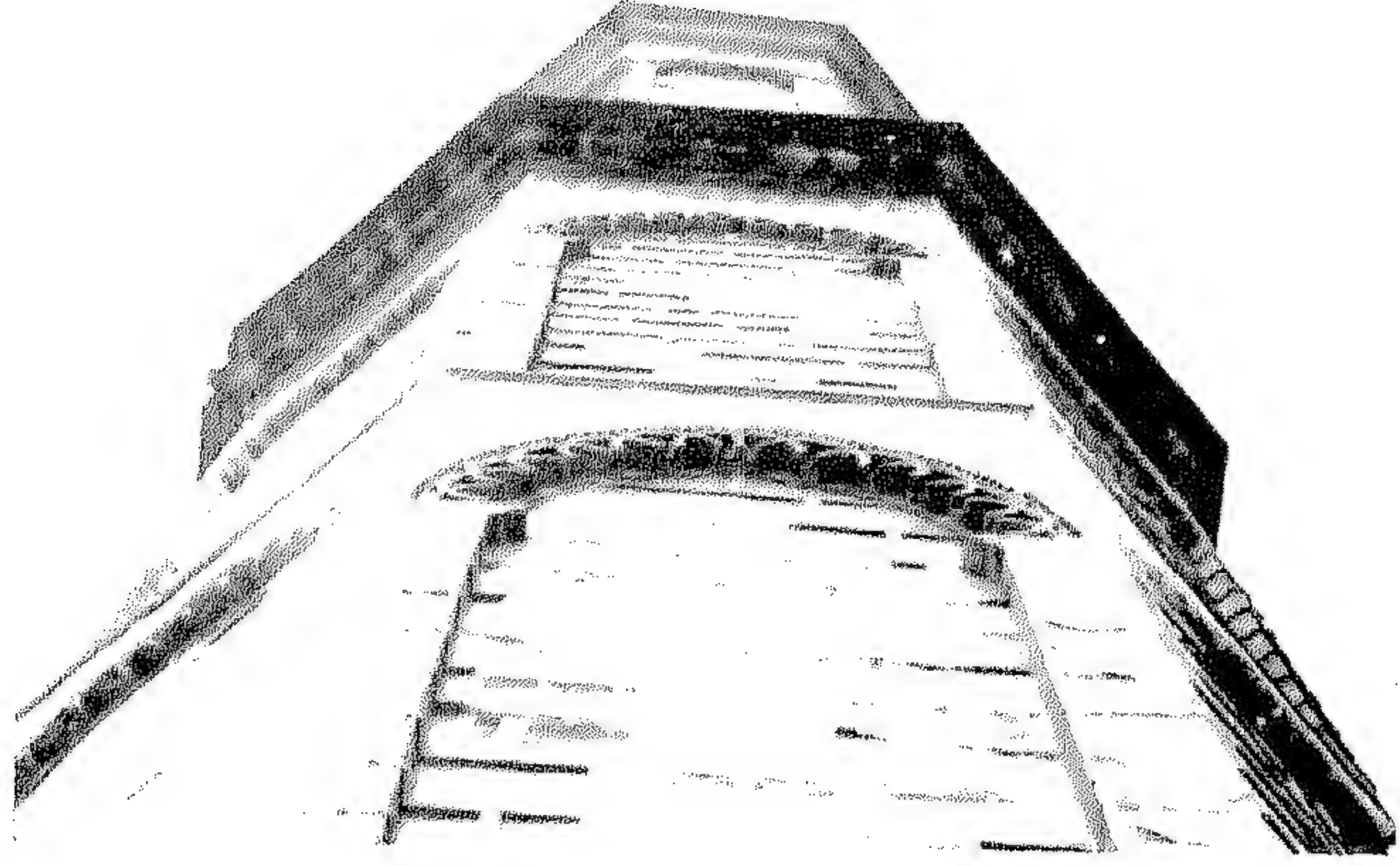
لوحة (٣٢) : الجزء العلوى المزخرف بعقود فى مئذنة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي (الجزائر العاصمة) .



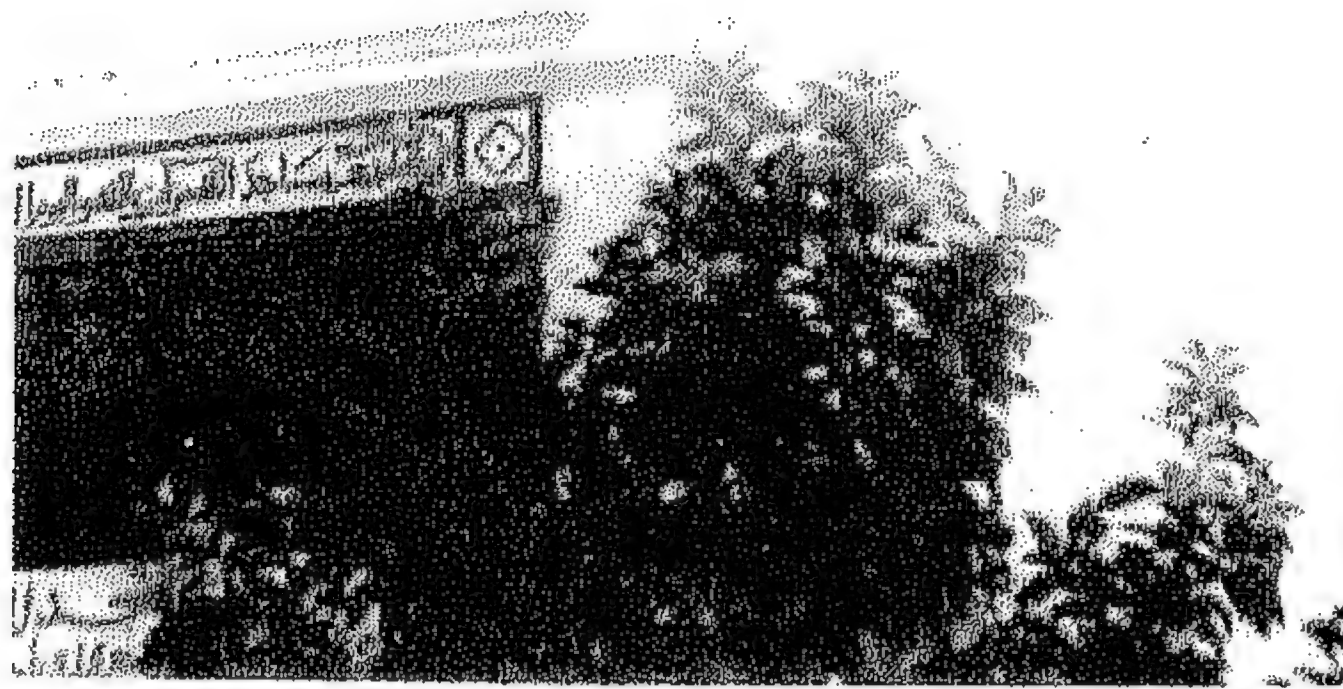
لوحة (٣٣) : منظر عام لمئذنة
جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي.



لوحة (٣٤) : منظر عام لمئذنة
جامع الباشا بوهرا ن .



لوحة (٣٥) : الجزء العلوي لزخارف مئذنة جامع الباشا بوهران .



لوحة (٣٦) : بدن مئذنة
جامع الباشا بوهران .



لوحة (٣٧) : مئذنة جامع صالح باى بعنابة .



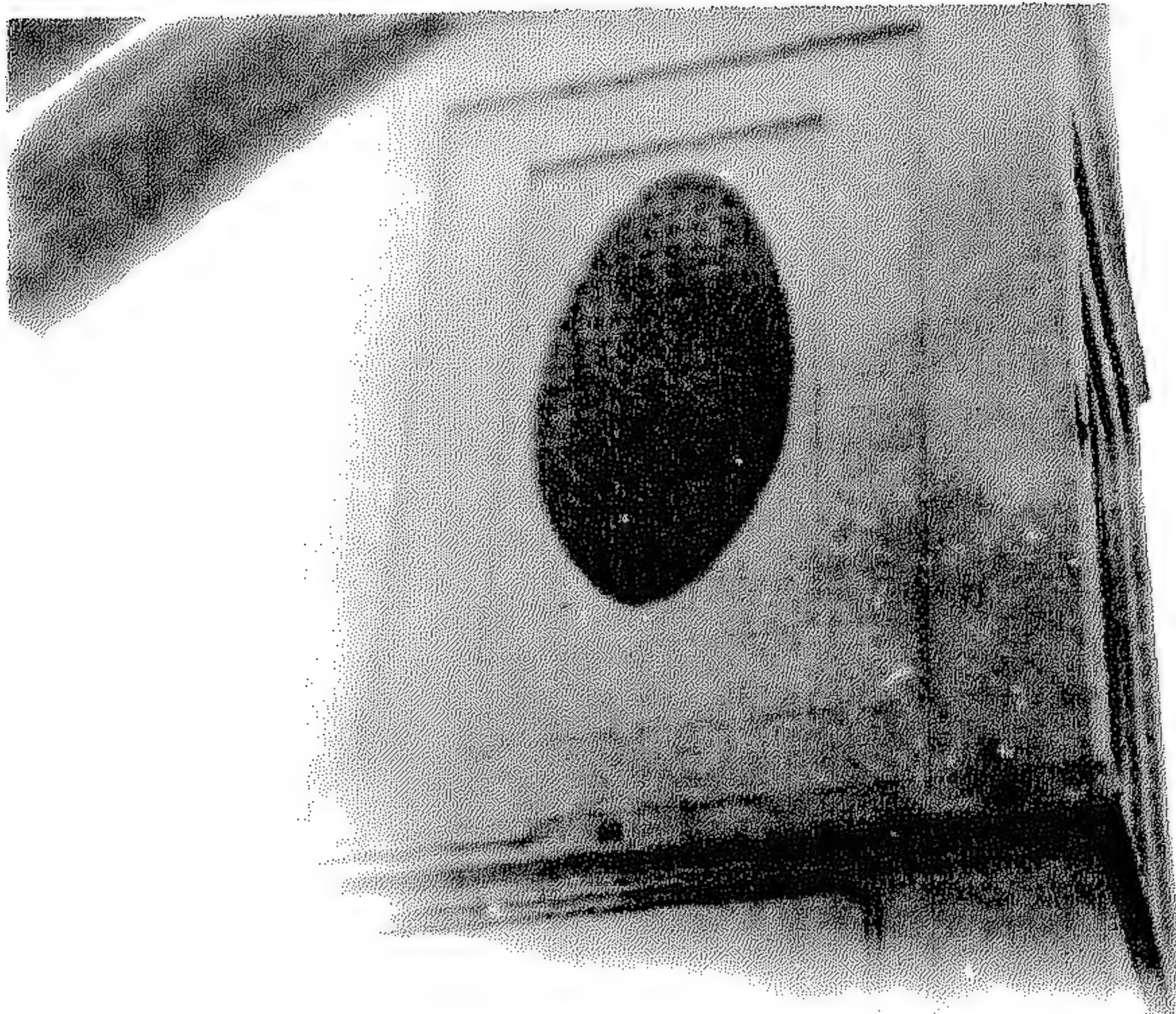
لوحة (٣٨) :
اللوحة الحجرية المزخرفة التي تعلو مدخل مئذنة جامع قلعة بنى حماد .



لوحة (٣٩) : زخارف نباتية متداخلة من الحجر تزين مدخل مئذنة
جامع المنصورة .



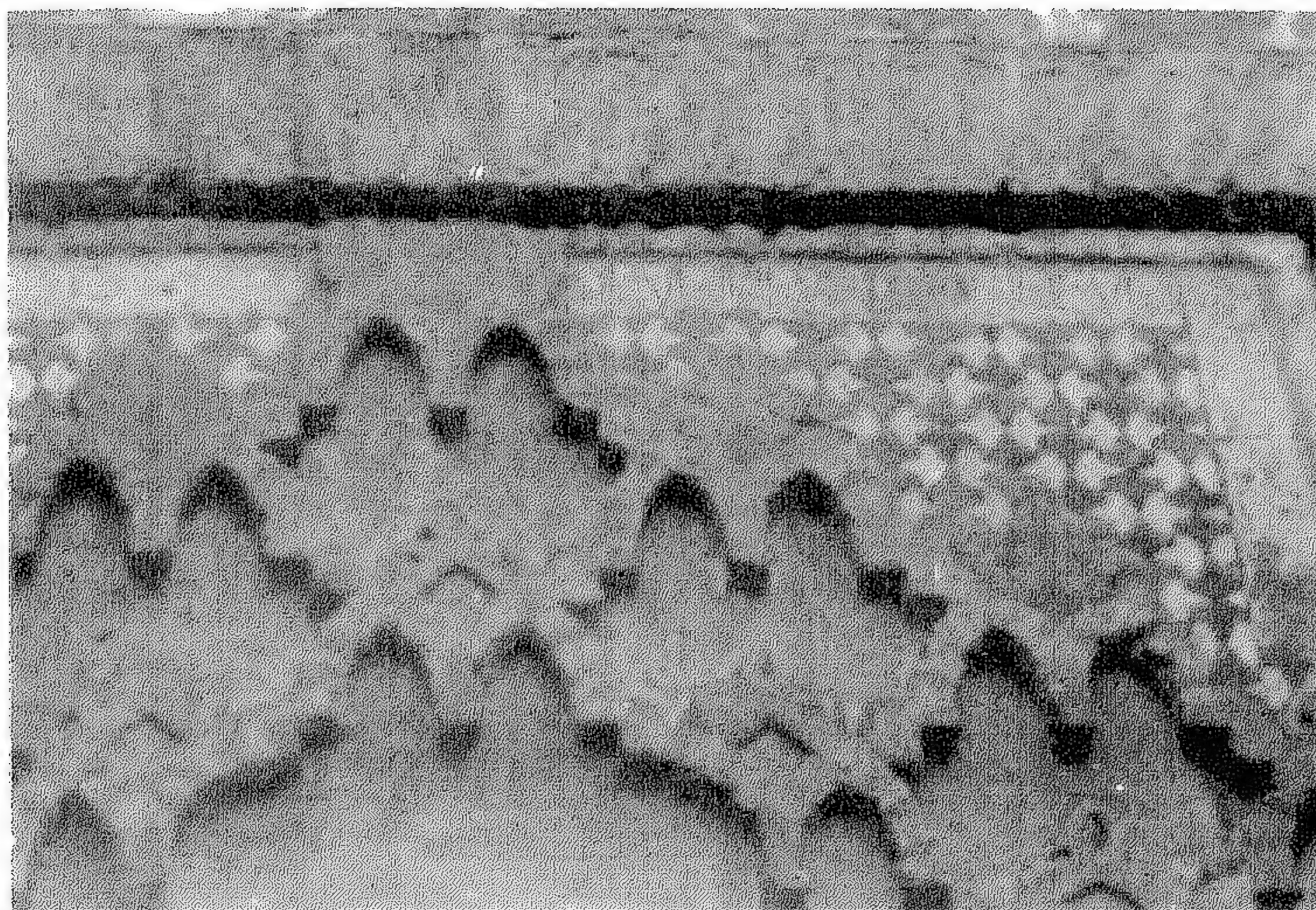
لوحة (٤٠) : الزخارف النباتية بأحدى
الواجهات فى جوسق مئذنة سيدى
ابى مدين .



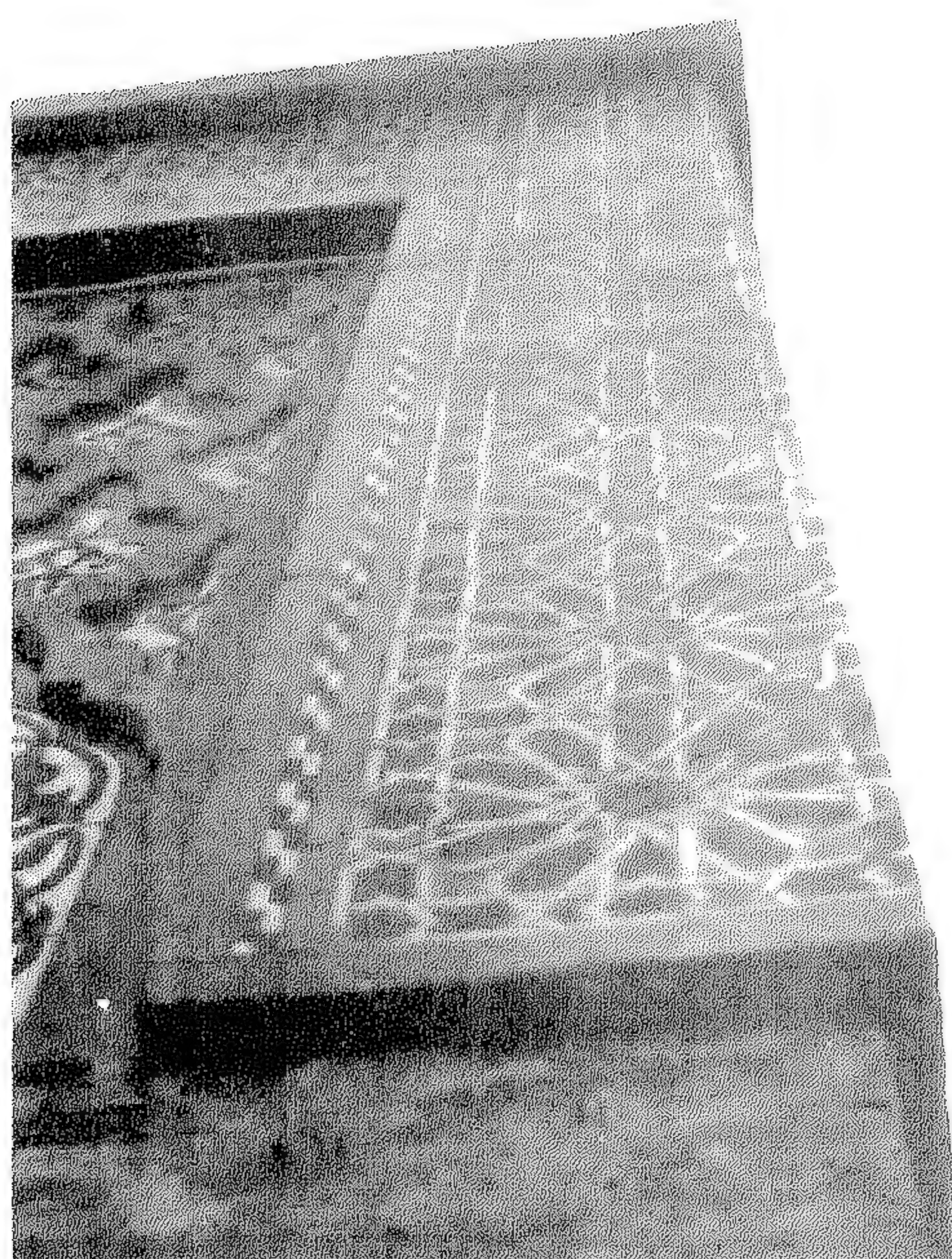
لوحة (٤١) : زخرفة بيضيه من الزليج العثماني على واجهة
الجامع الجديد بالعاصمة .



لوحة (٤٢) :
شريط عريض من الفسيفساء الخزفية بأشكال نباتية وهندسية في مئذنة
جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي .



لوحة (٤٣) : شبكة من المعينات المتشابكة يزين ارضيتها قطع من الزليج ويحيط بها شريط من الكتابة مؤذنة جامع المشور (تلمسان) .

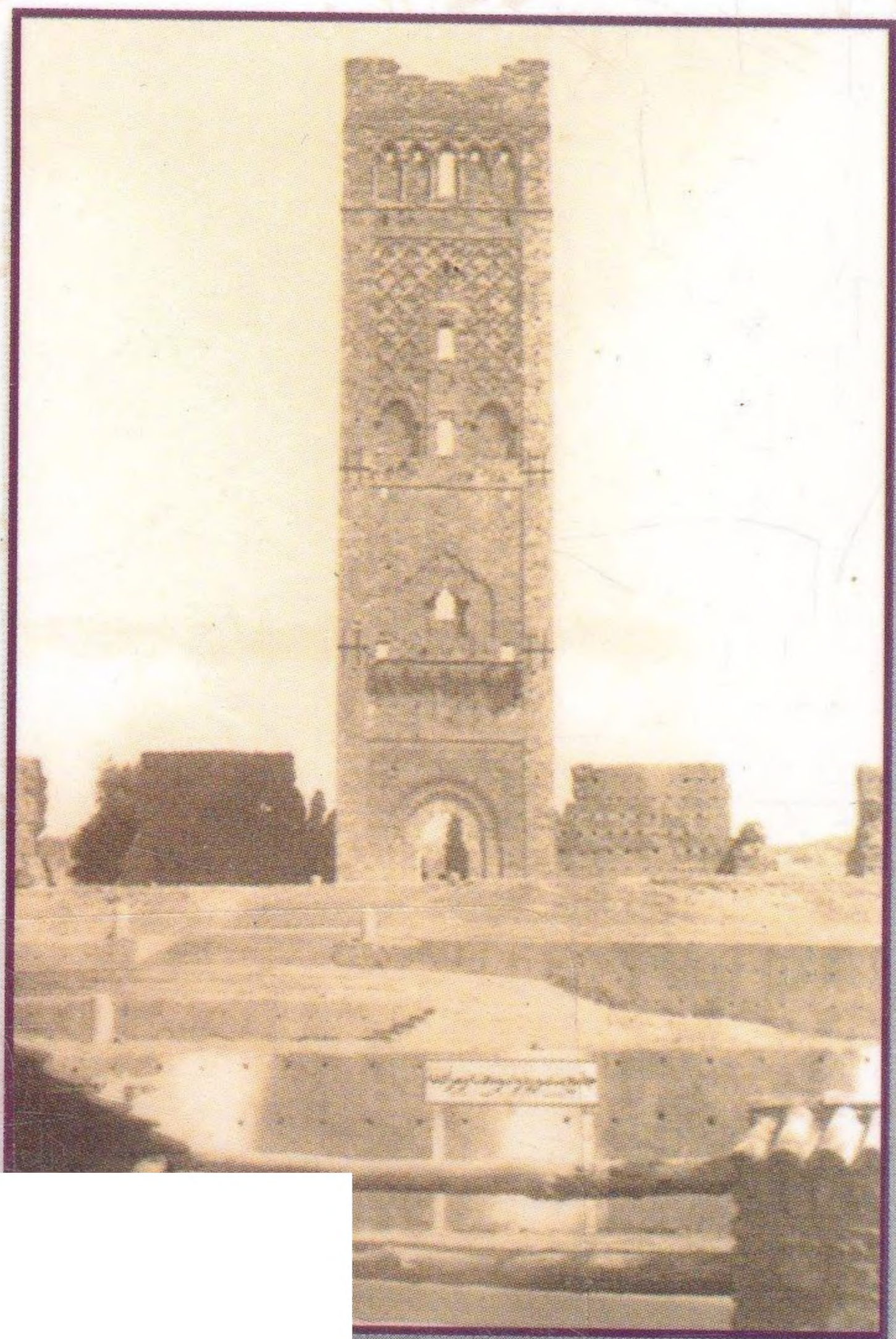
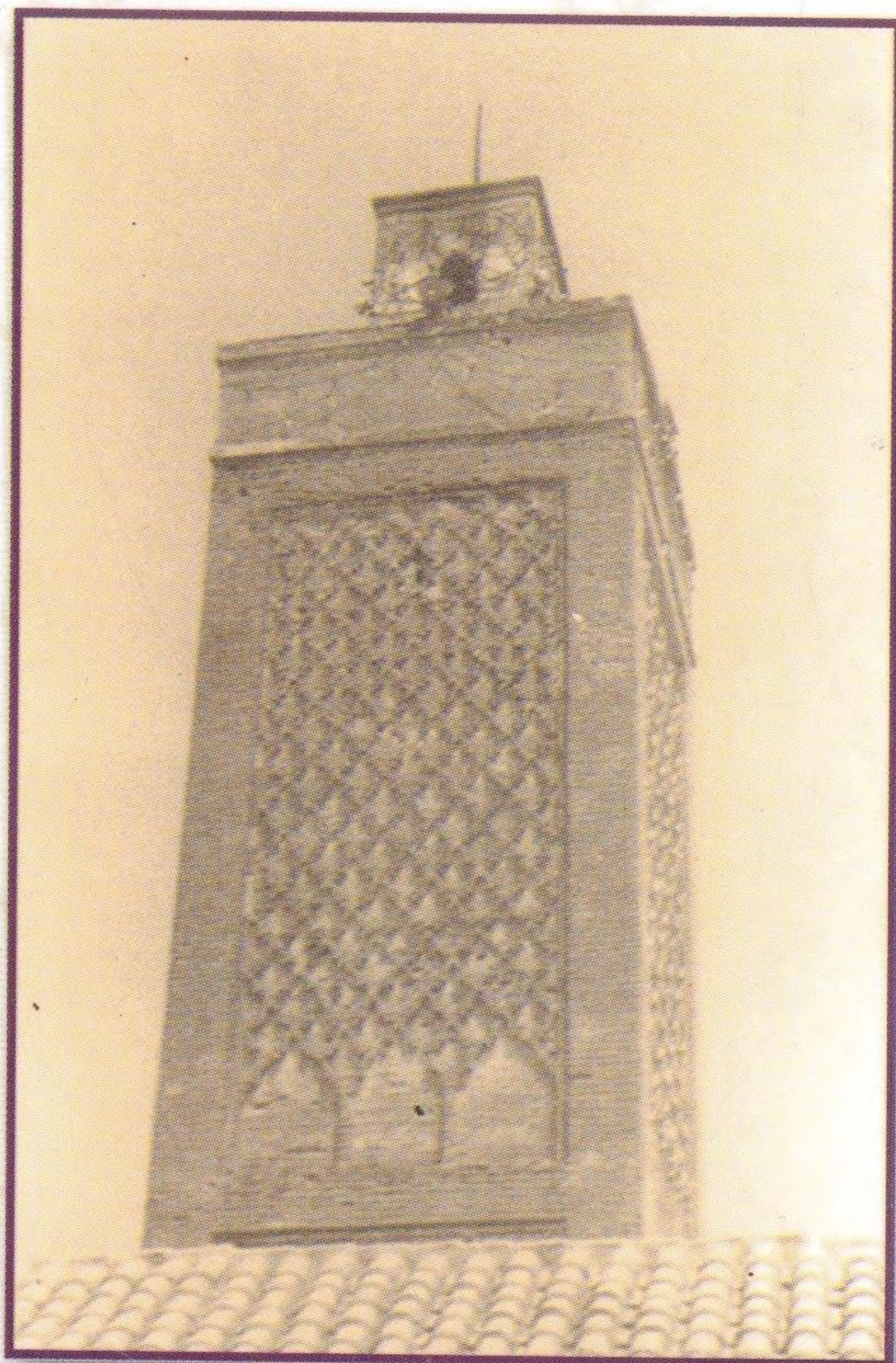


لوحة (٤٤) : شبكة من الزخارف الهندسية التي تزين واجهة جوسق مؤذنة جامع سيدي ابي مدين .

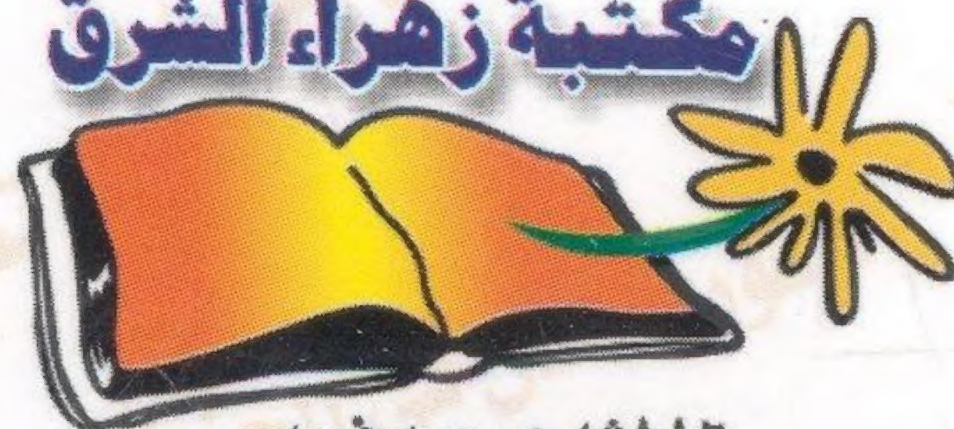


لوحة (٤٥) : صف من المقرنصات التي تظهر لأول مرة في زخرفة الماذن
بالجزائر (مئذنة جامع المنصورة) .

تطور المآذن في الجزائر



الناشر
مكتبة زهراء الشرق



١٦ شارع محمد فريد
ت: ٣٩٢٩١٩٢ موبيل: ٠١٢٣١٧٧٥١٠